مذكرات

جون هال

مذكرات العَمى

رحلة عبر الظلام



ترجمة

د. شريف بقنه

مذكّرات العمى

رحلة عبر الظلام

جون إم هال

ترجمة

د. شريف بقنه

مذكرات العمى

رحلة عبر الظلام

هــذا الكتــاب صــادر عــن مشــروع «مـدْ» للترجمـة الـذي تقـوم عليـه دار أدب للنشــر والتوزيــع ضمــن مبــادرة إثــراء المحتــوى إحــدى مبــادرات مركــز الملــك عبــد العزيــز الثقافــي العالمي (إثراء)

هذه الترجمة هي الترجمة العربية عن الإنجليزية لكتاب:

Notes on Blindness
A Journey through the Dark
By
John hull

تنشر هذه الترجمة عن النسخة الأصلية للكتاب:

بموجب اتفاق حصري مع:

PROFILE BOOKS, Wellcome collection

الآراء الواردة في الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

ⓗ دار أدب للنشر والتوزيع، ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

هال، جون
مذكرات العمى. / جون هال؛ شريف بقنه.- الرياض، ١٤٤٢هـ
٣٨٨ ص؛ المقاس ١٤ × ٢١ سم
ردمك: ٥-٧-٩١٦١٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص أ. بقنه، شريف (مترجم) ب. العنوان
ديوي ٨٣ ,٨٠٨ ١٢٠٧ / ١٤٤٣

رقم الإيداع: ١٢٠٧ / ١٤٤٣
ردمك: ٥-٧-٩١٦١٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ = ٢٠٢١م

info@adab.com adab.com @adab

المملكة العربية السعودية-الرياض

المحتويات

ملاحظة للقارئ

نُشِر هذا الكتاب لأول مرة عام ١٩٩٠ عن دار إس بي سي ك[١]، وأُعيد إصداره في طبعةٍ جديدةٍ عام ٢٠١٣. هذا الإصدار هو طبعة ٢٠١٧، والتي نشرتها ويلكم كولّكشن[٢]، على إثر نجاح: مذكّرات العمى ٢٠١٦[٣]، الفيلم الوثائقي الحائز على عدّة جوائز، والمبني على كتاب: «أمسِكُ بطرَف الخيط[٤]».

(1) Touching the rock by John M. Hull, SPCK Publishing 1990

(2) Notes on Blindness: A Journey through the Dark by John M. Hull, Wellcome Collection and Profile Books 2017

(3) Notes on Blindness 2016

(٤) «أمسِك بطرف الخيط: تجربة العمى» عنوان الكتاب عند صدوره لأولِ مرّة، سيتكرّر ذكر العنوان عدة مرّات في الكتاب، وفي سياقات مختلفة؛ لذلك أحببت التنويه بأن العنوان بالإنجليزية touching the rock من التعابير Idioms أو الاصطلاحات الاستعارية التي لا تُترجم ترجمة حرفية، وعند ترجمتها حرفيًا لا تنقل المعنى المُراد للقارئ العربي، المعنى المقصود هو فعلتها، أو استطعت فِعل الحدّ الأدنى من المهمّة رغم صعوبتها؛ أجِدُ أن «أمسِكُ بطرَف الخيط» تعبير استعاري قريب ومكافئ في العربية.
المترجم

مقدمة

كاثي رينتزنبرينك[1]

لماذا نقرأ؟ أحيانًا أنشد الرّاحة، العزاء، الإلهاء أو الترفيه. في أوقاتٍ أخرى أسعى إلى تعلّم أشياء جديدة، ووضع نفسي في منزلة الآخر. ربّما وخاصّة عندما أقرأ المذكّرات، أريد أن أعرف وأستوعب الإنسان الآخر باستدعاء عالمه. في حالاتٍ نادرة، يجتمع كل ما سبق وأشعر بارتياحٍ عميق، ليس فقط لأني قضيت وقت قراءةٍ جيّد، وإنّما لشعوري أنّني تغيّرت بطريقةٍ أو بأخرى، وأن ما تعلّمته ألقى ضوءًا على رحلتي خلال هذه الحياة العجيبة. «مذكّرات العمى» يستوفي كل هذه الرغبات القرائيّة، وهو نموذجٌ جميل لكيف يمكن أن تكون الكتب نوعيّةً ومحدّدةً بشكل مكثّف وفي ذات اللحظة تحمل معنى كُلّي.

كان جون هال أكاديميًّا، ولاهوتيًّا، مسجّلًا ككفيفٍ في

---

(١) كاثي رنتزينبرينك Cathy Rentzenbrink كاتبة مذكّرات وروائية انجليزية معاصرة.

عـام ١٩٨٠، تقريبًـا فـي نفـس وقـت ولادة طفلـه الثانـي. في البدايـة كان منشـغلاً بحـلِّ المشـكلة واستكشـافها وكل مـا صاحـب ذلـك مـن مفاجأة وتعلّـم لكيفيـة العيـش والعمل. لم تمـضِ سـوى ثلاث سـنوات حتّـى تلاشـى الضـوء الأخير من عينيـه وسـافر بعيـدًا إلـى مـا يسـميّه: «العمـى العميـق»، وبـدأ بتسـجيل ملاحظاتٍ حول حياته على الكاسيت، والتي شكّلت مـادة هـذا الكتاب، راسـمًا خطّ التـدرّج من كونه: «الشـخص المبصـر الـذي لا يمكنـه أن يـرى إلـى أن يصبـح الشـخص الأعمى».

إنّهـا رحلـة عمليّة ومجازيّة. يمكن لهال التنّقل بين المنزل والعمـل بنجـاح كبير باسـتخدام عـكّازه، وفي معظـم الأحيان تكون المخاطر التي يواجهها مرتبطة بالبشـر أكثر من الأشـياء. يلاحـظ كـم هو عويـص علـى الشـخص المبصر اسـتيعاب أن العصا مجرّد أداةٍ لتوسـيع مجال إحساسـه بالأشـياء المحيطة، وليسـت شـيئًا يريـد أن يتكّئ عليـه. إنّها عصا الرؤية، وليسـت عصـا المشـي، غيـر أنّ الراغبيـن فـي المسـاعدة والطموحيـن حولـه يلتقطونهـا ويؤشّـرون له بهـا، ولا يلتقطـون فكرة أنّه لا يمكنـه رؤيـة مـا يفعلـون. ليـس كل شـخصٍ حسَـن النّيـة. ثمّة

رجالٌ مجهولون يتهكّمون في الشارع ويصرخون منبّهين عن سيّاراتٍ وهميّة، أو آخرون يتهمّونه بأنّه محتال. ما يُشعِرُ بالصّدمة أكثر من هذه القسوة العشوائية، هو عندما يغيظه معارفه ويختبرون مدى قدرته في التعرّف على أصواتهم، عوَضًا عند تقديم أنفسهم على الطريقة الملائمة. هذه الألعاب السخيفة تجعل هال يشعر وكأنه في منتصف لعبة بوف الرجل الأعمى[١].

يعتمد الاتصال البشري على مبدأ المعاملة بالمثل، ولكن بالطبع لا يزال هال يرغب بأن يُرى بأكمل صورة على الرغم من أنه لم يعد يَرى. إنّه يخبرنا عن كونه أصبح معاقًا، وبشعوره فقدان جزءٍ من رجولته، وجزءٍ آخر من إنسانيته. كثيرًا ما يجد نفسه في موقف الطفل الذي يتجاهله الناس، ويسألون غيره (زوجته) عمّا يريد أن يفعله.

كيف تكون المشاعر عندما لا يمكن رؤية ما تفعله الأيام

---

(١) دفعة الرجل الأعمى Blind Man's Buff، وهي لعبة قديمة تعود أصولها إلى اليونان القديم قبل ٢٠٠٠ سنة، يكون فيها أحد اللاعبين معصوب العينين ويحاول لمس المشاركين المتفرقين حوله والبحث عنهم.

في ملامح المرء بعد الآن، أو ملامح محبّيه؟ يشعر هال بالكمَد عندما لا يستطيع أن يستحضر صورة زوجته أو ولده الأكبر في مخيّلته، هو الذي لم يرَ أطفاله الصغار من قبل، يستوعب هال وهو محاطٌ بالأطفال من حوله أنّه لا يعرف ما إذا كان الطفل يتحرّك في حضنه بسعادة، ولا يعرف كيف يمكن أن يسأل عن ذلك.

بينما يستمر هال في تأمّل الطبيعة الغريبة لحياته الجديدة، تبرز شخصيّة دافئة وذكيّة ومعبرّة عن رجلٍ يحاول أن يتفهّم ويصنع شيئًا ليس من حالة عماه فقط، وإنّما أيضًا من مفهوم العمى بأكمله. العمل والتأمّل أمران أساسيان لرفاهيّة هال، لدرجة أن الابتعاد ولو ليومٍ واحدٍ من الدّراسة يجعله أقلّ قدرةٍ على التعامل والسيطرة على اليأس. يخبرنا أنّه لا يستطيع أن يكتب كتابة روائيّة أو كتاب حقائق، لكن سعْيه للفهم سيحافظ على إبقائه متّزنًا.

ملاحظات هال على السؤال الأساسي لموقفه تجاه العمى له أهميّته الكبرى في التعامل مع أنواع المحِن التي قد تواجهنا في الواقع ونودُّ رفضها. يطرح المعضلة هنا: « إذا قبَلت هذا الشيء، وإذا أذْعنت، فسأموت. سيكون الأمر كما

لو أن قدرتي على المقاومة، وإرادتي في المقاومة محطّمةز من ناحيةٍ أخرى، يبدو أن رفض الإذعان، رفض القبول، أمر عديم الجدوى. ما أحاول أن أرفض قبوله هو محْضُ الحقيقة».

قرب نهاية الكتاب يجد هال حلًّا وسطًا بين ثنائيات القبول والرفض البحتة يسمّي ذلك بـ «التكامل»، ويأخذه إلى مرحلةٍ أخرى في الرحلة: «كلّما تعمّق المرء أكثر فأكثر في العمى، فإن الأشياء التي اعتُبرتْ ذات يومٍ أمرًا مفروغًا منه، والتي أثارت الحزن لاختفائها، والتي حاول المرء بشتى الطرق تعويضها، في لحظةٍ ما وبطريقةٍ ما تقِلُّ أهميّتها، لم يعد شكل الناس أو ما تبدو عليه المدن ذات أهميّة... يبدأ المرء من جديد ويقيم في عالم آخر».

حيث كان هال قد تذوّق الجمال بمشاهدة كنيسةٍ ذات مرّة، الآن تغمره البهجة لسماع أجراسها. يمكنه أن يعرف ما إذا كان الضوء يضيء بتوجيه وجهه ناحيته، يلاحظ أن بشرته أصبحت أكثر حساسيّة لتغيّرات الريح والشمس. يبدأ في اعتبار نفسه الرائي بكامل الجسد: «الشّخص الأعمى هو ببساطةٍ شخص تكمن الوظيفة المتخصّصة للبصر على كامل

جسـده، ليس هناك عضو محـدّد يتخصص في ذلك».

هـل ثمّة معنى يُمكن استخلاصه مـن العمى؟ في كثيرٍ من الأحيـان يسـأل النـاس هال عن أعمـال العنايـة الإلهية[1] وهو مستبشـر بالطبيعـة العرضيّـة لحالتـه. لقـد وُلِد فـي وقتٍ مضى وقُـدِّر لـه وأن فقـد بصره، ربّمـا يمكن تلافي ما حـدَث لو قُدّر لـه وأن وُلِـد فـي المسـتقبل، ولكـن يمكنّنـا تغييـر الأحـداث العرضيـة مـن حياتنـا لجعلهـا تحمـل هدفًـا: «السـعادة ليسـت أهـم شـيءٍ في الحيـاة، بل المعنى. السـعادة هي نتيجةٌ لسلسـةٍ مـن الأحداث التي تبعـث على غبطتنا. العمى لا يسـعدني. لم أختـره، ولم ينزلـه أحدٌ على عاتقي. ومع ذلك كحدثٍ عرضي يمكـن أن يصبح ذا مغزى».

توفـي جـون هال في عام ٢٠١٥. نجا مع أطفاله الخمسـة وزوجتـه (أرملتـه) مارليـن التـي كتبـت خاتمـةً لهـذه الطبعـة الجديـدة مـن الكتـاب. هنـاك حكمـةٌ فـي كل صفحـةٍ من هذا الاسـتنطاق الذاتـي المشـغول بدقّـة والـذي تركـه وراءه. هذه البرقيّـات المُرسـلة من الظـلام، ولكن أيضًا من النور، سـتبقى

---

(١) providence ويجـوز ترجمـة المفـردة إلـى الحيطـة أو التبصّـر فـي العواقب.

معـي لفتـرةٍ طويلـة من الزمن. يا لهـا من هدية للبشـرية جمعاء أن يكتـب شـخصٌ واحـدٌ بصراحـةٍ ووضـوح عـن الطريقة التي يواجه بها المكفوفون عالمهم.

تمهيد

جون إم هال

ربما أنّك ترغب في فهم العمى بشكلٍ أفضل، بقراءة هذا الكتاب. تريد أن تعرف ما الذي يعنيه أن تصبح أعمى، أن تكون أعمى. بعد عدّة أعوامٍ من فقدان بصري؛ أصبحت مهتمّاً بالعمى، وقرأت أكثر من عشرين سيرةٍ ذاتيّة لأشخاصٍ فقدوا البصر.

أذهلتني هذه القصص؛ كانت الفكاهة والشّجاعة والألمعيّة تُفعِم حياتهم. حكى بعضهم كيف أصبحوا أبطال جولف، وخبراء تزلّج، وممارسين للطبّ، ورجال أعمالٍ ناجحين. كتَبَ البعض منهم عن إيمانهم المُعلِن، وآخرون تحلّوا بروح القبول الرواقي. كان معظمهم قصصًا ملهمةً للانتصار والمصالحة، لكنّني لم أجد ما كنت أبحث عنه: سرْدٌ للعمى كما عرفته. ربما لم أنظر بجدّيةٍ بما يكفي، أو لم أقرأ المزيد على نطاق يتّسع، كل ما يمكنني قوله هو أن

الكتب التي قرأتها لم تصِف لي جوانب العمى التي كانت أكثر أهميّةٍ بالنسبة لي. العديد منها كانت سرديّات أدبيّة: لها بداية، ومنتصف، ونهاية. كانت أشبه بالروايات، بأسلوبٍ مثير للاهتمام، متصاعِد أو تقريري. هذا الكتاب ليس كذلك.

في يونيو من عام ١٩٨٣، بعد عامين ونصف من تسجيلي كشخصٍ كفيف، بدأت في تسجيل تجربتي ويوميّاتي على شريط كاسيت، كان ذلك عندما بدأت تحاصرني حقيقة أنني أعمى. قد تتساءل: لماذا استغرق الأمر وقتًا طويلاً؟ لكنّ السنوات القليلة الأولى كانت مليئةً بالمشاكل العويصة، والتي كان يتعيّن عليّ أن أجدَ لها حلًا. بعد ذلك فقط بدأت أشعر بالتغيير والتحوّل من شخصٍ مبصرٍ لا يرى إلى شخصٍ أعمى. أحيانًا كنت أضيف شيئًا إلى الكاسيت كل يوم، يومًا بعد يوم، وفي أحيانٍ أخرى تمرّ الأسابيع بلا أيّ إضافة. لقد سجّلت أشياءً شعرت بها بشدّة؛ أشياءٌ حيّرتني حينها أو بعثت في داخلي البهجة. قلتُ ما كان عليّ أن أقوله لمساعدة نفسي، والتعامل مع ما كان يدور حولي. ظللتُ على هذه الحالة لثلاث سنوات، وتدريجيًا بدَت الحاجة للمزيد من

التّسـجيلات تقِـل. تحدّثـت عـن أطفالي، عملـي، علاقاتي مع النساء والرجال، وسـجّلت حتّى أحلامي.

هـذا الكتـاب هو النتيجـة. كتابٌ ليس له نهايـة معيّنة؛ لأن العمـى ليـس له نهاية. سيكون رائعاً أن أكون قـادرًا على قَوْل إن النّهايـة كانـت سـعيدة، إن معجـزةً حدثـت، لكـنّ ذلـك لم يحـدث. كيـف سيكتشـف أطفالـي تدريجيًّـا فقدانـي البصـر؟ كنـت مهتمًا بهذا السـؤال، وما الـذي يعنيه أن يكون لديهم أبٌ أعمـى. كنـت مهتمًا بما سـيحدث لأحلامي. سـجّلت أحلامي فـي الغالـب في اليوم التالي لحدوث الحلـم، أحيانًا بعد دقائقٍ مـن اسـتيقاظي. تشـكِّل الطبيعـة السـردية للحلـم نوعًـا مـن الحبكـة الفرعيّـة، إن كان يمكن تسـميتها حبكة؛ لأن المحتوى الواعـي يكشـف كيـف عانـى العقـل اللاواعـي مع المشـكلة. العلاقـة بيـن الحلم واليقظة وطبيعة الوعي بحدّ ذاته هو إحدى الثيمـات المتكـرّرة فـي الكتـاب. تشـمل الثيمـات الأخـرى الإدراك المتغيّـر للطبيعـة، التحـوّل فـي فهـم مـا يعنيـه الفـرد، ومشـكلة تفهّم واسـتيعاب هذه الخسارة الفادحة.

الكتـاب ليس منظّمًا بشـكلٍ مُحكَـم. ثمّة أجزاء متناثرة في ثنايـا الكتـاب. هنـاك أوقـات تبدو الحلـول فيهـا محصورةً في

البصر، إذا جاز التعبير، ولكن هناك انتكاسات مستمّرة، خاصّة عندما لا أشعر بتعلّم أو اكتساب أي شيء. إذا كان هناك تكرار؛ فذلك لأنّ ذات المشاكل والتجارب صالت وجالت، وجرى تأويلها من جوانب عدّة.

إلى القارئِ الكفيف

يختلـف المكفوفون عـن بعضهم البعض تمامًا مثل اختلاف المبصريـن. لا أدّعي أنّنـي أتحدث بالنيابة عنك، ولكنّني أتحدّث عن نفسـي فقط. لستَ بحاجـةٍ لمعرفة كيف يبـدو العمى؛ لأنّك أعمى. ربما أنّك تقرأ هذا الكتاب بحثًا عن رفقةِ شخص آخر عبَر في ذات الطريق .. أتمنى أن تجده هنا.

١

غرَق

صيف ١٩٨٣

١ يونيو

كـم من الوقت عليـك أن تصبح أعمى قبل أن تفقد أحلامك ألوانها؟ هل تظلّ تحلم بالصور إلى الأبد؟ سُـجّلت كفيفًا منذ ما يقرب من ثلاث سـنوات. في الأشـهر القليلة الماضية، خبا الأثر الأخير للضوء من عيني. الآن أنا أعمى تمامًا. لا أسـتطيع التميّيز بيـن النهـار والليـل. أسـتطيع التحديق فـي الشـمس دون أن أرى بصيصَ نورٍ منها.

خـلال هذا الوقـت؛ بقيت أحلامـي التصويريّة. فـي الواقع؛ أصبحـت الأحلام ممتعة بشـكلٍ خاص؛ لشـعور الحريّـة الملوّنة التي أمارسـها عندما أحلم. تُرى هـل أثّر العمى على أحلامي من الأساس؟

منذ حوالي ستة أشهر حلمت أنّ بصَري تحسّن، ورأيت ابني توماس. كان هناك؛ ممتلئ الخدّين مبتهجًا، طفلًا صغيرًا مفعمًا بالحيوية، يبلغ من العمر عامين ونصف جالسًا في حضني.

أجريت عملية عيني الأخيرة في ١ أغسطس، ووُلِد توماس في ٢٢ أغسطس. عندما لا أستطيع أن أتذكّر كم من الوقت مضى منذ أن أصبحت أعمى، أسأل نفسي كم عمر توماس.

كان تواجدي وقت الولادة أمرًا مرعبًا، ولكنها كانت تجربة بديعة. قاموا عندها بتشغيل ميكروفون جهاز مراقبة نبضات الطفل، واستطعت سماعها بوضوح عند جلوسي بالقرب من السّرير. تزوّجنا أنا ومارلين منذ أقل من عام. كانت نبضات قلب الطفل سريعة بشكلٍ لا يصدّق، تأتي كموجاتٍ صغيرةٍ تتسارع بالتزامن مع الانقباضات. في كثير من الأحيان لم أكن أعرف ما الذي كان يحدث. كانت مارلين تبكي، ويبدو أن السرير كان محاطًا بالقابلات والأطباء. كانت هناك لحظاتٌ من الهدوء تبِعها بكاء طِفل.

لمدة ثمانية عشر شهرًا، واصلت تخيّل بعض الانطباعات البصريّة عنه. على بُعد بضعة أقدام منّي، كنت أستطيع معرفةَ مكانه وما اللون الذي يرتديه. أستطيع أن أحدّد الخطوط العريضة

لملامح وجهه عندما كان يتثاءب أو يُلّوح. بقيّة التفاصيل الدقيقة ظلّت مفقودة، التعبيرات الصغيرة حول العينين، الأحاسيس المبكّرة في المراحل الأولى. في صيف عام ١٩٨١؛ على الشاطئ في ويلز، كنت أقوم بربط خيطٍ حول كاحِله، حتى أتمكّن من إيجاده لو زحَف بعيدًا عنّي. عندما كَبُر، واستطاع المشي؛ أصبحت ألعب معه على درجات مكتبة الجامعة. كنت أترك له زمام الأمور أحيانًا، فإذا اختفى أنصِتُ وأتتبّع صوتَ حذائه وهو يركض على الأرضيّة الحجريّة في صباحات السّبت الشتائية تلك، كان حرم الجامعة وقتها شبه مهجور. كنت أركض وراءه في حالة من الذعر أحيانًا، خوفًا من أن يصل حافّة شيءٍ ما قبل أن أتمكّن من الإمساك به. كان بصري أكثر ضعفًا عندما أصبح توماس أكثر قدرةٍ على الحركة، وأصبحت هذه النزهات أكثر صعوبة.

٣ يونيو

منذ حوالي أسبوع حلمت أنني أعود بالقطار إلى بلدةٍ في نورماندي. كنت على موعدٍ للقاء مارلين في مطعمٍ كُنّا قد زُرْناه في رحلةٍ إلى نورماندي قبل عامٍ أو نحوه من زفافنا. غادرتُ

المحطّة وتوقّفت لتفحّص الخريطة والتعرّف على مكان المحطّة؛ لأُدرك لحظتها أنني تركت عصاي البيضاء في القطار. لم تكُن كيفيّة التنقل بدون العصا ما بعث في داخلي القلق، ولكن حقيقة أنني فقدت قطعةً من ممتلكاتي. وجدتُ نفسي حينها ممسكًا بأنبوبٍ معدنيٍّ طويل، من النوع الذي يُستخدم في علّاقات الملابس المتنقلة. كنت استخدم الأنبوب لاستكشاف طريقي، ولاحظت أن الناس كانوا ينظرون إليّ بفضولٍ في المنطقة المحيطة بالمحطّة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أحلم فيها بأنني أعمى، وثمّة الكثير من التناقضات التي لم تُحل هنا. من المستحيل على شخصٍ أعمى يعتمد على العصا أن ينسى أن يُحْضرها معه. أردت الحريّة والاستقلالية في الحركة، التي من شأنها أن تسمح لي بالتزام موعدي مع مارلين في المطعم، لكن العمى سينزع مني هذه الحريّة بالضرورة؛ لذلك كان لدي العصا البيضاء، لكنّها لم تكُن لدي. لا أستطيع التحرّك بدون بديلٍ من نوعٍ ما لِلعصا، ومع ذلك استطعت أن أشاهد ردود أفعال الناس من حولي. فقدت شيئًا كنت أحتاجه عندما التقيت مارلين. فقدان العصا لم يكن فقدان قدرتي على العثور عليها فقط، بل كان

خسـارةً لشيءٍ أعمق وأكثر سطوة؛ فقدان مقدرتي على حبّها.

بـدأت بحمْـل عصـا بيضاء قصيـرة فـي وقت مبكـر من عام ١٩٨٠؛ لغـرض اسـتخدامها إشـارةً للمـرور عند عبور الشّـارع. عندما ضعف بصري أكثر؛ اشـتريت عصا أطوَل قليلًا، ثم أطوَل. أخيرًا؛ اشـتريت عصا كاملة الطول، بطول خمسة أقدام، لها عقفه مُـدوّرة على المقبض. لـم يكن لدي الوقت للتمرين على التّنقل، مع ذلك فإنني أتساءل في بعض الأوقات ما إذا كنت قد اكتسبت عاداتٍ سيّئة في أسـلوبي، والتي كان من الممكن تلافيها ببعض التعليمات والتدريب.

علـى العمـوم؛ تلـك كانـت تجربتي، ولـو كان لـدي عادات سيئة، تُسبّب لـي بعـض الثّقلـة، والقُصـور فـي حركتي؛ فسـيتم تصحيحها تلقائيًّا في محاولتي التحرّك بحريّة أكثر. بعبارةٍ أخرى؛ العمى نفسـه يفرض قانونًا حديديًا على مسـتخدم العصا البيضاء. أعمدةُ الإنارة، حواف الأرصفة والسلالم أفضل المعلمين.

٥ يونيو

أحيانـاً عندمـا أحيّـي أحدهـم بقـول: «يومـك جميـل!»؛ لا يستجيب أو يبدو متفاجئًا. فكرة اليـوم الجميل بالضرورة بصريّة

إلى حدٍ كبير. يحدث اليوم الجميل عندما تكون هناك سماء زرقاء وصافية. تكون الشمس مشرقة وقد تكون دافئة بشكل معقول، على الرغم من أن اليوم الصافي في منتصف الشتاء يطلق عليه: «يوم جميل، لكنّه قارس بعض الشيء». لن يسميه الشخص المبصر يومًا جميلًا، بل يوم حلو فحسْب؛ لأنه ملبّد بالغيوم.

بالنسبة لي أخذَت الريح منزلة الشمس، واليوم الجميل هو يومٌ فيه النسيم معتدل. الريح تحضر كل الأصوات حيّة في بيئتي. أوراق الشجر وحفيفها، وورق الجرائد وهو يرقص طول الرصيف ويصادم الجدران وزوايا المباني الكبيرة التي لا ترضخ للريح. مُجرّد أن يكون اليوم دافئًا، أعتبره يومًا جميلًا، لكن الرّعد يجعله أكثر إثارة؛ لأنه يُشعِرني فجأةً بالمكان والمسافة. يضَع الرّعد سقفًا فوق رأسي، سقفًا عاليًا بعيدًا، سماوةً مقبّبة من الصوت الهادر. أدرك أنني في مكانٍ كبير، لم يكن فيه شيء على الإطلاق من قبل. الشخص المبصر لديه سقف فوق رأسه، على شكل سماء زرقاء أو غيوم أو نجوم في الليل. ينطبق الشيء نفسه بالنسبة للأعمى، نوْح الريح حول الأشجار، يخلُق الأشجار بالنسبة لي ويصوّرها من العدَم.

ينشأ سوء الفهم بيني وبين المبصرين عندما يكون اليوم معتدلاً، أو حتى دافئًا، مع نسيمٍ خفيف، ولكنّ سماء ملبّدة

بالغيوم. بالنسبة للمبصرين، لن يكون ذلك يومًا جميلًا؛ لأن السماء ليست زرقاء.

أضطر إلى إبداء تعليقاتٍ أكثر تحديدًا حول الطقس. عليّ أن أتذكّر وأقول إنه يومٌ جميل ومعتدل، أو ذلك نسيمٌ لطيف.

٨ يونيو

الليلة الماضية حلمت حلمًا منعشًا وجميلًا، كنت أسير على طول وادٍ نهري. كانت هناك منازل جميلة، أكواخ عطلات بُنيَت على طول ضفة النهر. كنت في عطلةٍ، أتنزّه مشيًا على الأقدام. شعرتُ أنني كنت أنظر هنا وهناك، لمعرفة ما إذا كان لدي نطاق رؤية كافٍ لتغطية الوادي بأكمله وما يحيط بهِ. على الرغم من أن الأمر لم يكن مثاليًا، إلا أنني تعرّفت على المكان بشكل جيّد وتمكّنت من التنّقل بحريّةٍ والاستمتاع بالمناظر الطبيعية. كنت أقول لنفسي: «ها أنت ذا، الضوء جيّد ويمكنك الرؤية! في ظل هذه الظروف يمكنك تدبّر الأمر بشكلٍ جيد».

في عامي ١٩٧٦ و١٩٧٧ كنت لا أزال أرى جيدًا بما يكفي لأستمتع بالمشي منفردًا لمسافاتٍ طويلة في ريف ورشستر

وشروبشـاير[١]. مكاني المفضل للمشـي كان وادي سـيفيرن[٢]. اعتـدت علـى الذهـاب بالحافلـة أو القطـار. ركـوب الحافلـة الصحيحـة كان بمثابـة مشـكلة. كان علـيّ الذهـاب إلـى محطـة الحافـلات فـي وسـط المدينـة للبحـث عـن الموقـف والمسـار الصحيـح للحافلة التي أريد، وأحيانًـا أقِفُ عند محطة الحافلات بالقرب من منزلي وأقوم بإيقاف كلّ حافلة قادمة؛ لأسـأل السائق ما إذا كان ذاهبًا في طريقي.

حاولت معرفة أرقام الحافلات باستخدام منظارٍ صغير، لكن فـي كثيـر من الأحيـان تتعدّانـي الحافلة قبل أن أتمكّـن من ذلك. كانـت قـراءة الخرائـط لا تزال ممكنة بالعدسـة المكبّـرة. أحببت المشي على ضفّة النهر؛ لأنه يكاد من المستحيل أن أضيع، ولكن كان من الضروري الانتباه للأرض من تحتي وأنا أمشـي. غالبًا ما أقول لنفسـي «شـريطة أن لا يزداد الوضع سـوءًا، لا يزال بإمكاني تدبّر الأمر».

بقيَـت معـي هذه الفكرة لمدة عشـر سـنوات علـى الأقل. لا يزال بإمكاني تدبّر الأمر، شـريطة أن لا يزداد سـوءًا. حتى بعد أن سُـجّلت كفيفًـا، كان بإمكاني السـير في طريقي مـن المكتب إلى

(1) Worcestershire and Shropshire

(2) The Severn Valley

منزلي باتباع خطوط وقوف السيارات الصفراء المزدوجة الساطعة المطبوعة على حواف شوارع الجامعة.

سأظلّ على ما يرام، إذا بقيتُ على هذا النحو. عندما ساءت الأمور، كان بإمكاني العودة إلى المنزل ليلاً باتباع مصابيح الشوارع، واحدًا تلوَ الآخر. شعرت وكأنني بحّار من أقاصي المحيط، في ليلةٍ سوداء حبرية ودليلي نجمٌ وحيد. كلما وصلت إلى عمود إنارة، بالكاد يمكنني رؤية الضوء الصغير الخافت للعمود الذي يليه. لا يزال بإمكاني تدبّر الأمر، شريطة أن لا يزداد سوءًا.

يبدو أن أحلامي تخلّفت عن الواقع بحوالي ست سنوات.

٢١ يونيو

في أوّلِ أعوام الإصابة بالعمى، فكّرت في الأشخاص الذين أعرفهم وقسّمتهم إلى مجموعتين. أولئك الذين لديهم وجوه، وأولئك الذين ليس لديهم وجوه. كان الأمر أشبه بالتجوّل في معرض الصّوَر الوطنية. هنا تقعُ صفوفٌ من الصور، لكن هناك مجرّد إطاراتٍ فارغة. يمكنك معرفة مكان تعليقها من خلاصة المعلومات عنها، وتحت كلّ خلاصة ملصَقٌ صغير عليه الاسم. ربما تكون هذه الصورة مُعَارة في مكانٍ آخر، أو في طور الإصلاح في الوقت الحالي.

الأشـخاص الذيـن عرفتهـم قبـل فقداني بصـري كان لديهم وجـوه، ولكـن أولئك الذين التقيت بهم بعـد ذلك لـم يكُن لديهم وجـوه. اعتدت العثـور على خطّ التضاد الفاصـل بين مجموعتي بشـر، وكان ذلـك يزعجنـي. لا يمكننـي خلط مجموعـةٍ بأخرى. اسـتطعت التعرّف على المجموعة الأولى بوجوههم، لكن كيف يمكنني التعرّف على المجموعة الثانية؟

مـع مـرور الوقـت، زاد عـدد الأشـخاص الذيـن لا أعـرف وجوههم. غرفٌ كاملة من الإطارات الفارغة، أو الصور المطمورة بالغبـار. من الـوارد أن يأتي اليوم الـذي أزور فيه المعرض لأجد الباب مغلقًا، مع إشعار يقول: «هذا المعرض مغلق للأبَد!».

لقـد مـرّت ثلاث سـنوات منـذ أن رأيت أي شـخص. الأمر الغريـب، أن فـي ذهنـي صـورًا واضحـةً إلـى حـدٍّ مـا لكثيـر مـن الأشـخاص ممـن لـم ألتق بهـم مرة أخـرى خلال هذه السـنوات الثلاث، ولكن صور الأشخاص الذين ألتقي بهم كل يومٍ أصبحت مغبّشة؛ لماذا يحصل كل ذلك؟

فـي حالـة الأشـخاص الذيـن ألتقي بهـم كل يوم، اسـتمرّت علاقتـي بهـم وتعدّت مسـألة فقـدان البصـر؛ لذلك أفـكاري عن هـؤلاء الأشـخاص مرتبطة بآخـر تطـوّرات علاقاتنا. ذلـك يحِلّ

محلّ الإطار الفارغ جزئياً، ويجعله أقلّ أهميّة. في حالة الأشخاص الذين أعرفهم جيدًا، ولكن لم يحدُث وأن التقيتهم منذ سنين، لم يحدث شيء ليحلّ محل الصّورة، وكلّما تذكّرت أحدهم تبادرت صورته إلى ذهني.

انزعجت كثيرًا عندما أدركت أنني بدأت نسيان ملامح مارلين وإيموجين. كانت لدي إرادة لتحدّي العمى. لقد أقسمت لنفسي أنني سأحمل وجه زوجتي وابنتي مخبأً في قلبي، حتى لو سُرِق كل شيءٍ آخر في المعرض.

إذا رغبتُ في استعادة وجه شخص قريب جدًا مني، فإني أفعل ذلك بتخيّل صورة بعينها. صورة حقيقية يمكنني تذكرها بوضوحٍ وصفاء من أيامي المبصرة. عندما أحاول استحضار ذكرى وجه محبوب، لا أستطيع القبض عليه، لكن يبدو أن الحواف المستقيمة للصورة تُعيد تثبيت المعالم في ذهني؛ لأتمكّن من تخيّل نفسي وأنا أحدق في الصورة. يقول لي بعض الناس إن هذا وضعٌ سعيد؛ لأنني سأظل دائمًا أتذكر وجه مارلين الصغيرة. ليس عليها أن تقلق أبدًا من فكرة أنني سأراها تكبُر. لستُ متأكّدًا من هذا؛ لأنني أجد صعوبةً في تصديق أن الجهل يمكن أن يكون يومًا أفضل من المعرفة.

الفرق بيـن من لهم وجـوه ومن ليس لهم وجـوه يصبح أقل تأثيـرًا وأهميّة كلّما فكّرت في أطفالي. لدي الكثير من الذكريات البصريّة لإيموجين، البالغة من العمر الآن ١٠ سنوات، تستند في الغالـب على صـورٍ فوتوغرافيـة، وأتذكّرهـا مفعمة بحيـاةٍ نابضة وزاهيةٍ في بعض الأحيان. ليس لدي سوى القليل من الانطباعات المُشوّشة عن وجه توماس، عُمْره الآن ثلاث سنوات، تستند إلى الأشهر الست أو التسع الأولى من حياته، وقتها كان لا يزال لدي القليـل مـن الرؤية المتبقيّة. أمّا إليزابيث، عمرها الآن سـتة عشـر شـهرًا، ليـس لـديّ أي صـورة بصريّة لهـا على الإطـلاق. الإطار الذي يجب أن يحملَ صورتها على الحائط فارغ تمامًا.

مـا الفرق الذي يحدثه ذلك؟ لسـت على علـمٍ بأي اختلافٍ فـي علاقاتـي الحالية مع هـؤلاء الأطفال الثلاثة والتـي يمكن أن تتأثر بأي شكلٍ من الأشكال بحقيقة أنّ صورَهم في ذهني مختلفة وكذلك علاقاتهم مع عماي. كلهم متشابهون الآن.

٢٣ يونيو

بعد حوالي عام من تسـجيلي كفيفًا، بدأت صوَرُ الناس تتهيّأ لي، وتَملّكني شيءٌ أشبه بالهلوسة. استمرّ ذلك لستة أو اثني عشر شـهرًا. أكون جالسًـا في غرفةٍ مع شـخصٍ ما، وجهـي مواجهٌ له،

وأستمع إليه. فجأة، تومض صورةٌ حيّة في مخيّلتي، وكأنني أنظر في شاشــة التلفزيون. آه، أظنّ أنّه هو، بنظّاراته، ولحيته الصغيرة، شعرُه المموّج وبدلته الزرقاء المقلّمة، ياقته البيضاء وربطة العنق الزرقاء. ذاك حذاؤه الملمّع، وحقيبة يدِه مركونة بجانب كرسيه. تتلاشى هذه الصورة ويحلّ محلّها أخرى. رفيقي الآن يصبح سمينًا، ينحسر شعره ويرشح عرقًا. لديه ربطة عنقٍ حمراء وصدريّة وبعض أسنانه مفقودة. هذا بدوره يتلاشى.

أحيانًا أنغمسُ في التحديق في هذه الصور التي بدَت وكأنها تجيء وتذهب دون أي تدخّل مني؛ لأفقد تمامًا خيطَ الحديث الذي كان يدور بيني وبين من يجالسني. أعود مصدومًا حينها، مدركًا أنه لم يكن هناك ما يشير إلى أن أيًّا من هذه الصور قريب من الواقع. ببساطة لم يكن هناك شيءٌ على الإطلاق. عاد صوت المتحدّث، وشعرت كما لو أنني كنت قد غفوت لبعض دقائق أمام الراديو.

كان وجودي في مستشفى العيون من المرّات القليلة في حياتي التي فقدت فيها بصري مؤقتا. هناك مررت بهذه التجربة الغريبة التي حاولت فيها التعرّف على المّمرضات بأصواتهن، وبالتأكيد تشكّلت في ذهني صورٌ بصريّة عنهن؛ لأكتشف بعد

انتهاء العمليّة وعودة بصري أنني كنت مخطئًا تمامًا. لذلك لدي سبب وجيه لأعتقد أن الصورَ التي قمت بتشكيلها للأشخاص الذين التقيتهم وأنا أعمى ربما تكون خاطئة تمامًا. علاوةً على ذلك، لن تُتاح لي الفرصة لتصحيح الصورة واكتشاف الحقيقة بنفسي. على كل حال فإن هذا الميل لتشكيل الصوَر في ذهني يتلاشى تدريجيًا.

إحدى نتائج عدم معرفة كيف تبدو أشكال الناس هي تضاؤل عامل التوقّع والحدس عند محاولة تكوين علاقة جديدة. عندما يُكوّن الشخص المبصر معارفَ جُدَد، يكفيه النظرُ وحده لتكوين انطباعاتٍ معيّنة، وتهيئته لمقابلة نوع معيّن من الأشخاص. قد تخلُق هذه المعرفة الجديدة صورة شخصٍ حكيم، ودود، غريب، كريم، مرتبك، وما إلى ذلك. أما الأعمى فلا يعرف من سيلتقي. ذلك بالضرورة يُلغي إمكانية أن تصبح الانطباعات الأولى سلِسة، ولكنّها في الحقيقة سلِسة. الانطباعات الأولى التي تحصل للأعمى عند لقائه معرفة جديدة، تحصل من الصوت أو من لمسة اليدِ وما إلى ذلك، قد تكون مضللة بنفس القدر، إذا ما اتبع المرء منطقًا غريبًا يُملي عليه أفضلية أن لا يعرف شيئًا عن أي شخص يلتقيه لأن ذلك مضلل، يمكننا أن نستنتج أننا سنكون بحال أفضل بدون أي توقّع أو معلومات على الإطلاق. إننا باستمرار نُكوّن

فرضيـاتٍ عن المعارف الجُدد، ليس خلال اللحظات الأولى من اللقـاء فقـط، ولكـن ذلـك يسـتمر طـوال سـنوات تلـك العلاقة. الأعمـى ببسـاطة لديـه معلومـات أقـلّ بكثيـر لتكويـن مثـل هذه الفرضيات. إحدى النتائج هي أن الشخص الأعمى يستغرق وقتًا أطول ليتعرف بشكلٍ جيّد على أحدٍ ما. هذه هي تجربتي على أي حال، قد يكون أنني لست الأعمى والماهر في الوقت نفسه.

حقيقـة أن الشـخص الأعمى لديه بيانات أقـل تقترح أن رأيَه وفرضيّتـه عـن الشـخص الجديد تحتمل خطـأ أكبـر. بالرغم من افتقـاده للانطباعات البصريّة، إلا أنه عليـه أن يتعامل مع الحقائق القليلـة. سـواء كانـت انطباعاتي الأولـى عن الناس أقـل موثوقية الآن مما كنت عليه عندما كنت أبصر، لست متأكدًا. كثيرًا ما أقوم بمقابلـة المرشّـحين للالتحـاق بالجامعـة مـع واحـدٍ أو اثنين من الزملاء. بعد المقابلة نقارن الملاحظات. أشعر بالارتياح وأتفاجأ قليـلًا عندمـا أجد أن رأيي في المُرشّـح لم يكُن أقـلّ دقّة، أو كان يماثـل آراء زملائـي. يمكـن أن يضيـف المحـاورون المبصـرون تفاصيـل معينّـة. يمكنهم ملاحظة ما إذا كان المرشّـح مخادعًا أو كان مظهـره غيـر ملائـمٍ. دائمًا ما تكون هذه التفاصيل مُتّسـقة مع الانطباعات الأخرى التي كوّنتها من الحديث فقط عن الشخصية.

خاصيّةٌ أخرى غريبة تنشأ في عدم معرفة أشكال الناس هو تأثير ذلك على الكلام وطريقة تبليغه. عندما أصِفُ لقاء مع شخصٍ ما، قد أرغب بقول: «لقد نظر إليّ نظرةً فارغة». أشعر ببعض الحساسية تجاه هذا الأمر؛ لأنني لا أستطيع تصوّر أن الشخص المبصر الذي أتحدث إليه قد يعرف أنّني ربما لا أستطيع معرفة كيف نظر إلي صديقي. أن قول: «لقد رد بطريقةٍ فارغة» قولٌ سخيف ومتحذلق. أحاول أن أصِف الوقْفة التي لاحظتها قبل أن يجيب صديقي: «إحساسي بأنه تفاجأ وكان في حيرةٍ من أمره لفترةٍ وجيزة، لم يعرف ما الذي عليه قوْله». أن هناك انقطاعاً قصيراً في المحادثة. قد أقول: «صمَت قليلًا قبل الرّد وبدا أنّه في حيرةٍ من أمره» يبدو لي وصْفًا مثاليًا، ولكن استخدام المصطلحات المختصرة والمحدّدة التي تستخدم عادةً في وصف التبادل البصري تبدو لي طبيعية جدًّا ونابضة بالحياة. ما الذي عليّ أن أفعله؟

نتيجةٌ أخرى لكل هذا هي أن الوجه لم يعُدْ له مكانة رئيسيّة بالنسبة لي، مقارنةً بما يحتلّه في العلاقات الإنسانية العاديّة. الِوجهُ مجرّد مكان يخرج منه الصوت. أنظرُ إلى الوجه بجهدٍ واعٍ ولا يوجد سبب حقيقي يدفعني للقيام بذلك. في الغالب يمكّنني معرفة متى ينظر الناس إليّ؛ لأن أصواتهم تبدو مختلفة

متى ما كان الحديث موجّهً بشكلٍ مباشر إلي، وغالبًا ما أكون قادرًا على إلقاء نظرةٍ على شخص ما في مجموعةٍ عندما ينظر إليّ ويتحدّث. ومع ذلك، فأنا أفعل هذا فقط لمجرّد التأثير، لإظهار أنني أستمع. لم يعد لدي أي شعور طبيعي يُشعْرني بحاجة توجيه وجهي للآخر. أحيانًا أطلب من أحد أصدقائي المبصرين أن يعطيني انطباعًا سريعًا عن شكل الشخص الآخر، يهمّني أن أتخيّل رسمًا تقريبياً (سكِتش) لأي معرفةٍ جديدة، خاصّة إذا كانت معرفتي الجديدة امرأة. ما لون شعرها؟ ماذا ترتدي؟ هل هي جميلة؟ في بعض الأوقات أتوق لمعرفة ذلك. ما زلتُ، بعد كل شيءٍ، رجل نشَأ في مجتمعٍ معيّن وثقافة مُبصرة، مشروطة بتوقعات معيّنة من الذكور. ربّما عليّ أن أتغير، وأكون أقل تأثراً في حكمي على النساء بذكوريّتي المشروطة، لكن من الموجِع أن يُفرض عليّ هذا التغيير لمجرّد العمى.

يحدث فرق في الطريقة التي أشعر بها تجاه امرأة للتو ألتقيها إذا ما علّق زميلٌ على جمالها أو رزانتها. أعلم أن ثمّة لاعقلانيّة مزدوجة هنا. أوّلًا، لا ينبغي أن تعتمد مشاعري على مظهر المرأة. أعلم ذلك، وأعتذر عنه، لكن ما زلت أشعر به. الأمر الثاني، من المؤسف افتقادي للاستقلاليةِ لدرجة تأثّري بمعيارٍ ليس ذا أهميّةٍ بالنسبة لي.

ما الذي يهمّني في حكم الرجال المبصرين على المرأة، عندما يتعيّن عليّ، كرجلٍ أعمى، أن أحكمَ على المرأة بوسائل مختلفة تمامًا؟ ومع ذلك، فأنا أهتم بما يراه المبصرون فيها، ولا يبدو أنني قادر على التخلّص من هذا التحيّز.

الشيء الفاصل في أي معرفةٍ جديدة هو جرَسُ الصوت. لازلت أتعلّم المزيد والمزيد عن القوة المذهلة للصوت البشري في الكشف عن الشخص. في حالة الأشخاص الذين أعرفهم جيدًا، أجدُ أن كل المشاعر التي يتم التعبير عنها عادةً في ملامح الوجه موجودة في الصوت: التعب والقلق والإثارة المكبوتة وما إلى ذلك. يبدو أن انطباعاتي القائمة على الصوت دقيقة، مثلها مثل انطباعات المبصرين. لكن هناك عيب، على الشخص أن يتكلّم لأتمكّن من التواصل مع مشاعره. لو كنت مبصراً، فإن بإمكاني الوصول إلى خصوصيّة معيّنة، كنت سألتقط اتصالاً غير مقصود من خلال التعبيرات الخاطفة للوجه، وخاصة الشفاه والعينين. بصفتي أعمى، يمكنني الوصول إلى الفروق الدقيقة غير المقصودة في الصوت، ويمكنني في الغالب سماعَ الكثير من الأشياء التي قد لا يعرف المتحدّث بوجودها، ولكنها دائمًا ما تكون في سياق شيءٍ كان مقصودًا في الحديث. لذلك فأنا أعتمد على الأشخاص الآخرين والذين يكشفون لي عن أنفسهم.

إن قـدرة الصـوت علـى كشـف الـذات مدهشـة حقًـا. هـل الصّوت ذكيّ؟ هل هو مُلوّن؟ هل يوجد فيه ضوء وظل؟ هل فيه لحـن، دعابـة، رقّـة أو دقّة؟ هل هـو لطيف، ممتِـع أم متنوّع؟ في المقابل هل الصوت كسـول؟ هل يبدو مائقًا ولامباليًا؟ هل يبدو خافتًـا، رتيبًـا ومُمِلًّا؟ هل نطاق المفردات محدود ولا يسـتخدم بدقّـة وحساسـيّة؟ هذه هي الأشـياء التي تهمّنـي الآن. على نحوٍ متزايـد، لـم أعُـد أحاول تخيّلَ شـكل الناس. معرفتي بك تسـتند على ما مررنا به سـويّةً، وليس على ما تبدو عليه.

هناك مزيد من التطوّرات. أنا لا أعرف أو أهتم فقط بالشكل الذي تبدو عليه (على الرغم من أنه لا يزال لدي بعض الهواجس والشـكوك فـي حالة المرأة)، لقد بدأت أفقد تصنيف الأشـكال. أجد صعوبةً متزايدةً في إدراك أن الناس تشـبه أي شـيء، لأضعَ أي معنـى يرتبـط بمظهـر النـاس. في الأسـابيع الأخيـرة وجدت نفسي ممارسًا لفكرة أن للناس مظهراً. أجرّب ذلك بسرد الأنواع المختلفـة للمظهـر في ذهنـي، والتي قد تكون لدى شـخص ما. هـذا يختلـف تمامًـا عن الإسـقاطات الحيّة والقهريـة التي كانت لدي في فترةٍ سابقة. أحاول الآن أن أُذكّر نفسـي أن هناك شيئًا ما عن هذا الشخص، شيءٌ يعني الكثير أو القليل بالنسبة لي، وليس لدي وسـيلة مُسـتقلّة للوصول إليه، ومع ذلك فإنه شـيء حقيقيّ

عـن هذا الشـخص مثل أي شـيء آخـر. هذا الشـخص يبدو مثل شـيءٍ ما، ولديه ما يسمّونه: «مظهر» من نوعٍ ما.

٢٥ يونيو

عندما كنت في السـابعة عشـرة من عمري فقدت البصَر في عيني اليسـرى. أتذكر أنني كنت أحدِّق في كتفي الأيسـر وأقول: «حسـنًا، هـذه هـي المـرة الأخيرة التـي أراكِ فيهـا دون النظر في المرآة!». فقدان كتفٍ شـيء بحـدِّ ذاته، لكن فقدان المرء لوجهه يطـرح مشـكلةً جديـدة. وجـدت أنـني أحـاول أن أتذكـر صورًا قديمـةً لي، فقط لأتذكّر كيـف أبدو. صدُمت عندما وجدت أنّني لا أتذكرهـا. هـل سـأصبح فـي إطـارٍ فـارغٍ علـى حائـط معرض الصّوَر الخاص بي؟

إلـى أي مـدى يرتبـط فقـدان صـورة الوجـه بفقـدان صورة الـذات؟ هل هذا هو أحد الأسـباب التي تجعلني أشـعر في كثيرٍ مـن الأحيـان أننـي لسـتُ أكثر مـن روحٍ، شـبَح، ذكـرى؟ أصبح أنـاسٌ آخـرون أصواتًـا مُنسـلخةً مـن أجسـادها، يتحدثـون مـن اللامـكان، يذهبـون إلى اللامكان هل أصبحـتُ الآن كذلك بعد أن فقدت جسدي؟

١٤ يوليو

مررتُ بلحظاتٍ من تجربة سبق وأن نوقشت كثيرًا منذ أن فقدت بصرَ عيني اليسرى في عامي السابع عشر أو الثامن عشر. حصَل ذلك على شكلِ إدراك مفاجئ وواضح لوجود شيء ما على الجهة التي لا أراها، على بعد بضع بوصات من رأسي عند عبوري الطريق، ما جعلني أتراجع بعيدًا عن ذلك الشيء عن يساري مباشرة. عند إلقاء نظرة خاطفة، كانت هناك شاحنة متوقّفة ومجموعة من السلالم تمتدّ من السقف، والتي لم ألاحظها. اكتشفت منذ ذلك أن هذه الظاهرة تسمى الآن: «موقِع الصدى[1]». بعد الأشهر القليلة الأولى من العمى الكامل أدركت ذلك. لم أكن على درايةٍ بتجربة: «موقع الصدى» عندما كان بصري ضعيفًا. كنت ألاحظ أنه عند عودتي إلى المنزل وأنا أسير في الحرم الجامعي والمساء هادئ، ينتابني إحساسٌ بالحضور، إدراكٌ ينبّهني بوجود عائقٍ ما في الطريق. اكتشفت أنني إذا توقفت عند شعوري بهذا الإحساس، ولوّحت بعصاي البيضاء، فستلمس جذعَ شجرة، لن تكون أبعد من ثلاثة أو أربعة أو خمسة أقدامٍ منّي. هذا الإدراك، مهما كان، لا يبدو أنه يتعدّى

(1) echo location

هذا النطاق، وفي بعض الأحيان تكون الشجرة على بُعدِ قدمين. من خلال الإحساس بهذه الأشجار، والتحقّق من موقعها الدقيق بعصاي، أدركتُ تدريجياً أنني كنت أُطوّر نوعًا غريبًا من الاستشعار. كان بإمكاني حساب عدد هذه الأشجار التي أمرّ بها على طول الطريق المؤدي إلى بوّابات الجامعة. لا يبدو أن ذلك يعمل على الأشياء النحيفة مثل أعمدةِ الإنارة. يجبُ أن يكون شيئًا أثخن مثل جذع شجرةٍ أو جسمٍ بشري لأستطيع الإحساس به.

مع مرور الأشهر، يبدو أن حساسيّتي تحسّنت. وجدتُ أنني في أوقاتٍ كثيرة أصبحت على درايةٍ من اقتراب عمود إنارة، صحيحٌ أنني كنت أتوقّع واحدًا، لكن ذلك يجعل الأمر أسهل. أمشي أحيانًا بالقرب من أعمدةِ إنارة في مسارٍ جديدٍ كُلّيًا. أشعرُ بموقع الصدى ولا يُخطِئ، بمعنى أنني لا أتذكّر أنني مررت بالتجربة من قبل ولم يكن هناك شيء ما. لسوءِ الحظ، لا تحدث التجربة نفسها دائمًا؛ لذلك لا يُمكنني استخدامها إلا كنوعٍ من الضوءِ الأحمر. يجب عليّ أن أتوقّف متى ما أحسست بشيءٍ ما، لكن انعدام إحساسي بشيء لا يعني بالضرورة أنّه يمكنني العبور.

أصبحت أكثر حساسيّةٍ للأجسام الأنحف بمرور الوقت وزاد نطاق استشعاري للأشياء. عند عودتي إلى المنزل، كنتُ معتادًا على اكتشاف السيارات المتوقفة بلمسها فقط بالعصا. في هذه الأيام، لستُ بحاجة للمْس السيارات المتوقّفة في طريقي. أدرك دائمًا أن هناك عقَبة في طريقي دون أن تمسّها عصاي. يحدث ذلك على الرغم أنني أحملُ الآن عصا طويلةً جدًا. أعتقد أن نطاق اكتشافي للسيّارات المتوقفة أصبح من ستة إلى ثمانية أقدام تقريبًا. ميزةٌ أخرى لهذه التجربة، أنها تمنحني ما يشبهُ الحاسّة الكليّة لما يحيطني. هناك جزءٌ من طريقي اعتدت على الابتعاد عنه لتجنّب العبور من درَجات صاعدةٍ فيه. أتوقّع ذلك بالطبع لأنني أمرُّ من هناك كل يوم. مع ذلك، فأنا الآن على درايةٍ من طريقة التعامل مع هذه الحاسّة، ليس فقط للدرَجات السفلية التي أعرفها، ولكن كلّ الأجسام الكبيرة والبعيدة التي تلوح في الأفق. يبدو أن هذه الظاهرة تعتمد جزئيًا على الانتباه، حيث يمكنني المشي بسهولةٍ في المنزل حتى حافّة الأبواب، دون أن أشعر بتحذيرٍ ينبّهني بقُربها مني. ربما أنّ الصوت يُكتَم في المنزل بالسّجاد والستائر، ما يجعل إدراكَ الصدى أكثر صعوبة؟

التجربة بحد ذاتها عجيبة للغاية، ولا يُمكنني مقارنتها بأي

شـيء آخـر عرفتـه علـى الإطـلاق. إنهـا تشـبهُ الشـعور بضغـط جسَـدي. يرغب المـرء أن يمدّ يدَه ليحمي نفسـه، يزداد التركيز، ينسـحَب المـرء مما اقترب منه. يبـدو أنها تتّصف أيضًا بسـكونٍ مُعيّـن فـي الهـواء المُحيط، حيث علـى المرء أن يستشـعر حركة الهـواء والرحابة المحيطة، بطريقة ما، عليه أن يشـعر بالسّـكون، بالكثافـة عوضًـا عـن الفـراغ، بإحسـاس الصلابـة الغامضة. من الصعـب تحديـد المصـدر الدّقيق للإحسـاس. يبدو أنـه الرأس، ولكـن غالبًـا ما يمتد إلـى الكتفين وحتى الذراعيـن. يزداد وعيي بالإحسـاس أكثـر كلمـا كانـت البيئة أقـل تلوثًا بالصـوت، وقت مسـيري الهادئ في مسـاء متأخّرٍ إلى المنزل، أكون أكثر وعيًا به. في شـارعٍ مزدحم صاخب، تكون التجربة ملحوظةً بشـكلٍ أقل، وإذا كنت أسـير ومرفقي بمرفق شـخصٍ ما، لا يبدو أنني ألاحظ التجربـة علـى الإطـلاق. قد يكـون من المحتمـل أنني أغلـق أيّاً يكون ذلك الشيء.

إنه نوعٌ من نظام توجيه يتم تشـغيله عند الضرورة القصوى، وعندما يكون هنا إيعاز من نوعٍ ما، ولكن ليس من السـهل دائمًا تمِييـزه عن تجـارب أخرى. عندما أصل إلى نهاية مربّع سـكني، أسـتطيع أن أميّـز ذلـك. هـل يحصل ذلك بسـبب حركـة الهواء، النسـيم الذي يشعر به المرء في كثير من الأحيان في ركن المبنى

أم أن الأمر مجرّد انعكاس للحضور؟ هل كنت على درايةٍ بوجود الجدران والأسوار دون أدرك، وتفاجأت بشعور الغياب مجرّد ما انتهت؟

في إحدى نزهات المشي، مررت بجانب سياجٍ ارتفاعه خمسة أقدام مصنوع من قضبان معدنيّة عمودية، وينتهي، في نقطة معينة، بجدارٍ صلب من الطوب. وجدتُ أنني إذا انتبهت سأستطيع معرفة متى انتهى السياج وبدأ الجدار. هناك، بطريقة ما، إحساسٌ بحضورٍ أكثر ضخامة. أُلخّص من كل هذا الحديث أن هذه التجربة صوتيّة في الأساس وتقوم على الوعي بالصدى. هذا بالتأكيد يلائم تجربتي، ولكن في نفس الوقت من المهم توضيح أن الأمر ليس متعلّقًا بالاستماع. يدرك المرء ببساطة أنه أصبح مدركًا فقط. إنه شعورٌ بنوع من الضّغط على جلد الوجه وليس على الأذنين أو داخلهما. قد يكون ذلك السبب في التسمية القديمة للتجربة وهي: «إبصار الوجه[1]».

١ سبتمبر

«حسنًا، سأراك في الجوار».

«من الجيّد رؤيتك مرة أخرى».

---

(1) facial vision

«أرى ما تعنيه».

عندمـا اسـتخدم تعبيرات مثل هذه، يتفاجـأ بعض أصدقائي المبصرين. يضحكون، وربما يغيظونني ويقولون: «أنت لا تعني ذلك حقًا، أليس كذلك يا جون؟». أشرح لهم، عندما أقول إنّني مسـرورٌ برؤيتك، ما أعنيه هو أنني مسـرور بلقائك، يسـعدني أن أكـون معك، ويسـعدني أن أكون في حضرتك. ذلـك بالتأكيد ما يقصـده أي شـخصٍ، أعمـى كان أم مبصراً، بهذا التعبير. أشـرح لهـم، عندمـا أقول إنني أرى ما تعنيه، ما قصدته هو أنني أفهمك. كلماتك منطقيّة ومفهومة بالنسـبة لي. هذا ما يقصِده أيُّ شخصٍ بهـذا التعبير؛ لأن المعنى بحدّ ذاته غير مرئيّ.

عندمـا تصبِـحُ أعمى، تـدرك مدى اعتماد لغتنـا على الصّور المرسومة. من الطبيعي أيضًا أن يدركَ المبصرون هذا الأمر عند حديثهم مع شـخصٍ كفيف. «ما هي وجهة نظرك؟»، «هل لديك أيّـة ملاحظـات؟»، «أنا لا أفهم الطريقةَ التـي تنظر بها إلى هذا»، «الآن انظـر هنـا يـا صديقـي!»، «لقـد بحثـت فـي كل مـكانٍ عن ذلك»، «سـأرى مـا إذا كان بإمكانـي مسـاعدتك»، تعبيراتٌ مثل هـِذه، المواقـف والنوايا، المطالـب والمقاصِـد المرتبطة بالفهم والمعرفة يتم الإشارة إليها جميعًا بمجازاتٍ بصريّة. هناك علاقةٌ حميمة بين ما نراه وما نفهمه. العمى يشـير إلى الجهْل.

هل على المُعاقين أن يمتنعوا عن استخدام ذلك الجزء من اللغة الذي يتناول إعاقتَهم تناولًا مجازيًا؟ كم سيكون هذا سخيفًا. سيفرضُ إعاقةً لغويةً جديدة على أناسٍ معاقين بالفعل. عندما يقول شخصٌ ما على كرسيّ متحرك أنه يفكّر في الوقوف في البرلمان، لا ألفت الانتباه إلى الإعاقة حين أعلّق بظرافةٍ: «تقصد أنك ستذهب على كرسيّ متحرك إلى البرلمان». إذا قالت إحدى صديقاتي أنها اصطدمت بكذا وكذا في أحد الأيّام عند عبورها الشارع الرئيسي، فلا يجبُ عليّ، كقاعدةٍ عامة، أن أهزأ وأسأل: «هل أُصيب أحد؟».

صحيحٌ، مع ذلك، لعل هناك مشكلة حقيقيّة تكمن وراء هذا الإغاظة الحاصلة في التواصل بين المكفوفين وأصدقائهم المبصرين. الهيكل الكامل لمحادثاتنا اليومية العاديّة تفترِضُ سلفًا وجود عالمٍ مبصر. يمكن ملاحظة ذلك بسهولة إذا قارنت محادثات الراديو مع تلك الموجودة على التلفزيون. لذلك عندما يلفت شخصٌ مُبصر الانتباه إلى غرابة استخدام المجاز البصري من قِبَل شخص أعمى، يكمن تحت ذلك تحوّل طفيف في طبيعة الاتصال الكامل بين المبصر والمكفوفين. هناك تقَع لغةُ العمى.

٩ سبتمبر

هذا المساء، في حوالي الساعة التاسعة صباحًا، كنت أستعد لمغـادرةِ المنـزل. فتحـت الباب الأمامـي وكان المطر يتسـاقط. وقفـت لبضـع دقائق، مسـتغرقًا فـي جماله. المطر وسـيلة لإبراز ملامـح الأشـياء؛ يُلقـي بغطـاء مُلوّن على الأشـياء التـي لم تكن مرئيّـة مـن قبـل؛ عوضًا عـن عالـمٍ متقطّع ومُشـتّت، فـإن المطر المتساقط المُطّرد يخلق ديمومةً للتجربة الصوتية. أسمعُ حسيسَ المطـر على السّـطح فوقـي، وهو يقطر على الجـدران عن يميني ويسـاري، يتناثر مـن الميزاب صوْب الأرض عن يسـاري، بينما يوجد قريبًا من ذلك شـيء أكثر خِفّة حيث يسـقط المطر بشـكل غيـر مسـموع تقريبًا على شـجيرةٍ مورقة كبيرة. عـن يميني، يقرع المطـر، بصـوت أعمق وأكثـر ثباتًا علـى مَهْدة العشـب. يمكنني حتى تحديد معالم العشـب، حيث ينمو على تلّةٍ صغيرة. صوت المطر متنوّع ويشكُل الانحناءات بالنسبة لي. على الجهة اليُمنى أيضًـا، أسـمع صوت المطر يدقّ السـياج الذي يفصـل بيننا وبين جيراننا. أستطيع تحديد معالم مسار خطواتي أمامي وصولاً إلى بوّابة الحديقة. هناك يسـقطُ المطر على الخرسـانة ويتناثر مكوّنًا بِـرَكًا ضَحلـة. هنـا وهناك شـلّالات صغيرة حيث ينسـكب الماء المتجمّـع مـن درَجـة إلـى أخـرى. يختلف صـوتُ المطـر على

المسـار عـن الصّـوت السـاقط على العشـب عـن يمينـي، وهذا يختلف مرةً أخرى عن الصوتِ المُغطّى، الثقيل والمُبتَلّ الساقط علـى الأجَمَـةِ الكبيـرة علـى اليسـار. عـلاوةً علـى ذلـك، تُعتبـر الأصـوات أقـلّ تفصيـلاً. يمكننـي سـماع هطـول المطـر علـى الطريـق، وهديـر السـيارات التـي تمـرّ أمامـي وخلفـي. يمكنني سـماع اندفاع الماء في القنوات الصغيـرة المغمورة على حوافّ الطريـق. لكنّ المشـهد بأكمله أكثر تَمايزًا وتفصيلًا مما أسـتطيع وصفـه؛ لأنـه فـي كل ناحيـةٍ توجد فواصـل صغيرة مـن الأنماط والعوائـق والمطبّـات، وتُعطـي هـذه الانقطاعـات الطفيفـة أو الاختلافـات في القـوام والصّـدى تفاصيلَ إضافيّـة وبُعدًا أعمق للمشـهد. بعـد كل هذا، وكما يسـقط الضوء فـي الطبيعة، كذلك هـي الخلفيـة الجميلـة لوقـعِ المطر، تجتمـع في جلجَلـةٍ واحدةٍ ومستمرّة.

أعتقـد أن تجربـة فتح الباب على حديقـةٍ ممطرة تُماثل تلك التي يشـعر بها الشـخص المبصر عند فتح السـتائر ورؤية العالم فـي الخـارج. عـادةً، عندما أفتـح الباب الأمامـي، هناك أصوات متكسّرة ومتفرّقة تنتشر عبر العدم. أعلم أنّه عندما أقوم بالخطوة التاليـة سـألقى المسـار أمامـي، وأن حذائي على اليمين سـيقابل العشـب، وإذا خطـوت أكثـر، سـتلمس رأسـي سـعفةُ الشـجيرة

المتدلّية عن يساري، وسأصل بعد ذلك إلى الدرَجات، والبوّابة الأمامية، وممر المشاة، والقناة، والطريق. أعرف أن كل هذه الأشياء موجودة، ولكنني أعرفها بالذاكرة. إنها أشياء لا تُقدّم أي دليلٍ فوري على وجودها، أعرفها فقط في هيئة تنبؤ، أشياء سألقاها في الثواني القليلة القادمة. يقدّم المطر وفرةَ الموقف بأكمله دفعةً واحدة، ليس بالتذكّر أو التوقّع، ولكن بالواقع في هذه اللحظة. يعطي المطر إحساسًا بالمنظور والعلاقات القائمة بين جزءٍ من العالم وآخر.

لو كان المطر يسقط داخل الغرفة فقط، فسيساعدني ذلك على معرفةِ مكان وجود الأشياء في تلك الغرفة، وسيمنحني إحساسًا بالتواجد في الغرفة، عوضًا عن مجرّد الجلوس على الكرسيّ.

إنها تجربةٌ فائقة الجمال. أشعر كما لو أن العالم المحجوب حتى ألمسه قد كشفَ نفسه لي فجأة. أشعر أن المطر مباركٌ، وقد وهبني الهديّة، هديّة العالم أجمع. لم أعد منعزلًا، مشغولًا بأفكاري وما الذي عليّ فعله بعد ذلك. عوضًا عن القلق بشأن مكان وجود جسدي وما الذي سيلتقي به ويمسّه، مُنِحت هديّةً كُليّة، عالمٌ يتحدّث إلي.

هـل فهمـت لماذا هي فائقة الجمـال؟ عندما يكون ما يجب معرفتـه فـي حدّ ذاته متنوعًا ومعقدًا ومنسـجمًا، فـإن معرفة ذلك الواقـع يعكسُ في داخلي كلّ تلـك الخصائص. يشـتاق داخلي لشـعورِ التنوّع والتعقيد والانسـجام. المعرفة ذاتها جميلة؛ لأنها تخلق في داخلي مرآةً لما يمكن معرفته. وأنا أستمع إلى المطر، أصبح صورة المطر، وأسـتحيل واحدًا معه.

١٦ سبتمبر

حلمـت أننا كنّا على متنِ سـفينة في المحيط. كنا نكافح من أجل النجاة في مؤخرة السـفينة. كنت مع شـخصٍ ما، لم أستطع تمييـزه؛ ربّما كانـت مارلين. كنا نهرع ونصارع لإيجاد طريقٍ عبر الحانات، وصالات المشـروبات، وعلى امتداد ممرّات صغيرة، صعـودًا وهبوطًا على السـلالم، مرورًا بكبائـن النوم، حتى طلعنا على السطح في آخر السفينة. كنّا هناك، في الهواء الطّلق، نُشاهد محيطًـا هائـلًا ينتفـخ ويتـورّم. لـم تكن هنـاك أمواج، بـل انتفاخ يتزايـد لكتَل وكتَلٍ من الماء، والبحر، والسـماء، والرياح. كانت السـفينةُ تزيد من سـرعتها والجميع يهرع. بطريقة ما، انتقلت من السـفينة ووجدت نفسـي مع امرأتين على متنِ سـفينةٍ أخرى. لم أكُـن أعـرف، أو لا أتذكـر المرأتيـن اللتيـن كانتا معـي، لكننا كنا

ثلاثـة. كانـت السـفينة الأخـرى تغـرق. أم أنهـا لا تـزال نفـس السـفينة؟ فجأةً أصبح السـطح عموديًا وأصبحت السـفينة تنزلق إلـى أسـفل. ثلاثـة أربـاع هيكل السـفينة غـرق تحت المـاء. كنا نتشـبث بالجـزء العلـوي منه. أما السـفينة الأخـرى فكانت تبتعد أكثر وأكثر. من الواضح حينها أن السّـبل تقطّعت بنا وحدنا. بعد ذلـك، شـعرت بثقـل السـفينة الهائلـة، المُشـرّبة بالمـاء، ورأيتها تهبـطُ تحـت المـاء، تضيـع في أعمـاق خضـراء قاتمـة وعميقة، أخـذَت تـزداد قتامـة وبرودة وهـدوء. لم تكن هنـاك عاصفة، لم يكـن البحـر هائجًا. كان هناك انتفـاخٌ مترامي الأطراف، متجهّم، وسـفينةٌ ثقيلـةٌ تغرق. فـي كل مرة يحدث فيها انتفـاخ كبير جديد فـي المحيـط، تصبح السـفينة أكثـر تشـبعًا بالمياه، وأثقـل قليلاً، وتسـتقر في قاع المحيط أكثر. حتى أصبح الانتفاخ على مستوى أعيننا إلى حد ما، وكان السؤال؛ في أي لحظة سيبتلعنا؟ يا له من شعور رهيب بالفزع واليأس.

كان ذهني مُنشغَلًا بذلك الوزن الذي لا يُقاوم، الذي سحَب كلِ شـيءٍ معه إلى الأسفل والأسـفل، بينما كانت الحريّة والنور وسرعة السفينة وكل شيءٍ آخر ينحسر أكثر وأكثر. كانت الفجوة تتّسـع طوال الوقت ولا يمكن للمرء سوى النّظر للبحر الأخضر

الصامت بينما الثّقل يسحبنا إلى الأسفل. استيقظت وأنا أشعر بالرّعب وكأنني قد تلقيّت نذير شؤم هدّد كلّ حياتي.

السفينة التي ابتعدت مسرعَةً بضوئها هي عالم المبصرين. كُنّا أنا وعائلتي وأحبابي نشقّ طريقنا من أجل النجاة. كنّا عالقين ومعزولين ومغمورين في الماء. بلا حيلةٍ ولا يمكننا الحِراك. كنتُ أُجَرّ وأُسحَب إلى أسفل وأسفل، إلى شيءٍ لا يمكن تصوّره ولا يمكُن التراجع عنه. كان العالم يختفي، وعالمٌ آخر يبتلعني مع من أحبّ. لم تكُن هناك فرصة للعودة. العمى أبَدي ولا رجعة فيه. أعلم الآن أنّ أناي الحالمة، بعد كل شيء، لم تنخدع وأن حياتي في أزمة.

٢

في النفق

خريف ١٩٨٣

١٧ سبتمبر

فـي كل مـرة أبتسِـمُ فيهـا تقريبًـا، أَعـي ذلـك. أنـا علـى علْمٍ بالمجهـود العضلـي الـذي أبذلـه. لا يعنـي ذلـك أن ابتسـاماتي أصبحت مُتكلّفه، كما لو كنت أتظاهر، لكن الأمر أصبح مجهودًا إراديًّا واعيًا إلى حدٍّ ما. لماذا يحصل ذلك؟ لابد أن ذلك بسـبب انعدام التعزيز المُتبادل. بمعنى أنّه لا توجد ابتسامة عائدة إليّ. لم أعد أملك القدرة على الانبهار بابتسـامة رائعة. لم أعد أجد وجهَ شـخصٍ غريـب يعتريـه الجمـال والمـودّة فجـأة، ولا يبـدو أنّني أحصل على أي شـيٍء مقابل مجهودي. معظم الابتسامات مجرّد اسـتجابة عفويّة. أنت تبتسـم بشـكلٍ عفوي عندما تتلقّى ابتسامة. بالنسـبة لـي، الأمـر أشـبه بإرسـال رسـائلَ ميّتـة، هـل يا تـرى تم اسـتلامها أو الإقرار بها؟ هل كنت أبتسـم في الاتجاه الصحيح؟

علـى أي حال، كيف يمكن لصديقي المبصر الإقرار بابتسـامتي؟ يمكنك أن تبتسم بصوتك، لكن عليك أن تجد شيئًا لتقوله.

يمكنني أن أشـعر بنفسـي عند التوقّف عن الابتسـام. حسنًا، أعتقد أنني أسـتطيع أن أشـعر بذلك. عليّ أن أسـأل شخصًا قريبًا مني ما إذا كان ذلك صحيحًا أم لا.

٢١ سبتمبر

بلغ توماس ثلاث سنوات من العمر قبل شهر، يعلم الآن أن عليه أن يعاملني بشكل مختلف. منذ أن كان صغيرًا، قمت بتدريبه علـى تعبيـر: «دَعْ بابا يرى». يعلم أن هـذا لا يعني ما تعنيه: «أعطِهِ لبابـا»، وهـو ما يعني التخلّي عن الشـيء. على النقيض من ذلك، فإن: «دَعْ بابا يرى»؛ تعني: «ضعْ كل ما في يدِك في يدي، واستعده بعد ذلك». منذ الأيام الأولى، قمت بتدريبه، حتى إذا نقرت برفقٍ علـى ظهـر يـده، فسـيضَع مـا كان يمسـكه في يـدي علـى الفور، وسـأعيده بعد ذلك. إذا كان شـيئًا ليس عليه أن يُمسكه، فسأعيده إليـه أيضًا، فقط وبعد فاصلٍ زمني سـأقول لـه: «أعطِه لبابا». قمنا بعـد ذلـك باسـتخدام ذات المهارة علـى الكتب. كنـت أقول له: «هـل هناك سـيارة؟» لو أجـاب بـ نعَم، فسـأقول: «دَعْ بابا يراها»، فيأخذ إصبعي الممدودة، ويضعها على صورة السيارة.

في وقت مبكّرٍ جدًا، تعلم أيضًا نسخةً أخرى للمهارة، حيث لا يكتفـي بإصبعـي فقـط، ولكن يأخذ ذراعي بالكامل لإرشـادي إلى شـيءٍ يريده. إذا أراد لعبةً من رفٍّ عالٍ، أرفعه على ذراعيّ أو على كتفيّ. ثم يمسـك بذراعي، مسـتخدماً إياها كأداة، ويوجهها نحو اللعبة المرغوبة. هكذا كانت النسخة الجديدة.

تعلـم أيضًـا أن يقـول: «انظـر، يـا أبي!»، ثـم يأخـذ بيدي أو إصبعـي ويضعها على مـا يريد مني معاينته. وهكذا فهم أنّني أرى بأصابعـي. يعـرف توماس ما هـي طريقة برايل[1]. يعلـم أن كتبي مكتوبـة بطريقـة برايل، وأن وجود علامة برايل هو علامة على أنّه كتـاب لـي. لقـد تعلم أن يكرّر بعـدي: «لا يمكن لأبـي قراءة هذا الكتـاب؛ لأنـه ليس مكتوبًـا ببرايل»، و«يمكن لأبـي أن يقرأ هذا؛ لأنـه مكتـوبٌ بطريقة برايـل». وهو الآن يُدلي بهـذه الملاحظات حول الكتب بشكل عفوي.

منذ عدة أشـهر، أشـار إلى أحد كتبه، وقـال: «لا يمكن لأبي قـراءة هـذا»، ثم أشـار إلى ملصق برايـل في كتاب مصـوّر وقال: «توماس لا يستطيع قراءة ذاك».

في وقتٍ سابق من الصيف، سألني: «أبي، هل أتيت هكذا؟»،

---

(1) Braille

كان ينكز بإصبعه في الهواء يمينًا ويسارًا. سألته ما الذي تقصده: «هل أتيت هكذا؟» أجابك «بعصاك؟» أدركت لحظتها أنّه كان ينكز بإصبعه واصفًا حركات عصاي البيضاء.

لست متأكدًا ما إذا كان سؤاله وسلوكه مرتبطًا ببصري، أم كان سؤالٌ مُجرّد من طفلٍ لأبيه. عندما كان صغيرًا وقبل أن يبلغ عامه الأول، كان يجلس على كرسيه المرتفع، ويُظهِر وجوهًا مرِحة ومضحكة للجالسين، واحدًا تلو الآخر وهكذا، كان ينتقل من شخصٍ لآخر ليرى تأثير حركاته. أخبرتني مارلين أنه كان ينظر إليّ بوجهه المضحك، وبعد بضع ثوانٍ يبتعد ببساطةً عنّي. هل استنتجَ من هذه التجربة أن سبب عدم تأثير وجهه المضحك عليّ هو أنني لم أستطع رؤيته؟ أشك في هذا كثيرًا. تقول لي مارلين إنّه حتى اليوم، وفي سياق الحياة الأسريّة العادية، يوجّه إلي ذات النظرات والملامح والابتسامات التي يوجّهها لأي شخص آخر. من ناحيةٍ أخرى، فإن البالغ المُبصر يفعل ذلك معي أيضًا. لا يتحوّل وجهُ المرء إلى وجهٍ كتوم في محادثة مع شخص أعمى لمجرّد أنه لا يستطيع رؤيته. لا يتوقّف عن الابتسام لشخصٍ أعمى لمجرّد أنه لا يستطيع رؤية ابتسامته. الابتسامة تُشعِرُ المرء بالرضا.

حتى لو أدرك توماس أنني لا أستطيع رؤيةَ حركاته المضحكة، فلست متأكدًا من أنه سيعمّم ذلك. يعلم أنني لا أستطيع قراءة كتبه، ولا أستطيع رؤية الصور، ولا أستطيع تركيب أحجية قطع الصورة، لكن هل يعلم أنني لا أستطيع رؤيته؟

منذ أن كان طفلاً صغيراً، قبل أن يتمكن من المشي بوقت طويل، كان يلتقط الأشياء من أجلي. عندما كان على حِجري، وإذا أسقطت شيئًا ما؛ كنت أُنزِله على السجادة ليلتقطه، يزحف إليه إذا لزم الأمر، ويعيده إلي. لا يزال يفعل هذا. أقول: «أين جواربك؟»؛ فيمرّرها لي، على الرّغم أنها كانت تبعُد عني ست بوصاتٍ فقط. من ناحيةٍ أخرى، عندما أسافر معه في السيارة، يصرخ: «انظر يا أبي!» مشيرًا إلى شيءٍ خارج السيارة. عليّ أن أحاول تذكيره أنّه لا يستطيع أن يُريني شيئًا خارج السيارة.

٢٥ سبتمبر

كم هو غريبٌ أن يستوعب المبصرون أن استخدامي للعصا امتداد لإدراكي! ليس من السهل عليهم إدراك ما تتضمنه حقيقة أن إدراك الأعمى للعالـمِ محصورٌ فيما يتناوله جسده، وفي الامتداد الذي يمكن لجسده أن يضيفه، مثل العصا. يتّضح من هذا، كما أعتقد، الصعوبة الكبيرة التي يواجهها معظم المبصرين

عند مساعدة شخصٍ أعمى تائهٍ على تعديل اتجاهه. عادةً ما تكون علامات ودلالات المكان التي يقدمها المبصرون عامّة جدًا، أو تفترض مسبقًا أن الشخصَ الأعمى لديه معرفة أكبر ببيئته مما قد يكون لديه بالفعل.

من السهل والطبيعي أن يفترض النّاس أن رأسك هو ما تستخدمه للنّظر. إذا قابلت مخلوقًا من المريخ، فلن يستغرق الأمر وقتًا طويلاً لتكتشف أنه كان يراك بمجسّاتٍ معيّنة، كانت موجّهةً تجاهك، أو أنّه كان يراك من خلال مؤخّرته، والتي كانت دائمًا تلاحقك أينما تحركت. عندما يقترب المبصرون من شخصٍ أعمى، تبدأ توقعاتُهم بأنهم يتعاملون مع مخلوقٍ يشبههم، ويصعب عليهم استيعابَ ما تعنيه حقيقة أن هذا الشخص في الواقع: «يرى» من خلال عصاه البيضاء. أحيانًا، عندما يقودني شخصٌ مبصر، يأخذني من ذراعي ويرفعه فلا تصِلُ عصاي إلى الأرض تمامًا. تمكّنت من تجنّب هذه المشكلة باستخدام عصًا أطوَل. من الشائع أيضًا، أن يرشدَني الناس بإمساك العصا نفسها، والإشارة بها إلى الأشياء، والنقر بها هنا هناك.

يميل الناس إلى استخدام عصاي وكأنّها سِكّين عند الاقتراب من الدرَج وتوجيهي. أشيرُ إليهم بلطفٍ، أنّه ما لم أكُن أحمل العصا بنفسي، فلا يمكنني أن أتلقّى منها المعلومات التي

أحتاجها. «من فضلك أُترك العصا»، وأضيف: «فقط دعني أمسِك بذراعك».

مـن الطبيعـي أن ينظـرَ النّـاس لعصـاي البيضـاء، ويعتبرونها عكّاز مشي. يُنظَر إليها باعتبارها شيء يُستخدم للدّعم والمساعدة. لا يُنظـر إليهـا باعتبارهـا أداة لـلإدراك الحسّـي، أو طريقـة لجمع المعلومات عن العالم.

٢٦ سبتمبر

الليلـة الماضيـة، فـي طريـق عودتـي إلـى المنـزل، كنـت قد غادرت لتوّي بوابات الجامعة وعلى وشكِ الالتفاف عند الزاوية إلـى طريق بريسـتول، عندما خاطبني رجلٌ يتحدث بلهجة شـرق أوسطيّة.

قال: «توقّف، هناك سيارة على الرصيف».

قلت: «شكرًا، هل هي متوقفة هناك؟».

أجاب: «لا، لا، هناك حادث وأخي مُصاب في سيارته».

سألته: «وأنت، هل تأذّيت؟».

قال: «لا، لم يحدث هذا الشيء لي أبدًا؛ لأنّني دائمًا ما أعتني بأشخاصٍ مثلك».

«حسنًا، هل إصابة أخيك شديدة؟».

«لا، سيكون بخير، اسمح لي أن آخذك عبر الطريق».

«متى حصل هذا؟».

«للتو، قبل لحظاتٍ. أشكر الله أنني بخير، وأن الأمر ليس أسوأ مما هو عليه، الآن يمكنني أن أراك تعبر الطريق».

لم يأخذني إلى إشارةِ المشاة فحسْب، بل أصرّ على مرافقتي بكل عنايةٍ ورِفقٍ عبر الطريق إلى الرصيف المُقابل، أوصلني حتى السياج المعدني في الجهة الأخرى، تمنّى لي حظًا سعيدًا ودعا لي. عاد بعد ذلك لينضمّ إلى أخيه المُصاب في السيارة التي اعتلت الرصيف.

يبدو أنه رحّب بوصولي عند الزاوية في تلك اللحظة بالذات، اعتبرها إشارةً من السماء. كانت تحذيرًا بالنسبة له. هذه الأشياء لم تحدث له قط لأنّه دائمًا ما يعتني بأمثالي. كنتُ إشارةَ العناية الإلهية التي تجسّدت في ضميره. ظهرَ فجأةً عند الزاوية، بينما كانت سيارة أخيه تعتلي الرصيف.

٦ اكتوبر

حلمت أنّني كنت في بيتٍ ديني، أشبهَ بمكان اعتكاف روحي

فـي أعالـي الجبـال. نوافـذُ كبيـرة مفتوحـة على شـلالاتٍ عديدة وبحـار وأنهـار. صعدنا إلـى مكانٍ أكثر ارتفاعـاً، مكان علوي من البيت، فيه معبد شـاهق يملؤه الوقار. تم تصميمه بشـكلٍ جميل، مجهّزٌ بأماكن للدراسـة، وغرف صغيرة للاجتماعات والمناقشة، كان للمعبد نافذة زجاجية عريضة تشرف على شلّالٍ مهيب. كان حِصنًا عاليًا يطلّ على كل شيء. عند النظر بعيدًا، يمكن للمرء أن يرى ضفّةَ بحرٍ عالية تنهال منها مياهٌ بنيّة مُحمرة، كما لو أن فيضانًا خلطهـا بالطمـي. على الرّغـم من أن الميـاه كانت تنهـال باندفاع هائـل، إلا أنهـا لـم تكن تهديـدًا، بل بدَت جميلـة ورائعة. الحركة المتناغمـة والسلِسـة لمـا يحيـط بالمـكان تبعـث علـى الطمأنينة والوقـار، والمكان مليء بجو الصفاء وطقس العبادة. ناقشـت أنا ومارليـن إمكانيّـة قضاء وقتٍ أطولَ هنـاك، أو حتى العيش هناك. ذهبنـا فـي نزهةٍ بجانب البحر. كانت الأمواج البنية الهائلة تسـقط فـي خنـدقٍ تم حفـره بجانب جـدار البحر، على طول الممشـى. علـى الرّغم من أن الأمواج العاتية كانت تدكّ الخندق وتتجاوزه، إلا أنها تتكسّـر وتتفرق عائدةً إلـى الحفرة العميقة. كان بالإمكان الاقتـراب مـن حافّـة الأمـواج العارمـة المتسـاقطة دون الشـعور بالخطر.

أجواء هذا الحلم كانت مفعمةً بالسلام والانتعاش. استيقظت

وكأنني تلقيت وحيًا، كنت أشعرُ بحضورٍ يبعث الرّوعة في النفس. هل أفسدَ هذا الحلم شؤمَ السفينة الغارقة في الحلم السابق؟ هناك، كانت المياهُ متجهّمة وثقيلة. هنا، وعلى الرغم من أنها ليست أقل قوّة، إلا أن لها حركة وطاقة متناغمة ومُحكَمة. كنتُ مغمورًا في حلم، وفي الحلم الآخر كنتُ أسمو وأتجدّد. أشعر أن هذه أحلام كبيرة.

٢٧ أكتوبر

لا أشعر براحة البال منذ أن شردت في حلم يقظة، كنت عائدًا فيه إلى المنزل ذات يوم، لأجد توماس مُلفّعًا ومكفّنًا في سحابةٍ داكنة السّواد، تُحيط به من كل ناحية، وكأنّه عمودٌ مُسَخّم بالدخان.

أينما ذهب، ذهبت معه هذه السحابة. كان يتنقّل في أرجاء المنزل كما لو أنّه ذلك العمود الصّغير من الدّخان. كنت أسمع صوته، وعندما أضعُ يدي في السحابة، أستطيع تحسُّس وجهه وجسده وشعره، إنّه بخير هناك. أستطيع تحسُّس سُترته ومعرفةَ ما يرتدي. عندما أسحبُ يدي، يختفي توماس ولا أستطيع لمسه، لكن يمكنُني سماع صوته وصوت كل ما يفعله.

رأيت بعد ذلك ليزي في سحابةٍ هي الأخرى. بدت وكأنها

عمـودٌ أصغـر من الدّخان. عندما تجلس مـع أخيها، يندمجان في سـحابةٍ وبقعـة سـوداء واحدة. أسـتطيع سـماع حركـة وصلصلة الألعـاب التي يلعبـان بها، ولكن لكي أقول مـا يفعلانه حقًا، كان علـيّ أن أمُـدّ يـدي إلى السـواد. رأيتنـي أيضًا أنفخ في السـحابة، وأحاول نفثها بعيدًا، لكن لا شيء يتغير.

عـادت مارلين إلى المنزل في وقتٍ لاحق من اليوم، وكانت مُحاطةً أيضًا بسـحابةٍ سـوداء. شـعرتُ بالفـزع لحظتها، وتوجّب علي الوصول بيدي إلى السـحابة لمعرفة ما إذا كانت قد صفّفت شـعرها، أو ارتدت أقراطها. يصلُ الأصدقاء بعد ذلك، لأكتشِـف أن بإمكانهم الرؤية من خلال هذه الغيوم السوداء. الغيوم السوداء كانـت بداخلي. لم يكن الأطفال من تلقّفتهم لعنةٌ غامضة، ولكن كنت أنا.

رأيتنـي أعود من العمل إلى المنزل في مسـاءٍ متأخّر، لأجِده بأكمله محاطًا بسـحابةٍ سـوداء. دخلت من الباب. محْضُ سـواد دامـس بالداخـل، لا شـيء يمكـن أن يبدّده. سـواء كانـت الأنوار مُضـاءةً أو مُطْفـأة، كل شـيءٍ هنـاك غـارقٌ في الظُلمـة، ولكن لي فقط، وليس لأيّ شـخصٍ آخر. في اليوم التالي، غمَرَت السـحابة العالـم بأسْره.

هـذا الخيـال يكدّرني. كنت أعتقد أنني لسـتُ بأعمى، وإنما مبصـر لا يسـتطيع الرؤية. أدركت بعد ذلـك أن العمى فِي داخلي وأن السحابة السوداء في ذهني، تحاصر وعيي.

٢٢ نوفمبر

كنت أنا وتوماس نلعب بسـلحفاةٍ بلاستيكيّة صغيرة، قُطْرها حوالي ثلاث بوصات. أَمسـكَ بها وجعلها تنزلق خلف نظارتي، غطّـى عيني اليسـرى وقـال ممازحاً: «الآن أبي لا يسـتطيع الرؤية بتلـك العيـن. يمكن لأبـي أن يرى فقـط بتلك العين» مشـيرًا إلى العين اليمنى. ثم أزال السلحفاة من عيني اليسرى، ضحك وقال: «الآن يستطيع أبي أن يرى مرةً أخرى».

في جميع علاقاتنا البشـرية، هنـاك افتراضٌ طبيعي بالمعاملة بالمثـل. أنا أتحـدّث وأتوقّع منـك أن تتحدث. أمُـدّ يدي وأتوقع منك أن تمدّ يدك. أبتسِـم، وأتوقّع منك أن تعيد ابتسامتي. كذلك الحال مع النّظر. أنظرُ إليك، أتوقع منك أن تنظر إليّ.

طالمـا لاحظت مارلين أنني أميل إلى اللّعب مع الأطفال في غِرفـةٍ مظلمة متناسـيًا إضـاءة الأنـوار. غالبًا ما يدهشـنا حقيقة أن الأطفال يتقبّلون هذا دون أي تعليق، كما لو أنّه أمرٌ طبيعيّ تمامًا. ليلـة الاثنيـن الماضـي، اصطحبت توماس إلى غرفة دراسـتي في

الطابـق العلـوي للاسـتماع إلـى شـريط كاسـيت. دخلنـا الغرفـة وأغلقت الباب. كانت السـتائر مسـحوبة، وكانت، على أيّ حال، ليلة مظلمة في الخارج. جلس على حجري دون تعليق وأخرجنا الأشـرطة، وضعتُ شـريطًا أو اثنين على الطاولة لتحديد المقطع الـذي أريده. بعـد أن عثرت عليه، اقترحت علـى توماس أن يجد الصـوَر المطابقـة فـي الكتـاب المصاحـب للكاسـيت. نـزَل من حِجـري وتوجّـه نحـو رفّ الكتب، ثم تـردّد، وتوجّـه نحو مفتاح الضوء عند الباب، قائلًا: «توماس يريد الضوء. لا يستطيع توماس الرؤية بدون الضوء».

خطَـر في بالي عندها، أن توماس يعتقد أنني أسـتطيع رؤيته في الظلام. هو لا يستطيع الرؤية بدون الأضواء، بينما أنا أستطيع أن أرى سـواءً كان المكان مضيئًا أو مُظلمًا.

لا أفتـرض أنّـه كَوّن بالفعل هذه الفكرة في ذهنه كجملة، أن بإمكاني الرؤية في الظلام، ولكن قد يكون الاعتقاد المُسـلّم به، باعتبـار سـلوكه معـي. فهو، بعد كل شـيء، معتادٌ علـى فكرة أن البالغيـن يمكنهم القيام بأشـياءٍ لا يسـتطيع القيـام بها. أنا، كأب، يمكنني رفع أشياء ثقيلةٍ جدًا بالنسبة له، بالتالي يبدو من الطبيعي أن أتمكّن من الرؤية في ظروفٍ لا يسـتطيع فيها الرؤية. بعد كل شـيء، يمكن القول إنني أتصرّف تمامًا كما لو أنني حقًّا أسـتطيع

أن أرى فـي الظـلام. لا أطلب أبدًا إضاءة الغرفة، ولا أنزعِج أبدًا مـا إذا كان المكان مضاءً أم لا.

كيـف إذن يُفسّـر توماس علاقته معي؟ إنـه يفترض المعاملة بالمثـل. كمـا هو بالنسـبة لـي، أنا كذلـك. كما أنّه يفتـرض دائمًا تفوّقي. أي شـيءٍ يمكنه القيام به يمكنني القيام به بشـكلٍ أفضل.

يبدو أن إيموجين، التي تبلغ من العمر حوالي عشر سنوات ونصف، قد نسِيَت أنني فقدت البصر مؤخّرًا. أشارَت إلى حقيقة أننـي كنت مُبْصـرًا عندما كنت طفلاً صغيرًا. بدَت متفاجئة عندما ضحكنـا أنـا ومارليـن وصحّحنا معلومتهـا. ذكّرَتْهـا مارلين أنني كنـت مُبْصرًا عندمـا كنت رجلاً بالغًا كذلك. قبـل أيامٍ قليلة فقط كنـت أنـا وإيموجيـن نسـترجع ذكريـاتٍ عن شـيءٍ قمنا بـه معًا، تضمّن بوضوح قدرتي على الرؤية.

٣٠ نوفمبر

حلمـت أنّني عضوٌ في أوركسـترا صغيـرة. كنت أعزف بآلة الريكـوردر[١]. كنّـا على وشـك العـزف، ربما للتمـرّن، أو لأداء

(١) الريكـوردر recorder آلة موسـيقية شـبيهة بالناي أو المزمار الشـرقي، ولكن لها سلّم موسيقي مختلف.

أغنية عيد الميلاد، أهزوجة أو ترنيمة من تأليف سيمون راتل[1]، قائد أوركسترا مدينة برمنغهام السيمفونيّة. كنا جميعًا على خشبة المسرح والآلات الموسيقيّة أمامنا. كنت في حالةٍ رهيبة؛ لأنني لم أستطِع قراءة النوتة. كنتُ أعمى. لم يكُن لديّ أي فكرةٍ عمّا يجب أن أعزفه. كان هناك جزء مخصّص للعزف الفردي للريكوردر، ما جعلني في غايةِ التوتّر بشأن ما يمكن أن أفعله عندما يحين وقت هذا الجزء من المقطوعة. قرّرت إخبارَ شخصٍ آخر في الأوركسترا عن مشكلتي. ما أن بدأنا للتو في مناقشةِ ما سأفعله، وما إذا كنت سأتمكّن من التحايل على المشكلة، حتى انتهى الحلم.

التناقضات في هذا الحلم ملحوظةٌ للغاية. على الرغم من أنني لم أستطع عزْف أي موسيقى على الإطلاق، إلا أن انطباعًا بصريًّا مميّزًا للغاية كان لدي، عن نسخةٍ مكتوبةٍ بخطِ اليد من الكلمات والأغاني التي كان على شخصٍ ما أن يغنّيها. تمكّنت حتى من قراءة بعض الكلمات. كان الحلمُ بحدّ ذاته بصريًّا للغاية. حلمت حلمًا آخر في وقت لاحقٍ من ذات الليلة، كنت أقوم فيه بتجهيز توماس للنزهة. كنت أمشّط شعره، ورأيت ملامحه بمنتهى الوضوح.

---

(1) Simon Rattle

على الرغم من تناقضاته، فإن الحلم الموسيقى يمثل خطوة مهمة. للمرّة الأولى، أكون في موقفٍ وأدرك أن العمى هو سبب الأزمة. في الحلم، كنت أعلم أن الحرج وقع بسبب العمى. لقد كانت حالة اجتماعية، كانت مسألة كفاءة وأهليّة، كان خوفًا من الشعور بالخزي أمام الجميع وخذلان الأصدقاء، كان لدي شعورٌ مروّع ورهيب بالعجز. هل هذا حلم جنسي[١]؟

دعونا نُفرّق بين الطريقةِ التي يؤثّر بها العمى على عملية الحلم، والطريقة التي يؤثر بها على محتويات الحلم. بالإشارة إلى العملية، كيف يمكن للمَرء أن يحلم بأشخاص لا توجد لهم صورة بصريّة في ذهنه؟ هل يستمرّ المرء في رؤية أحلام ملوّنة؟ كيف يحلم المرءُ بأماكن عندما لا توجد صورٌ تحدّد هيئة تلك الأماكن؟ أمّا محتويات الحلم فأقصِد بها: الطريقة التي تتعرّف بها القصّة الفعليّة للحلم على العمى، ما إذا كنت أواجه مشاكلَ العمى في الحلم، أو أعرف نفسي كأعمى أو أفعل أشياء يمكنُ للشخص الأعمى فقط أن يفعلها، مثل وضع يدي على رأسِ شخصٍ ما لمعرفة طوله.

---

(١) حلمٌ قضيبي phallic dream هي الترجمة الحرفية. إشارة إلى العجز وفقدان السلطة، وهو المعنى التي قد تُفسّر به الأحلام الجنسيّة الذكورية.

٢٣ ديسمبر

حلمت أنّني كنتُ في مكتبةٍ عامّة، ربما في ملبورن. كنت أعمى لأنني كنت أعاني من مشاكل كثيرة في فرز كتبي، وكان أمين المكتبة يساعدني. ظهر رجلٌ أعمى آخر. استطعت أن أقول إنّه أعمى لأنه كان يحملُ كراتين متراصّة لما يبدو أنها كتبٌ على أشرطةٍ مسموعة. كانت الكراتين على صينية خشبيّةٍ كبيرة، وبما أن كلتا يديه كانتا تمسكان الصينيّة، فقد شقّ طريقه بصعوبةٍ بين المكاتب والطاولات، كان يرتطم وينتقل من شخصٍ لآخر، في طريقِه إلى مكتبه. بقِيَت الكتب ثابتة وواضحة من فوق الصينية، مغلفة بورق كرتوني مقوّى. ربّما كانت أشرطة بكرَةٍ كبيرة الحجم. كانت كعوب الأغلفة الأصلية للكتب مقصوصة وملصَقة على أغلفة الأشرطة من الخارج، بحيث بدَت تمامًا مثل الكتب الفعلية. كانت ملوّنةً بشكلٍ مبهج، باللون الأزرق، والأخضر، والأصفر، والأحمر. شعرت بالبهجة لوجود عددٍ كبيرٍ من الكتب المرجعية، بما في ذلك قاموس أوكسفورد المختصر، ومجلّد، أو مجلدين آخرين من هذا القبيل. تساءلت ما إذا كان سيسمح لي بنَسْخ أشرطته، حتى أتمكّن من استخدامها. في تلك الأثناء، وجدت طريقي إلى مكتبي، وقُمت ببعض الأعمال المتعلقة بأدب الأطفال.

إستعرضتُ عددًا من كتب الأطفال، ثم جلست لمراجعة دراسة نقديّة. انتهيت من الفصل الأول بشيءٍ من الصعوبة؛ لأنّني كنتُ أعمى. لم أكن أستخدم أيّة أداوت مساعِدة أو مُعيناتٍ بصريّة، مع ذلك، صُوِّرَ مشهد المكتبة بأكمله من حولي بوضوح.

هل يمكن أنني كنت ذلك الأعمى بأشرطته؟ مع ذلك، أنا أيضًا، قارئ أعمى آخر، يراقبه.

٦ يناير

أوّل تجربة هلَعٍ وذُعرٍ مررت بها وكانت مرتبطة بالعمى، حصلت في منتصف ديسمبر ١٩٨١. كنت على وشك مغادرة برمنغهام للدراسة لمدة أسبوعين في كامبريدج، وكانت ظهيرة شتاءٍ قارس البرودة، ومن المتوقّع تساقط الثلوج. وجدت أنّه من الأفضل أن أخرجَ من المنزل وأمضي في طريقي قبل نزول الثلج. كانت الثلوج قادمةً من الغرب، وبقليلٍ من الحظ، قد أصل إلى كامبريدج قبل ذلك.

غادرت المنزل، لكنني لم أتخط سوى مئة ياردة عندما أحِسستُ بشعورٍ متزايدٍ من القلق. أصبحت مدركًا تمامًا لحقيقة أنني أسير في العدَم. لقد كان شيئًا مثيرًا للاهتمام، كان عدَمًا باردًا. شقَقتُ طريقي على طول الأسوار، أردت أن أخلع قفازي

حتى أتمكّن من الشعور بها بشكلٍ أفضل، لكنني تراجعت لمعرفتي أنها ستكون باردةً جدًّا. أخذَ الشعور بأنّني ذاهبٌ صوْب العدم يزداد في داخلي. كنت وحدي، أدخل نفقًا مُظلمًا قارسَ البرودة ولا ينتهي. علمت أنّه بمجرد دخولي فلن أتمكّن من العودة، سأصبح تائهًا. اِعتراني شعورٌ بالهلاك الوشيك. في لحظةٍ ما، كنت بالقرب من إشارة مرور المشاة، ولا بُدّ لي من عبور الطريق. اتّكأت للحظةٍ على السياج الحديدي بجوار ممر المشاة. كان كل شيء ساكناً. غالبتُ شعورَ الخوف، لكنني لم أستطِع الاستمرار.

استدرتُ وعدتُ أدراجي إلى المنزل، محاولًا أن لا أركض، عارفًا أنّني لا أستطيعُ الرّكض. عند عودتي إلى المنزل، أخبرت مارلين أنني شعرت بتوعّك، وأنني سأستلقي قليلًا. حاولت مرةً أخرى في وقتٍ لاحق المغادرة إلى كامبريدج، ونجحت في ذلك.

اعتدت على إحساس الهلع والذّعر لشهورٍ في عام ١٩٨٢، عندما كنت أستحمّ بحمّامات زيْتٍ دافئة. كل مرّة كان يعتريني شعورٌ بأنّني مُحاصر، وأنني لا شيء غير جسَدٍ يطفو في الفضاء. كان من المفترض أن يستمرّ الحمّام لعشرين دقيقة، لكن ذلك كان يتطلّب جهدًا رهيبًا وإرادةً قويّة. كنتُ أعُدُّ في داخلي

الثواني، ثم الدقائق، ولا أسمح ليَدي الوصول إلى الساعة الناطقة حتى أعلم أنني قضيَت على الأقل نصف الوقتِ المطلوب. كانت الدقائق الخمسُ الأخيرة دائمًا الأسوأ.

النوع الثالث من تجارب الذّعر والتي عانيت منه في الأشهر الأخيرة كان مرتبطًا بضيق التنفس الناتج عن الربو. هذا أمرٌ نادر، ولكنه مخيف إلى حدٍّ ما. قبل عيد الميلاد بيوم أو يومين، كنت أعاني من ضيق في التنفس لمدة ساعة أو نحو ذلك أثناء المساء. صعدت إلى الطابق العلوي حوالي السّاعة الحادية عشرة ليلًا وهذا ما أصابني بصفيرٍ خفيف وأزيزٍ في صدري. عند وصولي إلى غرفة النوم، جلست على حافّة السرير. أحسست فجأة بيدي وجبهتي وجسدي كله يتصبّب عرَقًا. أحسستُ بأنّني مُحاصر، وأنّني في أمسِّ الحاجة للخروج. كان عليَّ أن أخرج. شعرت وكأنني أضربُ برأسي وجسدي كله بجدارِ العمى. عليَّ أن أفلِت من هذا الستار الأسوَد، هذا الحجاب الداكن الذي أحاط بي. في مكان ما، هناك، ثمّة عالمٌ من النور، عليّ أن أخرج إليه. في نفس الوقت، اِعتراني شعور بِالحنق والغضب. كيف حصَل هذا لي؟ كيف يُعقل أن يحصل؟ من له الحقّ أن يطلب مني العبور بهكذا تجربة؟ من له الحق في حرماني من رؤية أطفالي في عيد الميلاد؟

كنت مُنفصِمًا عن العالم الخارجي. الشيءُ الوحيد الحقيقي كان جسـدي القابـع على حافة السّـرير. من المفتـرض أن يكون هنـاك منـزل فـي مـكانٍ مـا. أعلـم ذلـك، إذا مـا قمـت بتحريك جسـدي، فسـوف أشـعر بأجزاء ذلـك المنزل، شـيئًا فشـيئًا، وأنا أتحـرك في أرجائه. سـيكون هنـاك زوايا وجـدران وورق حائط وأسـطُح، لكـن لا شـيء من ذلـك هنا الآن. كل الأشـخاص في المنـزل، والثرثـرة، وصـوت البيانـو الـذي يُعـزَفُ فـي الطابـق السـفلي، كل شـيءٍ يطفو كما لو كان قادمًا من عالمٍ آخر، كوكبٍ آخـر. كنـت هناك فقـط. كنت حقيقيًا، لكن كل مـا حولي يُجرَفُ بعيدًا.

الصعوبة التي كنت أعانيها في التّنفس بسبب الربو، جعلتني أشـعر وكأننـي كنـت أتعـرّض لهجومٍ مـا، كنـت أختَنِـق، أختَنِق بالسـواد. كنـت في صندوقٍ سـاخنٍ مُظلم، لم يكـن فيه ضوء أو هـواء. كل ذلـك زاد مـن رغبتـي في الخـروج والابتعـاد من هذا المكان الضّيق الصغير.

هنـاك صـورةٌ مُلازمـة ظلّـت تلاحقنـي وتضايقنـي خـلال الأشـهر والسـنوات الأولى من العمى. عادت الآن بشدّة وأشعر أنهـا ترهِقنـي. أجدُ نفسـي في عربـةِ فحْمٍ صغيرة تتصِـلُ بعربات أخـرى فـي نفـق منجـمٍ محفورٌ فـي جانـب التلّ. كنـت أتدحرج

بالعربة عميقًا نحو سفح التلّ. كلما نظرت إلى الوراء، استطعت رؤية الضوء، رؤية مدخل النفق. كان هناك نافذة ضوء مستديرةٍ كذلك في نهاية النفق. كنا نتدحرج إلى العمق في جوف الجبل حتى وصلنا سطحًا مستويًا، لم نعُد ننزل بعده إلى الأسفل وإنما ننسحِب أبعد وأبعد، وتصبح دائرة الضوء الصغيرة أصغر وأصغر. كنت أقول في نفسي: أعلم أن من يقود قطار العربات سيتوقف قريبًا. لا يمكن له أن يستمرّ على هذا المنوال. لابُدّ وأن تتباطأ العربات في أي لحظةٍ وتتوقف وربما تعكس مسارها. ستتّسع بئر الضوء الصغيرة في النهاية. لكن لا، لا شيء يحدث من هذا. هل فقدنا السيطرة؟ هل يوجد أَحَدٌ يقود القطار؟ ألا يوجد أحدٌ يمكنه إيقافنا؟ عليّ أن أخرج. لا بد لي من القفز. لا بدّ أن أركض للخلف. كل ذلك لم يكن ممكنًا. وظلّت العربات الصغيرة تحملني معها بلا شفَقةٍ، أعمق وأعمق. الآن أشعرُ بثِقَل الجبال فوق رأسي. جبال تُخفي الضّوء والنهار والهواء. مازلت أتدحرج أعمق وأعمق في هذا الثِّقل، في هذه الصّلابة. ليس هناك ثُقب إبرةٍ من نور يأخذ بيدي. أعلمُ الآن أن جبلاً صخريًّا يحِول بيني وبين العالم، كُتلْة وستارة دخانيّة لا يمكن اختراقها، ثقيلة وساخنة مثل الصخرة ذاتها. أنا محاصر في مكانٍ مخبّأ لا يُطاق.

تختفـي نوبـات الهلَـع والذُعْـر فـي غضـون بضـع دقائـق، بالتنفس الثابت والمنتظم وبإمسـاك شـيءٍ صغيـرٍ في يدي. أظلّ بعد ذلك على حافّة البكاء مرتعشًـا.

٣

ما وراء النور والظلام

شتاء ١٩٨٣

٧ يناير

نتعلّم في وقتٍ مبكر من الطفولة ربط رغباتنا بالصّور المرئيّة للأشياء التي تلبيها وتبعث على الرضى. يصعب التمييز بين الشعور بالرغبة واكتشاف الرغبة عند رؤيتها، على سبيل المثال: «أشعر بالجوع»، و«أريد أن آكل ذلك الطعام الذي أراه هناك». يشعر المرء بالجوع، بالطبع، حتى عندما لا يكون هناك طعام مرئي في الأفق، ولكن بمجرد رؤية الطعام، تحلّ الرغبة في الطعام محل الشعور بالجوع، أو تختلط مع الشعور، بحيث تكون شهيّة المرء، واهتمامه، وحواس الشم والذوق مشغولة بترقّب الطعام المرئي. يرتبط الإحساس الداخلي بالجوع بمرجعية موضوعية خارج الجسم، وتصبحُ الرغبة محددة. في الواقع، يمكن لرؤيةِ

الطعـام أن تُشـعِرك بالجـوع، أو تجعلك تدرك أنك جائع.

هـذا الارتبـاط الوثيـق بيـن الصـورة والرغبـة يذكّرنـا بأن البصر هو حاسّـة اسـتباقية. إن ترقّب إشـباع الجوع يحل محل الإحسـاس بالجـوع. عندمـا يتـم التّركيـز علـى اسـتيفاء رغبـة الأكل بمجـرّد رؤيـة الطعـام، تحصُـلُ ردّة فعـلٍ. أمـدُّ يـدي للطعام، أدخلُ المطعم، أشـتري العنـب. بطبيعة الحال، البصَر ليـس الحاسّـة الوحيـدة التـي تشـارك في هـذا. رائحـة الطعام مهمّـة جدًا، في الواقع، قد تكون رائحـةُ الطعام أكثر أهميّة من البصر بالنسـبة لأشـخاصٍ مُبصرين. كما هـو الحال دائمًا، فإن البصـر هـو الأسـاس الـذي تقـوم عليـه الحـواسّ الأخـرى. تجذبـك رائحـةُ الطّهي اللذيذة إلى المطبخ وتُشـعِرك بالجوع، لكـن رؤيـة الطعـام تخبـرِك بمـا سـتتناوله فـي وجبـة العشـاء. الرّائحـة الذّكية، على الرغم من أنها مثيرة بشـكل مُذهلٍ، غالبًا مـا تكتسـب صفـةً عموميّة إلـى حدٍّ ما. تقـول: «تلـك رائحتها شهيّة. ما هي؟». علاوةً على ذلك، هنالك العديد من الأطعمة التـي غالبًـا مـا يكـون منظرهـا أكثـر إثـارة مـن الرائحـة. منظر التفاحـة المتـورّدة اللامعـة أكثـر جاذبيـة مـن رائحـة التفّاحـة الجميلـة الغامضـة، والتي يمكـن ملاحظتها عنـد فتح صندوقٍ كامـل مـن التفّاح أو الصعود إلى العُليّة حيـث يتم تخزينها، قد

لا تكـون الرائحـة ملحوظـة لـو كانـت تفاحـة واحـدة، خاصةً عندمـا تكون في طبَقٍ مع أنواع أخـرى من الفاكهة.

يُخَلخِـل العمى ذلك الاتحاد الأزَليّ بيـن الرغبة والصورة. طالما شـعرتُ بالملل من الطعام، أشعر أنني أفقدُ الاهتمام به أو لا يهمّني تناوله. في الوقت نفســه، أشـعر بعضّة الجوع الطبيعيّة. حتى أثناء شـعوري بالجوع، لا أحبّذُ الاقتراب من الطعام. أعلم أنّـه موجـود؛ لأن أحدهـم أخبرني بذلـك، قائلًا: «لقـد جاء طبقُ الحسـاء»، أو «لا تبـدأ بَعْـد؛ النادل قـادمٌ بطبَـق الخضروات إلى الطاولـة»، أسـأله «ولكـن ما هـو؟»؛ فيجيب: «إنه كسـتلاتة لحم العجـل». الآن أعـرف. ولكن ماذا أعرف؟ أعـرف هذه الجملة، وأنـا أؤمن بهـا، لكنّ الإشـارات المرئية التي تثيـر الرغبة الفعلية وتحولّها إلى الخارج مفقودة.

يبـدو أن شـيئًا مشـابهًا إلـى حدٍّ ما يحـدث في حالـة الرغبة الجنسـية. هنـاك، في اعتقادي، ذات الصِّلة بين الإحسـاس العام والمُرْبِـك للجـوع الجنسـي والصـورة المعيّنـة للشّـخص الـذي يمكنـه إشـباع الرغبـة. الصـورة التـي يُمكنهـا أن تُشـبِع وتلبّي لا يمكـن فصلها تمامًـا عن تحقيق الرغبة ذاتها. مـا الذي يمكن أن نتخيّلـه عن مشـاعر آدم الجنسـيّة قبل أن يلتقي حـوّاء؟ كان يعلم أنـه يريـد شـيئًا، لكـن لم يكـن يعرف ما هـو. عندمـا رأى حواء،

استحال القلق الناتج عن شوقٍ ليس له شكلٌ بائن إلى مطاردةٍ شغوفة لشخصٍ بعيْنه.

لذلك من الممكن، على ما أعتقد أن يشعر رجل أعمى (متباين الجنس[1]) بالملل من النساء، ومع ذلك يدرك في سريرته الجوع الجنسي. إن أثر عطر امرأةٍ، ودرجة اختلاف صوتها عوامل ليست ذات قيمةٍ في التأثير الكامل على المبُصر؛ عند رؤيته لامرأةٍ الجذّابة. يستغرق الرجل الذي فقد بصَره في شبابه وقتًا طويلاً لتحويل إشارات الإثارة الجنسيّة من الصورة البصرية إلى الحواسّ الأخرى. لا بُدّ وأن هناك العديد من الرجَال في هذا الموقف يتساءلون عمّا إذا كانوا قادرين مرةً أخرى على الشعور بإثارةٍ جنسيةٍ حقيقيّة. إن تفكيك الرغبة عن الصورة أمرٌ غريب ومقلق للغاية.

٨ يناير

إذا قبلت هذا الشيء، وإذا أذْعنت، فسأموت. سيكون الأمر كما لو أن قدرتي على المقاومة، وإرادتي في المقاومة محطّمة. من ناحيةٍ أخرى، يبدو أن رفض الإذعان، رفض القبول، أمرٌ عديم الجدوى. ما أحاول أن أرفض قبوله هو محْضُ الحقيقة.

---

(١) مغاير الجنس أو محبٌّ للجنس الآخر heterosexual

هـذه إذن هـي المُعضلة. أنا في حضرة واقعٍ لا يمكن تقبّله.

يجـب أن أكـون مكتفيًـا بالقليل من الإجابات. هـذا يتطلّب تخطيطًـا دقيقًـا لـكل يـوم، واليـوم يتطلّب تقسـيمه إلـى أجزائه. يجـب أن يكـونَ لـكلّ سـاعةٍ مهاراتهـا الخاصـة، وتكنيكاتهـا المختلفـة، وروتينهـا المحـدّد الـذي يمكّـن مـن إنجاز شـيءٍ ما بنجاح. خلاف ذلك، سـيكون لدي شعور بالاستيحاش الذي لا طائـل منه، شـعورٌ أحمل في داخله أعمـق وأعمق، بلا حولٍ ولا قوة. يزداد هذا الشعور بمرور الوقت ويُصبح حادًا لدرجةٍ أشعر فيهـا أنني مغلـوبٌ مُضْطهد. مُضطهدٌ بِثِقَلٍ خفـيّ باطني، أتصوّر فيـه حلـمَ السـفينة الضّخمـة التـي تغـرق وتُجَـرُّ إلـى الأعمـاق. وأتصـوّر حلـم اليقظة، عندما كنتُ في عربةِ فحمٍ صغيرة تُجرُّ بلا رحمةٍ، أعمق وأعمق في جوفِ جبل لا متناهي. السمَة المشتركة هـي الثِقَل الذي لا يمكِنُ مقاومته.

يصارع المرء هذه الأشـياء بخطـواتٍ دقيقة. يتبنّى تكنيكات صغيرة تسـاعده على القيام بأشـياءٍ صغيرة خطوة تلو أخرى. لن أحـاول العـودةَ إلى المنزل. ذلـك بعيد جدا. لكنّني سـأصِلُ إلى نهايـة المربّـع السـكني. لا يُمكننـي اسـتعادةَ ما قبضـت عليه من معانٍ في القواميس والموسـوعات. ومع ذلك، سأجد معنى هذه الكلمة فقط. لقراءة هذا الكتاب كاملًا بهذه السّـرعة، سيسـتغرق

الأمر عُمُرًا. حسنًا، لن أحاول ذلك. لكنّي سأصِل إلى نهاية هذه الصفحة، حتى لو قتلني ذلك.

عليّ أن أقاومَ بفِعل التقصّي عن الظروف التي تُحدِث الهلع والذّعر في داخلي. اسمحوا لي أن أسرُد شيئًا من ذلك في ذهني. لم أشعر أبدًا بالذّعر في مكتبي. أشعر دائمًا بأنّني في بيئةٍ منظّمة، أعرف أين توجد الأشياء، ولدي ما يشغل وقتي. قد أشعر أحيانًا بالنّعاس والكآبة، لكن ذلك لا يبعث على القلق، ولا يُشعرني بالذعر أبدًا.

يجب أن أفكّر مليًّا في تداعيات ترتيبات عيد الميلاد في المنزل. بسبب الازدحام وحاجة الأقارب للمبيت في مكتبي، اضطررت على التخلّي عن الدراسة، وهو ما فعلته بكلّ سرور. ولكن بعد ذلك، لم يكُن هناك مكان لأذهب إليه، ولا مكان أستكمل فيه بعض الأعمال الصغيرة التي من شأنها أن تقدحَ شرارةً في عقلي. لا بد أنني تأثرت أيضًا بحقيقة أن المنزل بأكمله، من أعلاه إلى أسفله، كان مُكتظًّا بأشياء غير مألوفة، لعبُ أطفالٍ متناثرةٍ في الأرض، وحقائبُ سفرٍ في الممرّات، وأقارب تصطدم بهم. العددُ غير المعتاد من النّاس في المنزل يفاقم المشكلة. لا بدّ لي من تركيزٍ أكبر لتمييز ما يحيط بي. كل هذا يجعلني أشعر أنني في بيئةٍ تخرج عن نطاق السيطرة، وأنّ

كل ما حولي يسبح، ولا يمكن التنبؤ بما قد يواجهني في كل خطوة. يجعلني أستوْعِب المرونةَ التي يفتقدها المكفوفون، أو يجب أن أقول نوع الحياة غير المرنة التي يفرضها العمى على المكفوفين. الأُلفة، القدرة على التنبؤ، الأشياء المعتادة، الأشخاص، الطرُق، حركةُ اليد المعتادة على تحديد موقع هذا أو ذاك: كل هذا يُؤخذ بعيدًا، ويُنقَلُ الأعمى مرةً أخرى إلى حالة الطفولة حيث لا يعرف ببساطةٍ كيف يتعامل مع العالم، كيف يدخلُ إليه ويتحكّم فيه، كيف يجد نفسه ويكوّن علاقةً مع ذلك العالم، حيث يُهدّد التوازن الذي تم تحقيقه بشقّ الأنفس، بالثقة والخوف، ويُثقَل المرءُ بفكرة أن العالم الذي يسعى إلى الاتصال به لا يمكن تكوين صلةٍ معه؛ لأنه إمّا غير واقعي أو يتعذّر وجوده. يسكنُه كائنات تنتمي إليه، يسكنه المبصرون. العالمَ الذي يبقى حينئذٍ هو جسَده، الوعي الاستبطاني. ذلك عالم لا يستطيع المبصرون اختراقه، مكانٌ يمكن فيه تأسيس نوع من السيطرة الجوّانية. حيث العودة إلى ما وراء الطفولة، إلى حالة ما قبل الولادة، حيث يطفو المرء بحرية دون تفريق، مكتنفًا نهاية النفق، دون عالم وأخيراً بدون نفس.

البديل عن ذلك هو إنشاء بيئة خاصّة، دراسة، غرفة، طريق، ممر، إقليم معيّن. أتساءل عمّا إذا كان يمكن التفكير في هذا الأمر برمّته من حيث الحقوق الإقليميّة.

العمـى يسـلب المرء حقوقه الإقليمية. يخسـر المرء أرضَه. يتراجـع مـدى الانتبـاه والمعرفـة بحيـث يعيـش المرء فـي عالمٍ صغيـر. تقريبًـا كل الأراضي تصبح عدوّاً محتمـلًا. فقط المنطقة التـي يمكـن أن يمسّـها الجسـد أو تنقرهـا العصا تصبح مسـاحةً يمكـن للمرء أن يعيش فيها. غير ذلك يظلّ مجهولًا.

كمـا أننـي مسـكونٌ بفكـرة أنـه لابـد وأن يكـون الأمـر أكثر فظاعـةً بالنسـبة لأولئـك الذيـن فقـدوا بصرهـم وفقدوا سـمعهم أيضًا.

١١ يناير

يسـألني النـاس أحيانًـا مـا إذا كنـت أرغـب فـي تحسُّـس وجوههـم، لكن الوجه عند لَمْسـه يختلف تمامًـا عن الوجه عند رؤيتـه. مـن أهم سِـمات الوجـه، العيـون والتي لا يمكن لمْسـها بسـهولة. علاوة على ذلك، فإن أهمّيـة وضعية المواجهة (وجهًا لوجه) في هذه الحالة تصبح مُبْهمة. رؤية الوجه هي التي تتطلّب أن يكـون لهـا وضعيّـة معيّنة. في عالـم المبصريـن، يعتبر توجيه المرء لوجهه نحو الشـخص الذي يتحدّث، علامةً على الكياسـة والاهتمـام، ولكـن فـي العالـم الأعمـى لا شـيء من ذلـك يهم. فالشـخص الأعمـى، فـي النهايـة، يعرف أنّـك كنت تسـتمع إليه

عندمـا تـردّ عليـه فقط، وليس بمعرفـة ما إذا كنت تنظـر إليه أثناء مخاطبتـه لـك. بعبـارةٍ أخـرى، لـم يعـد هنـاك رمزيّـة للوضعيـة المتبادلـة للوجوه. يتعامـل البصَر مع المسـاحات، مع المناطق، وبالتالي مع الوضعيّات.

مـا هو المغزى الجنسـي لهذا؟ وضعيّـة المواجهة مهمّة في ممارسـة الحـبّ عند المبصرين، لأنها تُشـير إلـى اهتمام أحدهم عندما يسـتلقي بالكامل على الآخر. إنها تمثّل الشـراكة والطبيعة الشخصيّة للتبادل الجنسي. هناك فيلم عن شعبٍ ما قبل التاريخ. أحد أكثر المشـاهد الدرامية كان عندما استبدل زوجان يمارسان الحـب الوضعيـة التـي يكون فيها الشـريك الذكر خلـف الأنثى، والتـي يُظْهرهـا الفيلـم علـى أنهـا ممارسـة عالمية، إلـى وضعية المواجهة.

يُصوّر هذا على أنه تطوّر الاتصالِ الجنسي إلى فِعْل الشراكة بيـن شـخصين. ومع ذلـك، فبالنسـبة للعاشـق الأعمى، لـم تعُد وضعية المواجهة بذات أهميّة الشـراكة الشـخصية كما هو الأمر للشـريك المبصـر. لا أعتقـد أن المبصـر يمكـن أن يتقبّـل هـذا بسـهولة. إنه انتهـاك للميثاق القوي حول العلاقة بين الشـخصيّة والجسَـد. كيـف يؤثّـر العمى على ممارسـة الحب؟ هـل يصبح العاشـق الأعمـى أكثر بدائيّـة؟ هل يتراجع، إذا جـاز التعبير، إلى

الوضـع الموصـوف في الفيلم، إلى ما قبل الشـراكة الشـخصيّة؟ مـن ناحيـةٍ أخرى، بما أن الشـخصَ الأعمـى يعتمد بشـكلٍ كبير علـى اللّمـس والشـمّ والتـذوّق، أليس مـن الممكن أن يكتسـب دماثةً وحساسـيةً جديدة في هذه الحالـة التي تعتمد على اللمس بشكلٍ أساسي؟

جانـبٌ آخـر أيضًـا، هـو فظاعة أن تكـونَ بلا وجهٍ، ونسـيان المرء لشـكلِه ومظهره. الوجهُ مرآةُ النّفس وصورتها.

هـل هـذا مرتبـطٌ برغبتـي فـي إخفـاء وجهـي عـن الآخرين أحيانًـا؟ رغبتـي في أن أمسـك ذقني وأغطّي فَمـي وأضغط على أنفـي بيَدي، كمـا لو كنتُ أرتدي قناعًا. هل هـذه رغبةٌ بدائيّة في تحقيـقِ نـوعٍ من المسـاواة؟ بما أن وجهَك غير متـاحٍ لي، فلماذا يكون وجهي متاحًا لك؟ أم أنها تنبع من شعوري بفقدان الوجه؟ أم أن الأمـر مجـرّد حـداد بطريقـةٍ مـا علـى فقـدان وجهـي؟ هل أحاول استعادةَ الثقة في أنني حصلت على وجهٍ من خلال لمْسهِ بيدي؟ أريد أن ألمس شفتيّ أثناء حديثي. تأتي أصوات الآخرين مـن العدَم. هل يأتي صوتي أيضًا من العدَم؟

غالبًا ما أرغب في الإشـارة إلى ذِقني بأحد أصابعي، وذلك لتذكيـر نفسـي دائمًـا بتوجيـه وجهي فـي الاتجاه الـذي يأتي منه

الكلام أو الصوت. أحتاج إلى القيام بذلك عندما أكون في حديثٍ عميقٍ مع شخصٍ واحدٍ. هل أخشى أن يتمايل رأسي مثل الأعمى وتظهر عليه تلك الخِصْلة المعروفة؟

اختفاء الوجه ليس إلّا أكثر الأمثلة الموجعة في انتزاع الطابع المادّي من الجسَد كله. تصبح الناس مجرّد أصوات. هذا يقود إلى شيءٍ آخر. فقط لأنه لا يوجد شيء يتوسّطُ بين الأصوات غيرِ الملموسة والاتصال المباشر للأجساد، يصبح الاتصال الجسدي أكثر إثارة للفزَع. وتصبح المصافحةُ أو العناق نوعًا من الصّدمة؛ لأن الجسَد يخرج من العدَم إلى الواقع المفاجئ.

يحصل هذا بشكلٍ واضحٍ في تجربة شرب ماءٍ شديد البرودة من الصنبور. التأثير فوريّ جدًّا. فجأة، هناك ماء! يصفع الشفتين ويغمُر الوجه ويفيض في الفَم والمعدة، يؤكّد حضوره الحادّ دون سابق إنذارٍ أو تحضير. إنه يأتي فقط، يصفع. كذلك هو تحوّل الكلام إلى اتصال جسدي في العلاقات الإنسانية للمكفوفين. لذلك؛ بالنسبة للمكفوفين، يصبح الأشخاص الآخرون أكثر تجريدًا وأكثر واقعية، بالانتقال الفُجائي من حالةٍ إلى الأخرى. هذا يعيدنا إلى مشكلة العلاقات الجنسيّة

للمكفوفيـن. ربّمـا يكـون العاشـق الأعمـى أكثـرَ تجريـدًا وأكثر واقعيـة، ربمـا يكون أكثـر بدائيّة وأكثـر تعقيدًا في نفـس الوقت، وبطُـرِقٍ مختلفة. ربّما هذا ما يقصدونـه عندما يقولون إن الحبّ الحقيقيّ أعمى.

٢ فبراير

الليلـة الماضيـة حلمـتُ بكابـوسٍ، كان واضحًـا وحقيقيًّـا لدرجـةِ أنّـه أيقظني. حلمـت أنّ إليزابيث، التي سـتبلغ من العمر عاميـن فـي ٢٣ فبراير، لـم تكن فـي تختها. عوضًا عن ذلك، كان التخـت ممتلئًا بالـورود والزهور الجميلة. كانت الزهور منسّـقة بهيئـةٍ رسـميّة، كأنّهـا أكاليلٌ على شـاهدِ قبر. ذهبـت إلى مارلين وقلت: «أين ليزي؟».

قالت مارلين: «إنّها ميتة».

شـعرت بالرَّوْعُ والفزَع وانهمـرت دموعي وصرخت: «ماذا حدث؟ لم أكن أعرف. أخبريني!».

كانـت مارلين هادئة للغاية. قالت: «ليس من الجيد إحداث ضجة. لقد دُفِنت».

استشَـطت غضَبًـا. أمسَـكت بهـا مـن كتفيهـا، وأنـا أرتعـش

وأصـرخ: «مـاذا تقصديـن؟ كيـف تجرُئيـن! لـم تَمُت فقـط، بل دُفِنَت ولـم يخبرني أحد؟».

أشارت مارلين من النافذة. كانت هناك قطعة أرضٍ خضراء، كأنهـا حديقة كاتدرائيّة أو دير، يسـير عليهـا موكبٌ بخطىً بطيئة. قالـت مارلين: «هـا هُم ذاهبون، هنـاك موكب الجنـازة». عندها استيقظت.

كان الحلـم بصريًا للغايـة. كان المنظر مهيبًا ورائعًا؛ ملابس النـاس، وخضـرة العُشْـب، والألـوان الزاهيـة للأزهار. لـم يكُن هناك أثَر للعمى. من يُعيل أسرتي وأطفالي؟ كيف لي أن أعرف؟ هـل أخطـأ الحالـمُ في الأسـماء؟ ربما لـم تكن ليـزي ومارلين، ولكـن أشـخاصاً آخريـن فقدتهـم أيضًـا؟ هـل كانـت إيموجيـن الميّتة. فُقِدت أولاً بالطلاق[1] وبُعْد المسافة، وفُقِدت مرةً أخرى بتأثيـر العمى الانعزالي؟ وجوه الفقدان كثيرةٌ ومرعبة.

٤ فبراير

اليـوم ذهبـت العائلـة إلـى كاتدرائيـة كوفنتـري[2]. ذهبـت مارليـن مع توماس لشـراء تذاكر للمعرض الخـاص، بينما بقيت

(١) إشارةً لزواجه الأول والذي انتهى بالطلاق.

(2) Coventry Cathedral

في المقهى. سألت مارلين ما إذا كان هناك امتياز للأشخاص المعاقين، مضيفةً: «زوجي أعمى». بعد حصولها على التذاكر، قال لها توماس: «لماذا زوجك أعمى؟». أخبرتني مارلين، في حديثها لي لاحقًا، وأنها فوجئت كثيرًا بهذا السؤال، لم تستطع الإجابة، وتساءلت مّا إذا كان من المفترض أن تقول ما قالته وهو يسمعها. مع ذلك، أجابت: «لأن أباك لا يستطيع الرؤية».

ثم سأل: «هل أبي زوجك؟».

«نعم».

«لماذا لا يرى؟».

«حدثت مشكلةٌ في عينية».

لم يتابع توماس أكثر من ذلك في الحديث حول هذا الأمر، ولكن لاحقًا، بينما كنا نتجوّل في الكاتدرائيّة ذاتها، جاء إليّ. كانت هذه هي المرّة الأولى التي أكون فيها بمفردي معه، على الرغم من أن مارلين قد أخبرتني بما حدث. سألني: «أبي، هل أنت أعمى؟»؛ حملته بين ذراعي وقلت: «من أخبرك بذلك؟».

كانت هذه إجابة حمقاء ومراوغة ولا أعرف تمامًا لماذا قلتها. بطريقةٍ غامضة لا أستطيع فهمها تمامًا، شعرتُ بالخجل. كنت أخشى أن يُحْدِث الأمر بعض التغيير في علاقتي معه. على

أي حـال، هـو يعـرف الآن أنّني أعمـى. لكن، هل يعـرف ما هو العمـى؟ مـا الاسـتنتاجات التـي سـيتمكّن مـن اسـتخلاصها من معرفته أنني أعمى؟

٩ فبراير

أخبرتنـي مارليـن أنّـه بالأمس وبينما كان تومـاس يلعب مع ليـزي، أغلـق جفنيـه بشـدّةٍ، قائـلاً لهـا: «عندما أغمـض عيني لا يمكنـك رؤيتـي». أبقـى علـى عينيـه مغلقتيـن لِبِضْع ثـوانٍ، بينما كانت ليزي تحدّق به، بعيونٍ واسـعةٍ ومُندهشـة. أخيرًا فتح عينيه وقـال متباهيًا: «هناك!». هـذا مثال حيّ لفرضيّة المعاملة بالمثل. يفتـرض المرء أن الآخر يُشـبهه. إن كنت لا ترى، فأنت لا تُرى. تُعـادُ ترتيـب صيغ الكلام الإيجابية والسـلبية. وبالتالي، إن كنت لا ترى فلا يمكن لأحَدٍ ملاحظتك. الأعمى شـخصٌ غير مرئي. مـن يغلق عينيه شـخصٌ غير مرئي أيضًا، لا أحد يسـتطيع رؤيته. إذا لـم يسـتخدم المرء بصَـره، فلن يكون متاحًـا للمُبْصِر. الحُجّة فـي مبـدأ المعاملـة بالمثل تعمـل كالتالي: أسـتطيع أن أرى أبي؛ لذلـك فإن أبي مرئي؛ لذلك فإن أبي يرى.

سـيكون مـن السـهل جـدًا تجاهـل هـذا باعتبـاره جـزءًا من الاسـتدلال المنطقي الطّفولي. يجب أن نتذكّر ما يُسمىك «وهم

الخصوصيّة[1]»، وهـي إحـدى السّـمات السـلوكيّة للكثيـر مـن البالغين المكفوفين. إنها تشـير إلى صعوبة التذكّر طوال الوقت؛ كونـك أعمـى، ولاتزال مرئياً للآخر. مـن الصعب دائمًا أن تضعَ فـي اعتبـارك النطاق المُذهـل لهذه المقـدرة التي يُقـال إنها عند الآخرين. يجب على الأعمى أن يُذَكّر نفسَـه طوال الوقت، حتّى عندما يتشـوقّ إلى حكّ مؤخرته، أنّه مرئي.

هـذه ليسـت الحالـة عند فقـدان السـمع. لم أسـمع قط عن طفـلٍ وضـع أصابعَـه في أذنيـه وصـرخ: «لا يمكنك سـماعي». وأعتقد أن أحدَ أسـباب ذلك هو أن عضوَ السّـمع وعضوَ الكلام يقعان بشـكل منفصـل في الرأس. العضو الذي يَسْـمع به المرء: (الأذنـان)، والأعضـاء التي يُسَـمّع بواسـطتها المـرء: (الحنجرة والفَـم)، ليـس هنـاك تطابـق. بينمـا العضو الـذي يَرى بـهِ المرءُ والعضـو الـذي يُـرى بـه متطابقـان. البصَـر مُتَبـادل لكن السّـمع متسلسل.

وبالتالـي، ترتبـط العيْـنُ بشـكل فاعـلٍ ولا فاعـلٍ مـع عيـنِ الآخر، وهذه ليسـت الحالة مع الأذُن، فهي عضو مُسْـتقبِلٌ فقط.

اللمـس متبـادل في ظلّ الظـروف العاديـة. إذا كان بإمكاني

(1) illusion of privacy

لمْسك والشعور بك، يمكنك عادةً أن تشعرَ بلمسَتي. إذا لم أستطِع لمسك، فمن المحتمل أنّك لا تستطيع الشعور بي. الفرق بين اللمس والبصَر هو أن المعاملة بالمثل يمكن تعطيلها بسهولة. هناك طرُقٌ لتعطيل المعاملة بالمثل عند اللّمس المتبادل. أستطيع لمْسَك والشعور بك وأنت نائم، أو يُمكنّني إمساكَ خصلةً من شَعْرك دون أن تدرك ذلك. يُمكِنك تلقّي القليل من المخدّر على بشْرَتك ويصبح إحساسك خافتًا. أمّا في حالة البصَر، فما عليك إلا أن تُغلق عينيك. إغلاقُ العينين فعلٌ طبيعيّ لحظةً بلحظة، في حين أنّ إغلاق حاسّة اللمس ليس بهذه البساطة.

الآثار المترتبة من مبدأ المعاملة بالمِثْل في حالة البصَر تؤثّر بشكلٍ واسع النطاق على العلاقات بين المكفوفين والمبصرين.

لأنني لا أستطيع الرؤية، لا يمكن رؤيتي، يمكن تجاهلي، والتعامل معي وكأنّني غير موجود، والتحدّث عني بصيغة الغائب.

«هل ستعتني به؟ هل ستأخذ بيَدِه إلى المصعد؟ أين تريد أن تُجْلِسه؟ هل ستعود به إلى مكتبه؟»، عندما يكون في عجَلةٍ من أمرِه، يمكن للمرء أن يهرَع من أمام صديقٍ أعمى دون

التَحرُّج والاضطرار إلى تحيته. لا يراك لذلك لا يعلم. لذلك يمكنك التظاهر بأنك لا تستطيع رؤيته أيضًا.

في أحد الأيام، كنتُ وزميلي مايكل جريميت نُجري مقابلةً لإحدى الطالبات. أخبرني مايكل بعد ذلك أنها لم تنظر إلي ولو لمرّةٍ واحدةٍ خلال المقابلة بأكملها. كل أسئلتها، ابتساماتها، جسدها كله كان موجهًا نحو مايكل. حتى عندما كُنت أسألها مباشرة، كانت بالكاد تميل برأسها في اتجاهي.

تُراها لم تستطعْ تحمّل النّظر إلي؟ هل اِعتقدت أن مايكل سيعتقد أنها كانت غبيّة لو ابتسمت إليّ، ونظرت إليّ؛ لأن مايكل يعرف أنّني لا أستطيع رؤيتها؟ مهما كان السبب، النتيجة هي أنها لم تكن قادرة على رؤيتي؛ لأنني لستُ قادرًا على رؤيتها.

الشعور بأنّك أصبحت غيرَ مرئيٍّ مرتبط بفقدان صورة الجسد. تمامًا، كما فقَدَ المرءُ وجوه الآخرين، فلا يهم إذا فُقِدَ وجهه. في صباحات الشّتاء الباردة، أعاني من شعورٍ غريب، يكاد يكون غير إنسانيّ، أن بإمكاني التجوّل ليس فقط بالجزء السفليّ من وجهي مُكمّمًا ضد الريح، ولكن برأسي كلّه مكفّنًا. لن يكون هناك فرقٌ لو اختفى وجهي بالكامل. كوني غير مرئيٍّ للآخرين، فأنا غير مرئيٍّ بالنسبة لنفسي. هذا يعني أنّني أفتقِر إلى

معرفة ذاتي، أنّني فاقدٌ للوعي. هذا ما يشـير إليه النموذجُ البِدْئي مـن العمى، فقـدان الوعي، السّـقوط في النوم، الشـعور بالعدَم، التحوّل إلى لا شـيء. أن تكون مرئيًا، أن تكون موجودًا.

هـذا يعطي نظـرةً ثاقبةً عن شـوقِ المُحـبّ المُبصِر لأن يراه المحبـوبُ الأعمـى. إنه الشـوق المُتكوّن في نظـرَ المُحِب، إنها رغبتـه فـي الاسـتئناس. هذا بالتأكيـد ما يكمـن وراء الفكرةِ التي أعربـت عنهـا ابنتـي الكبـرى، البالغـة مـن العمـر عشـرة أعـوامٍ ونصـف، في ذلـك اليوم: «يا أبي، أتمنّى أن تراني.» هذه ليسـت مجـرّد رغبـة فـي رؤيتهـا تقـوم بأعمـالٍ بارعـةٍ، كما يحصـلُ مع الأطفال الأصغر سنًّا، إنها الرغبة في أن تكون في حضرةِ شخصٍ مـا (بصفته أحد الوالدين) يمنحك وجودًا، ولكنه الآن أعمى.

١١ فبراير

في ذلك اليوم، كنت أنا وتوماس نستمع إلى قصة رابونزيل[١] على شـريط كاسيت. عندمـا وصلنا إلـى الجزء الذي يسـقط فيه الأمير الشاب من البُرج، ويخدش عينيه بالأشواك ويصبح أعمى، قاطع توماس واستدار إليّ وصرخ: «لماذا كان أعمى؟».

---

(١) رابونزيل Rapunzel هي قصة خيالية ألمانية للأطفال، سجلها الأخوان جريم ونُشرت لأول مرة في عام ١٨١٢م.

أجبته: «لأن الأشواك أذَت عينيه».

«لماذا أذَت الأشواك عينيه؟».

«حصلَ ذلك عندما سقط من البرج. سقط على شجيرة من الأشواك».

صمتَ قليلًا محاولًا استيعاب الأمر. قررت أخذَ زمام المبادرة.

«ما هو العمى، توماس؟».

صمَتَ للحظاتٍ ثم أجابَ بتمعّن: «لا أعرف».

كان هناك رسْمٌ توضيحي في الكتاب، يُظهِرُ الأمير الشّاب وهو يتجوّل في الغابةِ بعصا بيضاء أو عصا من نوع ما. سأل توماس عن الرّسم: «هل الأمير أعمى؟».

أجبته: «نعم».

أضاف توماس «إنه يحمل عصا».

سألته: «هل هي عصا بيضاء؟».

«لا.»

فسألت: «لماذا يحمل عصا؟».

مـرة أخرى صمت للحظات، وقال: «لا أعرف».

لا يعـرف تومـاس مـا تعنيه كلمـة «أعمى»، علـى الرّغم من إدراكه أن الأمر يتعلّق بعيني المرء. إنّه يعلم أن هذا ليس طبيعيًا، وأنه في الواقع نتيجة لحادثةٍ ما، هو يعلم أن العمى مرتبطٌ بحَمْل العصا، على الرغم من أنه لا يعرف تمامًا الارتباط. لم يُشِـر إلى العمـى الذي أعانيـه، ولا إلـى المحادثةِ التي أجريناها الأسـبوع الماضي والتي أفزعته، عندما سمع مارلين وهي تقول إن زوجها أعمـى. هل مـن الممكن أن يكون رفضـي الأحمق للإجابة على سـؤاله المباشـر حـول ما إذا كنـتُ فعلاً أعمى قد شـوّش أفكاره الآن؟ ربمـا أنّـه الآن غير متأكّد تمامًا ما إذا كنت أعمى أم لا. مع ذلـك، فهـو يـدرك أن كلمـة: «أعمـى» هـي كلمـة بالغـة الأهميّة بالنسبة لنا جميعًا.

٢٤ فبراير

أشـعر أحيانًا بالاكتئاب، وهذا يكون أكثر سوءاً عندما أشعر بالإحباط من اللعب مع الأطفال. أشـعر كما لو أنني أصبحت لا شيء، غير قادرٍ على التصرّف كأب، عاجز، غير قادرٍ على معاينةِ المكان، على الدّهشـة، على التميز أو التفريق وممارسـة سـلطة الأب. لدي شـعور غريب بأنني ميّت.

استجابتي هي الانكفاء إلى الداخل أكثر وأكثر، صوب مواتٍ أعمق. أغرق في الهدوء والسّلبيّة. أجلس بلا حراكٍ على كرسيٍّ بمفردي، أتنفّس ببطءٍ شديدٍ، أغلي على نارٍ هادئة، وتتضاءل الأشياء من حولي. أحاول أن لا أفكّر في أي شيء، وغالبًا ما أغفو ويأخذني النّوم. أغطّي نفسي ببطانيّة، أمنَع أيّ أصواتٍ خافتة، وأُفرِغُ نفسي تمامًا، أصبح الصّفر الذي يخبِرُني عنه العمى. في هذه الحالة، يمكنني الاستمرار لساعات.

هذه التِكْنيك لمحاربة الاكتئاب فعّال إلى حدٍّ ما. إنّه يوفر ملاذًا معينًا، يوفّر نوعًا من العزاء، مكانًا لأذهب إليه. أجِدُ هذا بالتأكيد، إذا دفعتني لعبةٌ مبهجةٌ للأطفال إلى إحدى هذه الحالات الكئيبة، وإذا كنت غير قادرٍ على الذّهاب إلى ملجأ اللاشيء الخاصّ بي، ربّما لأنّني مسؤولٌ عن الأطفال وعليَّ أن أبقى يقظًا، أو بسبب بعض الالتزامات الاجتماعية تجاه الزوّار أو الأصدقاء، عندها يبدو أنني أنسحِبُ بالتدريج. يتراكم في داخلي توتّر داخليّ، ويعتريني شعورٌ بالضّيق، شعورٌ بأنني لن أتمكّن من الاستمرار لفترة أطوَل. تكبُرُ صورةُ السرّير الصّغير الهادئ في ركن غرفتي وتسيطر على ذهني، وأشعر أن متطلبات العالم الخارجي والتي تمنعني من الانسحاب، تصبح أقلّ قبولًا. يأتي كلّ صوتٍ، كما لو كان، قادمًا من مسافةٍ بعيدة،

أُحْجِمُ عن سماعه أكثر. تصبحُ أصوات العالم الخارجي موجعة، وكأنها تمنعني من الحصول على استراحةٍ، عندها أجِدُ، في تلك المرحلة، أنّه من المستحيل البقاء مستيقظًا.

يجب أن أجِدَ طريقة أخرى لمعالجة هذه المشكلة. أنا بحاجةٍ إلى فهمها أكثر. لقد قيل إن العمى هو أحد أعظم الرمزيّات أو النماذج البِدْئية. في فنٍّ وأساطير العديد من الشعوب، يرتبط العمى بالجهل والارتباك واللاوعي. ربما تأثر خيالي بقوة هذه الرمزيّات. ربما نشّط العمى الذي أعانيه النموذج البِدْئي للعمى بداخلي.

قد يكون هذا هو السبب الذي يجعلني أشعر في حالة الاكتئاب هذه وكأنّني على حدودِ الحياةِ الواعية، ليس فقط بالمعنى الحرفي للغَفْوة أو الانزلاق في النوم، ولكن بمعنى أعمق وأكثر إثارة للفزع. أشعر كما لو أنني أريد التوقّف عن التفكير، التوقّف عن التجربة. كما أن الافتقار إلى صورة الجسد يزيد الأمر سوءًا: حقيقة أنه لا يمكن للمرء أن ينظرَ إلى الأسفل ويرى الاستمرارية المُطَمْئنة لوعيِهِ في ملامح جسَده، أن يخطو بقدمه إلى الأمام، فتلوّح له (إذا جاز التعبير) قائلةً: «نعم، أنا أسمعك. أنا هنا». لا يوجد امتداد للدراية والمشاعر في المكان.

لذا فأنا لست سوى وعيّ خالص، وإذا كان الأمر كذلك، فقد أكون في أي مكانٍ، قد لا يخلو مكان منّي؛ لم يعد يهمّ أين أنا. أشعر بالانحلال، لم أعُد مركّزًا في مكانٍ معيّن، والذي من شأنه أن يرمز إلى كينونة الجسد.

يمثّل النموذج البِدْئي للعمى القدرة على طمْسِ الفجوةِ بين ما هو معروف وما هو غير معروف، ما هو قريب وما هو بعيد، ما في الداخلِ والخارج، الخاص والعام. إنه يمثّل الانحلال، أرضُ التخوم بين الوجود والعدم.

التكنيكات التي وصفتها لمحاربة الذّعر والاكتئاب لم تنجح إلا جزئيًا. في حالة تكنيك الانسحاب، فهو يشبه تأثير الخوف. لهذا السبب لا يمكن أن تكون استجابةً فاعلةً وحتميّةً، على الرغم من أنها قد تكون كذلك على المدى القصير فقط. أما بالنسبة لكوْن العمى نموذجًا بدئيًا، فماذا أفعل حيال ذلك؟ أحتاج إلى إيجاد ترياق. هل يمكن أن يكون هناك نموذج بِدئي مقاوم ومناهض؟ هل يمكن أن تكون هناك فكرة ضوء؟ الضوء بِالتأكيد أحد الرمزيّات السرمديّة. يمنح الضوء التفاصيل، ويمحو الغُمّة، ويسمح بالتفريق والتمييز، ويزيل الغموض، ويعطي مكانًا وسياقًا معينين.

٢٦ فبراير

سألني توماس عمّا إذا كان بإمكانه إضاءة الغرفة التي كنّا نلعب فيها. لم يخطُر ببالي أنّ الظلام قد حلّ. علّل لي قائلًا: «توماس بحاجة إلى الضوء. أبي لا يحتاج الضوء».

فكّرت في مقطعٍ من سِفر المزامير[1](١٣٩، ١٢): «الظلمة والنور متشابهان بالنسبة لك». هناك شعور غريب بأنني أصبحت إلهاً. ربما أنني لم أكتشف النموذج البدئي المقابل بقدر ما اكتشفت النموذج البديل، والذي يتجاوز ويتوحّد إلى مستوى أعلى.

٢٧ فبراير

غالبًا ما أتفاجأ من أن أصدقائي المُبصرين يعرفون شيئًا ما، لا يزال بعيدًا وغير واضحٍ. على الأعمى تذكّرُ أن المبصرين يعرفون، كما لو كانوا يتحسّسون الوجوه طوال الوقت. يكتسب المبصرون معرفةَ ما يفكّر فيه المكفوفون من خلال النّظر إلى وجوهِهم فقط. كثيرًا ما ينادي المبصرون، ويقولون لي إنّ هناك سيارة متوقّفة على الرصيف. كثيرًا ما يخبرني الأصدقاء أنّهم

---

(١) سفر المزامير Psalm هو أحد أسفار التناخ اليهودي والعهد القديم من الكتاب المقدس المسيحي.

رأوني (من سياراتهم) أعبُرُ الطريق. لقد زمّروا لي، لكن لم يكن هناك طريقة لمعرفة ذلك قبل عبوري وتحرّك سياراتهم. فوجئت ذلك اليوم بمعرفةِ أطفالي أنني كنت على مقربةٍ منهم، ما أتاح الوقتُ لهم لإعداد شيءٍ ما لي.

من بعض النواحي، تشبهُ معرفة الله بالعالم المعرفة التي يملكها المبصرون عن المكفوفين، ولكنها تذهب إلى أبعد من ذلك أيضًا. «افتح عينيك!» قالتها صديقة مُبصرة لزوجها. «لا يمكنني معرفة ما تفكّر فيه عندما تجلس هناك وعيناك مغمضتان.» عيون المكفوفين لا يُدرَك كنهُها. صحيح أن المبصرين يستطيعون التقاط المشاعر العابرة على وجه المكفوفين، لكن في كثيرٍ من الأحيان أجِدُ أصدقائي يحسبون أنني نائم، في حين أنني في الحقيقةِ كنتُ مستغرقًا في التفكير ومهتمًا بهم عن كثَب. يجبُ أن أتحدّث لإشعارهم وتعريفهم بما يدور في داخلي. يصبح الكلام مهمًا للمكفوفين. لكن الله لا يعتمد على كلامي في معرفتي، حتّى وأنا أعمى. في هذا الموْضِع ندرك أننا في حضرةِ شيءٍ يتجاوز التمييز بين العمى والبصر والتفريق بين الظلام والنور.

بكونك شخصًا مبصرًا، تحدث عملية الإقرار والتعبير من قبل أصدقائك بابتسامةٍ أو إيماءةٍ أو غمزةٍ أو حتى بمجرّد تبادل

نظـراتٍ عابـرة. لكـي يحـدث ذات التعبيـر والإقرار لي مـن قِبَل أصدقائي، يجب التحدّث إليّ أو لَمْسي. أجد أنّني اكتسبت عادةً صغيرة، وأنا متأكد أنّ ذلك حدَث بسـببِ العمى، وهي مصافحة النّاس باسـتخدام كلتا يدي. أشـعر بطريقةٍ ما بالحاجة إلى تأكيد اعترافـي وإقـراري بوجودهـم والـذي يعوّض عـدم قدرتي على تلقّـي ابتسـاماتهم. عندمـا أتحـدّث فـي أحَـدِ الاجتماعـات، من المهـم أن ألتـفّ وأصافـح أكبر عـددٍ ممكن من الأشـخاص قبل ذلـك، من المهم أن أتواصل معهم بالمعنى الحرفيّ.

* * *

أسـقطتُ ملعقةً صغيرةً على الأرض. أنزلْـتُ طفلتي البالغة من العمر اثني عشـر شـهرًا، ممسـكًا بها من الخاصـرة. انتظَرْت للحظة، حرّكتها إلى الأمام والخلف ببطءٍ وعنايةٍ وكأنّها مكنسـة كهربائيّـة. ثمّ رفعتها مرةً أخرى. الملعقةُ في يدِها. دُهِشـت، لقد التقطتهـا، بسلاسـةٍ وسـهولةٍ، دون الحاجـة إلى كشْـط السـجّادة بيدهـا. ذهبَـت مباشـرةً إلى الملعقـة. كيف عرَفَت؟ هـذه الطفلة لديهـا حاسّـة غريبـة تجعلنـي أتذكّرها دوْمًـا. تملؤنـي معرفة الله بدهشـة أكبر. «عجيبةٌ هذه المعرفة، فوقي ارتفعت، ولا أسـتطيع بلوغهـا» (سِـفر المزاميـر ١٣٩:٦). مـاذا تعنـي كلمـة: «مرتفع»

للشّـخص الأعمـى؟ مـا ارتفـاع المباني؟ مـا ارتفاع الغيـوم؟ أنا أعرف فقط أنّ الأشـياء موجودة هناك؛ وأنها بعيدة المنال.

لا مفـرّ مـن المعرفـة الإلهية. إنها تحيـط بي. إنّهـا تملؤني. تجعل كل الأماكن على حدٍّ سـواء؛ لأنّ كل الأماكن معروفة لله. «أيـن أذهب من روحك؟ أيـن أهرب من حضرتك؟» (الآية ٧). لا توجـد درجـات لحَضْرة الإله ولا توجد درجـات من المعرفة الإلهية. «إن صعدت إلى السّماوات فأنتَ هناك، وإن فرشت في شـيول[1] فهـا أَنـت.» (الآيـة ٨). الله رب العالمين. عالـم الجنّة والنّور له. عالم الجحيم والظّلام والأغوار هو أيضًا له. لا يخفى عليه مكانُ وجودي، ولا في أي عالمٍ أجِدُ نفسي، ليس محصورًا فـي عالم النّور السّـماوي، ولا يهزمه عالـم الليل الذي لا يمكن اختراقه.

أتخيّـل الآن أنّني أطيـر. أتخيّل أنّني حُرٌّ، مرّةً أخرى، أذهبُ حيـث أشـاء، وأشـعر أن الصّبـاح والمحيـط سيُتاحان لـي مـرّةً أخـرى. «إذا أخـذتَ أجنحةَ الصّباح وسـكنت فـي أقصى أجزاء البّحـر ...» (الآية ٩). قـد أعيشُ تحت البحار، في عالم الأغوار اللاواعيـة. حتّـى هناك، فإن ربّ تلك العوالم سـيجعلني أتعرّف

(١) شيول Sheol، تعرف في العربية بالهاوية أو الجحيم، وهو مكانٌ مظلم يذهب إليه الموتى.

عليه بالطريقةِ التي تلائم حالتي. لن يُظْهِر لي ذاته. لن يَظْهر لي. لـن يقـدّم لي رؤيا ولن يستحيل في هالةٍ. سيتذكّر عماي. «... فهناكَ أيضا تهديني يدكَ وتمسِكُني يمينكَ» (الآية ١٠).

أنـا علـى يقيـن مـن أن كاتـبَ سِـفْر المزامير كان أعمى. لا يمكن لأحَدٍ آخر أن يصِفَ التجربة الدينيّة للأعمى بهذه العظَمة، أو يعبّر عن وقوف شخصٍ أعمى أمام الله بهذا الكمال.

* * *

يمثّـل التّقـارب الجسَـدي بيـن شـخصين يمارسـان الحـبّ مشـكلةً بالنسبة لصانع الأفلام الإباحية، لأنّ نقطة التّماس الأكثر حميمية يصبـح النظـر فيهـا غيـر ذي أهميّـة، ويجـب فيهـا على المصـوّر الإباحـي الحفـاظ على مسـافةٍ معيّنة من أجـل الحفاظ علـى الإثارة البصرية. إنه لمن دواعي السّـرور أن يعتقد الأعمى أنّه لا يزال هناك شيءٌ واحدٌ يمكنه القيام به، وكثيرًا ما يقال أنك لسـت بحاجـةٍ إلـى الـكلام ولا إلـى البصر للقيـام بذلـك. مهما كانت المعرفة المشـتركة التي يتبادلها العشِـاق مثيرةً وعميقة، لا أحـدَ يمكنـه الحديث عن تجربةِ اللحظة التي يقترن فيها الحيوان المنـوي بالبويضة وتولد حياةٌ جديدة. لقد خلقتُ سِـرًّا وما زلت أتخلّق في أسـرار العمى، لكن كل الأسـرار مكشـوفة لله. لم أعُد أعرف تعاقبَ الأيام بتناوبِ النّهار والليل، النور والظلام، وبهذا

المعنـى، فـإن معرفتي بأيامي هي إلى حدٍّ ما كمعرفة الله. الشّـيء المهـم فـي الاسـتيقاظ ليـس الصّبـاح وإنمـا الحضـور. أسـتعيدُ باليَقَظـة حضـورَ مـن أحـبّ. لذلك علـى الرغم من أننـي أُجرّبُ مفارقـاتَ إعادة اكتشـاف البصر فـي الحيـاة اللّاواعية للأحلام، وفقـدانَ البصَـر مـرةً أخـرى فـي كل مرة أسـتيقظ فيهـا، إلا أنني أتجـاوز هـذه المفارقـات بالتواصـل مـع الواحدِ الـذي يعرفني، سـواء كنت نائمًا أو مستيقظًا؛ لأنني لازلت وسأظلّ معه.

٢٨ فبراير

كوني شـخصًا أعمى، جلست على الشـاطئ وسكبتُ حفنةً مـن الرمـل علـى راحـةِ يـدي، مـا سـمح لهـا بالتسـرّب مـن بين أصابعـي. فركتُ حبّات الرمل بين إصبعي وإبهامي، تعجبّت من تركيبها المُختلف. بعض الحبيبات خشنة وحادة، تتخذّ حيّزًا من راحتـي وتبـرُز ككتلةٍ لوحدها. بعضها ناعـمٌ وحريريّ لدرجة أنّه يـكاد من المسـتحيل معرفة الحبيبات التـي تختفي كما الماء. لو مـددتُ يـدي مرةً أخرى، فلا يزال بإمكاني الإمسـاك بالمزيد من الرّمـل، ولـو مددتهـا أبعـد سـأقبض على المزيـد وهكـذا، أبعد وأبعـد. أعلـم أنّني لـو كنـتُ مبصِـرًا سـأتمكّن من تمشـيط هذا الشاطئ لأميالٍ حول الخليج. هذا الشاطئ ليس سوى واحدٍ من

آلاف الشـواطئ المماثلـة، وربمـا هنـاك العديد من البشَـر مثلي الآن، يفعلـون مـا أفعلـه، يمسـكون بحبّاتِ الرمل بيـن أصابعهم ويتسـاءلون. كذلك هي الأفكار الإلهية؛ يحملها جسـدي واحدةً تلـو الأخرى، بينما تحملني يدُ الله وكأنني حبة رمْل.

أرحّب بالمعرفةِ الإلهية وأمجّدها. ما يُهِمّ ليس أنني أعمى، وإنّمـا أنّني أعرف ذاتي وتقودني يداي، وأنّ حياتي، سـواء كنت مبصِرًا أو أعمى، مُفعمة بالتّسـبيح.

٢ مارس

حلمـت ليلـة البارحـة حُلْمًا مُروّعًـا ومثيرًا. كنـتُ على متن سـفينةٍ ضخمـة، لم تكـن عليها أي امرأةٍ. كلّ مـن هنالك رجال. بدَت الرحلة وكأنها حملةٌ بحريّة استكشافيّة. ظلّت أمواج البحر الهائجـة والعملاقة تتكسّـر على هيكل السـفينة. مـا أن رأينا أوّل هـذه الأمواج قادمة نحونا، حتّى ركضَ الجميع بحثًا مأوى. كان لدينا متّسعٌ من الوقت للفرار هرَبا إلى إحدى القواطع، والرّكض حتّـى نهايتـه، ثم صعود السـلالم المعدنيّة. صعدنـا وصعدنا إلى أعلـى التجويـف. تكسّـرت الموجـة علـى طول جلال السـفينة، علـى الكبائن والحواجـز، وغمرت كامل الجـزء الداخلي حيث كنّا، تطايرت إلى الأعلى، لكنّها لم تلمسـنا تمامًا. تجمّع الجميع

فـي الجزء العلوي من السـفينة، في تلك القاعـة الرّحبة الفاخرة. كانـت تلك أوّل موجة من بين الكثير غيرها. أتذكّر واحدةً، على وجـه الخصـوص، رأيتها قادمـة. كانت جدارًا جبليًّـا متوعّدًا من الميـاه الخضـراء الداكنـة. ظلّت الأمواج تتكسّـرُ مـرارًا وتكرارًا فـوق السـفينة، حتـى أصبـح المكان كلّـه مسـاويًا للمـاء. تمكّن بعضنا من الفرار، بينما جرَف البحر البقيّة. هنا استحالت السفينة غواصـة، وهبطنـا تحت الماء. كنّا في مهمّـةٍ ما. كان ثلاثة رجال أقوياء مسـؤولين عن المهمة، وهم القبْطان وضابطان يساعدانه. غُصْنا بالمركبة إلى الأسـفل. هنا أصبح لدي منظر خارجي لهذه الغواصـة. كانـت حديثـةً جدًّا كمـا المركبات الفضائيـة. لم تكن كبيـرة، وكان علـى سـطحها مصابيـح ومعـدّات أخـرى. ظلّـت تغوص إلى الأسفل بتمهّلٍ حتّى حطّت على سطحِ سفينةٍ أخرى، بعيـدًا تحـت الماء، بـدا وأن هناك مهمّة ما يجـب إنجازها. عُدْنا بعـد ذلـك إلى داخل السـفينة الكبيـرة من جديد، حيـث بدا وأن كارثـةً مـا قد حدثـت، ثمّة عقـابٌ وقَعَ على أفـراد الطّاقم. رأيت زميلـي، مايكل، ملفوفًـا داخل بطانيّةٍ أو كفـنٍ، ومعلّقًا بحبْلٍ من نافـذة الكابينة. كان ذلك بمثابة عقاب، أو إشـارة ما. عندما أنزِل مـن النافـذة، سـمعت رنيـن الجرَس. رأيـت آخرين مـن زملائي يُعاقبـون بـذات الطريقة، ولـم أكُن أعرف لمـاذا يحدث كل هذا.

شعرت بالضّيق والكرب الشّديد. كنت متخوّفًا من أن نخْذلَ أنا وزملائي بطريقةٍ أو بأخرى الحملة، ونسبّب الخزيَ والعار للجميع. اتضّحَ بعد ذلك أن عقابنا المروّع والذي يتعذّر على الفهم قد وقع على أيدي أولئك الرجال المهيبين، على أيدي القباطنة. لقد كان حلمًا حيًّا ومقنعًا ومثيرًا للغاية.

فوقٌ وتحت العمى... هل ثمّة لقاء مع شيءٍ ما في الأسفل؟ يا لها من خسارة! يا له من فشلٍ لا يمكن مقاومته! وكم يتعذّر فهمه.

٥ مارس

التقيت أنا ومارلين برجلٍ (سأدعوه السيد كريسويل) في العديد من المناسبات في إحدى كنائس وسط مدينة برمنغهام. في أحد أيّامِ الأحد، اقترب السيد كريسويل منّي بعد الخدمة الصباحيّة، وصافحَني بحرارة، وأخبرني أن الله أخبره أنّه كان ينوي شفائي من العمى. كان على السيد كريسويل أن ينتظر إشارةً من الربّ بأن الوقتَ قد حان، وبمجرد أن يعطيه الربُّ الكلمة سيصحبها معه لرؤيتي. هنّأته على تلقّي هذه الرسالة، مضيفًا أنّه بمجرد أن يعطيه الربّ الكلمة فلن يضيع أي وقتٍ سوى الخروج لرؤيتي على الفوْر.

اتّصـل بالمنـزل عـدّة مرّاتٍ خـلال الأسـابيع التاليـة لكنّني كنـت فـي الخارج، ثم اتّصـل مرّةً وتمّ تحديد موعدٍ عند السـاعة الخامسـة يـوم الجمعـة ٢ مارس. عندما وصلت إلـى المنزل من المكتب، كان السـيد كريسويل هناك بالفِعل يتحدّث مع مارلين. كان تومـاس وليـزي يلعبـان ويُحدِثـان جلبـةً إلى حدٍّ مـا، عندما أصبح من الواضح أنّنا على وشكِ البدء، عرضت مارلين مغادرةَ الغرفة واصطحاب الطفلين معها. مع ذلك، كان السيد كريسويل قلقًـا وحبّذَ بقاءها معنا، لذلك بقينا جميعًا.

بدأ السيد كريسـويل بإخباري أنني تعرّضت للسقوط عندما كنت صغيرًا. لم ينكر صحّةَ ما قاله الأطباء عن انفصال الشبكية، وفقًـا لفحوصاتهـم، لكن الطريقـةَ الأخرى للنظر إلـى الأمر هي أننـي تعرضت لسـقوطٍ ما تسـبّب في فقدان بصـري. أعربت عن اهتمامي في رأيِه بطريقةٍ غير مُلْزمةٍ إلى حدٍّ ما، وانتقلنا للحديث عـن عـدداً مـن المواضيـع الفرعيّـة الأخـرى. أخبرنـي السـيد كريسـويل قليلاً عن عملـه، وادِعائه أنّه معالجٌ، واتّسـاع كهنوته. أكّـد أن لديه معرفة خاصّة، وضرب مثـالًا على ذلك؛ بأنّه يعرف أنّ لدينـا صديقة مريضـة تعمل كمعلّمة. تحدّثت أنا ومارلين عن ذلك باختصار، وأن لدينا العشـرات مـن الصديقات المعلمات، ولكن على حدِّ علمنا، لم يكن أي منهن مريضةً في ذلك الوقت.

لم يتابع السيد كريسويل هذا الخطّ من التحقيق، لكنّه أخبرنا أننا نفتقد شخصًا ما بشكل كبير، وأننا نفتقد منزلنا. سأل عن المنزل الذي نفتقده. قلنا له أنّ هذا منزلنا ولا نفتقد أيّ مكانٍ آخر. «ألا تشعر بحنينٍ إلى والديك، إلى بيتِ والديك؟» كرّرنا بأن هذا كان منزلنا، وأن أحبَبنا بعضنا البعض كثيرًا ونشعرُ بالسّعادة سويّةً، وعلى الرغم من أننا أحبَبْنا والدينا، إلا أنّنا لم نفتقد منزلَهما. ثم طرح السيد كريسويل فكرةَ أن وطننا الحقيقي هو الجنة، وهذا هو المكان الذي يجب أن نفتقده.

بعد أن كانت هذه المحاولات الصغيرة للفراسة والاستبصار غير حاسمةٍ إلى حدٍّ ما، طرح زائرنا تفسيرًا آخر لفقداني البصر. أخبرني أنني توقّفت عن قراءةِ الكتاب المقدّس. أكدّت له أنّني لم أتوقّف عن قراءة الكتاب المقدّس، لكنّه أصرّ بأنني لم أكُن أقرؤه كما اعتدت أن أفعل. أخبرته أنّني كنت أقرأ الكتابَ المقدّس لمدّة نصف ساعة فقط في اليوم، وبطريقة برايل، بينما في الماضي كنتُ أقرأ الكتاب المقدّس لمدّة تطول عن ذلك أحيانًا أو تقصُر. يبدو أن السيد كريسويل اعتقد أن هذا اعترافٌ واضحٌ بالذنب، وعلّق بأنه في اللحظة التي نتوقّف فيها عن قراءة الكتاب المقدس، فإن هذه الأشياء ترتدّ علينا. أشَرتُ إلى أن هناك العديد من المبصرين الذين توقفوا أو لم يقرؤوا الكتاب

المقدس قطّ. لم يفقدوا بصرَهم، لذا فإن الشيء الذي كان يصِفه من الصّعب أن يكون القاعدة العامة. أشار السّيد كريسويل إلى أن النّاس مختلفون، وربما مرةً أخرى لم أكن أنا المُذنب وإنما والدي أو حتّى أجدادي، ذلك أن الله يحاسب بخطاياهم الجيلَ الثّالث والرابع. سلك السيد كريسويل وجهة نظرٍ تنكيليّه بامتياز تجاه المرض والإعاقة.

بعد الانتهاء من هذه المُقدّمات، طلب السيد كريسويل الكتاب المقدس. عرضَت عليه مارلين كتابًا مقدسًا جديدًا باللغة الإنجليزية، لكنه لم يكن راضيًا عنه. مرّرنا له نسخةً معتمدة ومُجازة. جلس هناك لبعض الوقت مُتأمّلًا فيما يجب أن يقرأ. أعطى انطباعًا بأنه كان ينتظر تلقّي التعليمات لأنه تمْتمَ بهدوء: «سِفْر التّكوين؟ نعم؟ لا، ليس سِفْر التكوين. حسنًا. أعمال الرّسل[1]؟ نعم، سنأخُذُ الفصل الأول من سِفْر أعمال الرسل.»

نظرًا لأنني لم أتمكّن من قراءة النّسخة المطبوعة، طُلب من مارلين القراءة. محاولةً مني لإقناعِه بأنني لم أتوقف عن قراءة الكتاب المقدّس، قاطَعْتُ القراءة في منتصف الفصل تقريبًا

(١) سِفْر أعمال الرسل Acts of the Apostles هو أحد كتب العهد الجديد والذي يروي قصة الكنيسة المسيحية الناشئة.

واستشـهدت من ذاكرتي بالآياتِ السّـت أو الثمانـي التالية. كان السّـيد كريسـويل مسـرورًا بذلـك، ثـم أكملـت مارليـن الفصل. طلـب زائرنـا كوبًـا مـن المـاء البارد، ووقـف، وطلـب منّي خلع نظارتـي، وضـعَ إحـدى يدَيه علـى جبهتي وعينيّ، ورشّ رأسـي بالماء، وصلّى، أولاً صلاةً عامة، ثم صلاة الشّفاء وصلاة الربّ، ثـم قـرأ المزمـور الثالث والعشـرين من سـفر المزاميـر. قام بعد ذلك بمسـحِ عينيّ بالماء، فوق وتحت كل جفنٍ، وطلب مني أن أشَـمّر كُمَّ قميصي الأيمن. تفاجأ عندما اكتشف أن ذراعي كانت مُضمّدة. سألني بنَبْرةٍ الدهشة والغضب عن سبب ذلك. شرحت لـه أنّنـي كنت أعاني من الأكزيما وطلب منّي إزالة الضّمادة على الفوْر وعدم ارتدائها مرّةً أخرى. لم أكُن متأكدًا ما إذا كانت تلك أوامِـرٌ أم نبـوءةٌ مـن نـوعٍ مـا، ولكـن الأكيـد أنّـه كان مسـتاءً من الضمادة، ربّما لأنّني لم أخبره عنها من قبل، أو ربّما لأن معرفته الخاصة لم تكشِـف له عنها. أيًا كان السّبب، فقد أمسكَ بذراعي العلـوي وبـدأ بتمسـيدها مـن الأعلى إلى الأسـفل حتّـى أطراف أصابعي، مسّدَ كلّ إصبعٍ على حِدَة واحدًا تلوَ الآخر. تكرّر ذلك على ذراعي اليسرى ثم رأسي، لكنّني لا أتذكّر تمامًا ما إذا كانت الحركـة علـى رأسـي للأعلـى أم للأسـفل. بعـد أن نُزِعـت عني التأثيـرات الشـريرة، قيـل لـي أن أتنـاول زيـتَ كبـد سـمك القد

الممزوج بكميّة مماثلةٍ من العسل. لم يذكر لي؛ ما إذا كان عليّ تكرار الجرعة أو عدد المرّات، ولم أستفسر.

تكرّرت هذه الطقوس بأكملها مرةً أخرى على مارلين التي أُمِرَت بعد ذلك بشرب القليل من الماء المتبقّي وبنبرةٍ شديدةً أُمِرَت بإنهاء الباقي. كانت تلك هي النهاية، غادرت مارلين الغرفة وأخذت الطفلين إلى الحمام. بقي السيد كريسويل لبعض الوقت، وأجرينا محادثةً وديّة للغاية حول عمله. شكَرْته على قدومه وشكرته على صلاته وقراءته. أخبرني أن الربَّ أراد أن يبتليني بهذا الألم، لكن من المحتمل الآن أنه سيرفعه عني. كان حذرًا، وشدّدَ على احتمالية الشّفاء. تبادلنا التحايا والعناق الحار، وتواعدنا على تجديد اللقاء والمزيد من جلسات العلاج إذا أمره الرب بذلك، ثم رحل السيد كريسويل.

٤

الزمان والمكان والحب

ربيع ١٩٨٤

٣١ مارس

كنّا نستمع مرةً أخرى إلى شريط كاسيت قصة رابونزيل. عندما وصلنا إلى الجزء الذي تُلقي فيه السّاحرةُ بالأمير من نافذةِ البرج على الأشواك ما تسبّب في فقدان بصره، تجوّل الأمير بعد ذلك في الغابةِ بعصاه باحثًا عن رابونزيل، سأل توماس: «لماذا كان أعمى؟».

قلت: «لأن عينَيه كانتا ضعيفتين»، مضيفًا: «عيناي ضعيفتان».

سألني بنبرةٍ جادة واستقصائية: «هل أنت أعمى؟».

أجبته: «نعم أنا كذلك».

استدار نحوي، وشعرت أنّه كان يفحصني عن كثَبٍ: «عيناك مغمضتان».

أدركـت أن ذلـك كان صحيحًـا. فـي بعـض الأحيـان تدمَع عيناي وأشـعر بحكّةٍ شـديدة، أميل حينها لإبقائها مغلقة. فتحت عينَـيّ باتّسـاعٍ، وقلـت: «نعم، ولكـن حتى عندما أفتـح عينيّ، لا أزال غيـر قادرٍ على الرؤية، لأن عينيَّ ضعيفتان».

سأل: «ألا يمكنك رؤية الصّور؟».

«لا».

«لكن يُمكنني رؤية الصور».

قلت: «عيناك ليستا ضعيفتين».

وضعـت يـدي برفـقٍ علـى عينيـه، وأبقَيْـتُ جفنيـه مغلقيـن بإحـكامٍ. قلت: «الآن هل يمكنك أن ترى؟».

«لا».

أبعدتُّ يدي. «الآن؟».

«نعم، أستطيع أن أرى الآن».

قلـتُ: «عيناك ليسـتا ضعيفتين». كرّرت ذلـك بضع مراتٍ، وبدا أنّه كان يسـتمتع بالأمر، وقَبِلَ بهِ بهدوءٍ مدروس. كرّر مرارًا وتكرارًا: «نعم عيناي ليسـتا ضعيفتان. نعم. أستطيعُ أن أرى».

واصلنـا الاسـتماع إلى قصّـة رابونزيـل، لكن بعـد لحظاتٍ قاطعَ مرّةً أخرى، وسـأل فجأة: «متى أُصِبت بالعمى؟».

قلـت: «حدثَ ذلك قبل أيامٍ قليلة من ولادتك».

«ما الذي جعل عينيك تضعفان؟».

«كانتا مريضتين»، قلت: «ولم يسـتطع الأطباء علاج ذلك».

واصلنا القصة.

كان ذلك نقاشًـا جادًا وهامًا للغايّة. لأول مرة، يربط ضعف عينَـيّ، والعمـى، وعـدم القدرةِ علـى الرؤية، وعـدم القدرة على رؤيـةِ الصـور. أدركَ الآن أن ذلـك يشـكّل فرقًا بينـي وبينه، وأنّه جزءٌ من تاريخ حياتي الشخصيّة.

تعتبـر قصّـة رابونزيـل مهمّـة جـدًا فـي اسـتيعاب الأطفال لمعنـى العمـى. أتذكّر أنّني كنتُ في ويلز فـي عطلةٍ صيفية عام ١٩٨١. سـألتني إيموجيـن، التـي كانـت تبلغ من العمـر ثماني سـنواتٍ حينها: «أبي، إذا بكيت وسقطت الدموعُ على عينيك، هـل سـتتمكّن مـن الرؤيـةِ مـرةً أخـرى؟». أنـا متأكـدٌ مـن أنّها التقطـت هـذه الفكـرة مـن رابونزيـل، فهذه هـي الطريقـة التي تنتهـي بها القصة.

١٧ أبريل

أخبرني مايكل أنّه يعتقد أن إحساسي للوقت قد تغيّر منذ أن فقدت بصري. يعتقدُ أنّني من بين جميع الأشخاص في الكلّية، الذي يبدو وكأنّ لديه متّسعاً من الوقت. الجميع في عجَلةٍ من أمرهم، يدورون حول أنفسِهم، ويحاولون حشْرَ كل دقيقة بالمهام، وعَصْرَ آخر قطرةٍ من الزمن. أنا وحدي الذي يبدو وأن لديْهِ كل الوقتِ في العالم.

لاحظ مايكل أنني لا أختصر في عملي؛ وإنّما أفعل ما يتوجّبُ القيام به، وأستمَرّ في ذلك حتى أنتهي. لا يهمّ كم من الوقتِ أستغرِق. بينما يتعيّن عليه الاختصار دائمًا في عمَلِه. يقترح مايكل أن موقفي من الزمن وهذا التعامل المختلف للوقت، قد يرجع جزئيًا لحقيقةِ أنني لست تحت أي ضغوطٍ من حياةٍ أخرى. لست مضطرًا لمغادرة المكتب الساعة ٥ مساءً من أجل اللحاق بالمرآب، حتى أتمكّن من إعادةِ السيارة إلى المنزل، حتى تتمكّن زوجتي من استخدامها الليلة. لست مضطرًا للوصول إلى السوبر ماركت قبل إغلاقه. ثمّة شعور بأن الآخرين لا يعتمدون على وقتي.

يتساءل مايكل أيضًا، ما إذا كانت حقيقة أنني لا أستطيع

رؤيةَ التغيير في اليوم مع اقتراب المساء، أحد العوامل لإحساسي المختلف. أضغط ساعتي، فتقول إن الوقت هو ٥:٤٥ مساءً. هذا مقياس مجرّدٌ للوقت. بل في الواقع، صوت اصطناعي يتحدث. أنا لا أتصور صعود ونزول الشمس.

أعتقد أن هناك الكثير من الحقيقة في كل هذا. يمكن للأشخاص المبصرين ثَنْيَ الوقت. بالنسبة لهم، الوقت بطيءٌ أحيانًا، وسريعٌ في أحيانٍ أخرى. يمكنهم تعويض الكسَل بالاستعجال وتسريع الإنجاز في وقتٍ لاحق. يمكنهم تجميع الأشياء بسرعة في بضع دقائق. الأمرُ يشبه إلى حدٍّ ما التغيير في إحساسك بالوقت بعد شرائك سيارة. الرحلات التي كانت تستغرق ساعتين في السابق تستغرق الآن عشرين دقيقة. شيءٌ يبعث على الدهشة والاستغراب؛ مقدار ما يمكنك ضغطه من الوقت. بهذه الطريقة، أنت تُسرّع الوقتَ حسب رغبتك؛ لهذا يقاتل المبصرون من أجل الوقت.

بالنسبة لي، كشخصٍ أعمى، الوقتُ هو ببساطة وسيلة لممارسة أنشطتي. هو السياقُ الحَتمي الذي أقوم فيه بما يجب القيام به. على سبيل المثال، السببُ الذي يجعلني لا أبدو في عجلةٍ من أمري وأنا أتجوّل في المبنى ليس أن لدي القليل

لأعمله مقارنةً بزملائي، لكنني ببساطةٍ غير قادر على الإسراع. يستغرق الأمر ما يقرب من اثنتين وعشرين دقيقةٍ للذهاب من باب منزلي إلى مكتبي. لا يمكنني القيام بذلك في خمس عشرة دقيقة، ولو حاولت أن أصِلَ خلال ثلاثين دقيقة، فربّما أضيع، لأنّ معرفتي بالطريق تعتمد، إلى حدٍّ ما، على المشي بذات السّرعة. الخُطى المقدّرة، والتركيز الهادئ، والاستذكار المستمر للمسافةِ التي وصل إليه المرء بالضّبط، والمسافة التي لا يزال يتعيّن عليه قطْعها، التوقّف عند كل علامةٍ في المسار للتأكّد من الاتجاهات، كل هذا يجب أن يسير بذات الوتيرة المُنضبطة. سواء كانت تمطر أو كان يوماً مُشمسًا، عليّ أن أمضي في الطريق.

المسألةُ أيضًا مرتبطة بقدرة المرء على تسخير الوقت. عندما كنت مبصِرًا، كنت أعمل على عجَلٍ، كنتُ أُصحّح أربعين حاشيةً في صباحٍ واحد. الآن، أنا سعيد الآن إذا قمت، بمساعدة قارئٍ مبصِرٍ، بتصحيح الحاشية العاشرة عند نهاية الصباح. لا أقول في نفسي: «أوه اللعنة. لقد أنهيت عشرة فقط.» وإنّما أقول: «جيّد. أنهيت عشرة حواشٍ. ثلاثة أيامٍ أخرى وستنتهي المهمة». أنا سعيدٌ جدًّا لأنني استطعت القيام بذلك. البساطة، والتخطيط الدقيق، والإعدادُ طويل الأمد، والتروّي الذي يجب

أن يعيش بـه الشـخصُ الكفيـف، كل هـذا يعنـي أنـه لا يمكنـه استغلال الوقت بحصادِ الكثير منه فجأةً.

ربّمـا تؤدي كل الإعاقات الشـديدة إلى نقصـانٍ في المكان وزيـادة في الزمان. أفكّر في صديقي كريـس المصاب بالتصلّب اللويحي. بدون آلة التنقّل الخاصة به، لا يمكنه المشي لأكثر من عشـرين يـاردة. مـع الآلـة، التـي تسـافر بسـرعة أربعة أميـال في الساعة، يتّسع المكان له وتصبح المساحة رَحْبة. يمكنه أن يقطع مسـافة ثمانيـة أو اثني عشـر ميـلاً ويعود إلى المنـزل مرةً أخرى. ومع ذلك، تقلّص المكان نسـبيًا عمّا كان عليه عندما كان بصحةٍ جيدة. من ناحيةٍ أخرى، اتّسـع الوقت بشـكل غريب. يحتاج ٤٥ دقيقـة لربط حذائه في الصبـاح. لا يهُم. لا ينفدُ صبره، وينجِزُ ما عليـه إنجـازه. ذلك هو الوقت الذي يسـتغرقه لربط حذائه. أفكّر في صديقي كليف إنمان[١]، الذي كان يتعافى مؤخرًا من حادث سيرٍ خطير تسبّب في إصاباتٍ للعمود الفقري، كان مستلقياً على سـرير سـتُك مندويل[٢] في وحـدة العمود الفقري في مستشـفى

(1) Clive Inman

(٢) سـرير ارجرتُـن ستُك مندويـل Egerton-Stoke Mandeville Turning Bed يسـتخدم لمرضـى الشـلل الرباعـي أو النصفـي، ويسـاعد المريـض فـي حركته (التقلب فـي السـرير) وكذلك في حركة الرأس ورفعها.

هيكسـهام. تضـاءل المكان بالنسـبة له وأصبحت مسـاحةُ العالم مسـاحةَ سـريره. مـن ناحيةٍ أخرى، خـلال تلك الأسـابيع الاثني عشـر الطويلة، كان لديه كل الوقت في العالم. يمكنه الاسـتلقاء طـوال اليـوم، وقضـاء سـاعاتٍ فـي التحـدّث إلـى الأصدقـاء، والاستماع إلى الراديو، والتفكير. لا يهم إذا تطلّب الأمر خمس دقائـق من التركيز الدقيق لإنجاز مهمّةٍ ما.

عندمـا يكـون لديـك الكثيـر مـن الوقـت، فإنـك تعانـي من تضخّـم الوقـت. يرتفـع سـعر كل سـاعة، بسـبب التكلفـة التـي تتطلّبهـا أداء كل مهمّـةٍ صغيـرة، ولكـن نظـرًا لأن المهـام طويلة وتسـتغرق سـاعاتٍ طويلة، يبدو أن القيمةَ لكل سـاعةٍ على حِدَة تتدهور. التكلفة المتزايدة ترتبط بقيمةٍ متناقصة. تصبح الساعات رخيصـة مقارنـةً بالمهـام الضروريّـة التـي يجـب اسـتيعابها. لن تقاتل حينها ضد السّاعة، ولكن ضد المهمّة. لن تفكّر في الوقت الـذي تسـتغرقه، وإنّما سيشـغلك مـا يتوجّب القيام بـه. الوقت، الـذي قاتلـت ضـدّه من قبـل، يصبح ببسـاطة تيارًا للوعـيِ الذي تعمـل فيـه. بالنسـبة للصـمِّ المكفوفيـن، المـكان محصـورٌ فـي أجسـادهم، لكن لديهم الكثير من الوقت.

تسـعى التكنولوجيـا الحديثـة إلى توسـيع المكان للإنسـان وضغـط الزمـان. من الجهـة الأخرى، يرى الشـخصُ المُعاق أن

المكان ينكمش والزمان يتسّع. ولأن المكان والزمان يتقاطعان في داخل الشخص الأعمى، تصبح حياته تدريجيًّا مختلفة عن حياة المبصرين، لا سيّما في زمن التكنولوجيا المتقدّمة.

٢٧ أبريل

ما هو عالم الصوت؟ قضيتُ بعض الوقت في الخارج محاولًا الاستجابة للطبيعةِ الخاصة للعالم السمعي. أنا معجبٌ بالعديد من جوانب الواقع المُعاش، بنطاق وعمق نقاط التقاطع بيني وبين بعض الأشياء التي يخلقها الصّوت.

يؤسّس العالم الملموس العديدَ من نقاط الواقع التي يمكن أن يلمسَها جسدي، ويبدو أن هذا مُقتصرٌ على عمليّةٍ واحدةٍ في كلّ مرة. يمكنني استكشاف الشقوق على مقعد الحديقة بأطراف أصابعي، لكن لا يمكنني، في نفس الوقت، استكشاف الحصى بإصبع قدمي الكبير. يمكنني استخدام أصابعي العشرة لاستكشاف شكل شيءٍ ما، ولكن من الصعب جدًّا استكشاف شيئين في ذات الوقت، شيء في كل يد. صحيحٌ أنهّ إذا نكزَني أكثر من شخصٍ، فإنني أشعر بكل النكزات في أجزاءٍ مختلفةٍ من جسَدي، لكن هذا لن يخبرني كثيرًا عن العالم، بل عن جسَدي فقط.

العالم الذي يكشفه الصّوتُ مختلفٌ تمامًا. صحيح أنني لا أستطيع الاستماع إلى كتابين مختلفين مسجّلين في ذات الوقت، لكن لذلك علاقة بالكلام. ما أفكّر فيه هي الطريقة التي يضع بها الصوت المرءَ داخل العالم.

في يوم السّبت المقدّس جلست في متنزّه كانون هيل[1] بينما كان الأطفال يلعبون. سمعتُ خطى المارة، أنواعًا مختلفة من الخطى. سمعتُ الصنادلَ، والأصوات الأكثرَ حدّة، والأصوات الأكثر رقّة للأحذية عاليةِ الكَعْب. كانت هناك مجموعات تسير سويّة بخطواتٍ مختلفة ما يخلق نوعًا من الطقطقة، تتبعهم خطوةٌ واحدةٌ، ثابتةٌ، وواسعةٌ، أو وقعُ خطواتِ هروَلة. كان هناك أطفالٌ، يركضون في رشَقاتٍ صغيرةٍ، ويتوقفون للصعود أو النزول عن الدّراجات ثلاثية العجلات أو السكوتر. جاءت الخطوات من كلا الجانبين. التقت واختلطت ثم انفصلت مرةً أخرى. في المقعد المجاور، سمعت حفيف جريدةٍ وهمهمة محادثة. أبعدُ من ذلك، خلفي إلى اليمين، كانت مواقف السّيارات. كانت السيارات تتوقّف وتشتغِلُ، تصِل وتنطلق، وكانت الأبواب تُغلَق. بعيدًا إلى اليسار، كان الطريق الرئيسي. سمعت هديرًا ثابتًا للمرور العابر، السيارات

(1) Cannon Hill Park

والحافلات والشاحنات. كانت البحيرة أمامي مليئةً بالطيور البريّة. ميّزتُ أصوات البطّ والإوز، كانت هناك طيور أخرى لم أتمكّن من التعرّف عليها. سمعتُ رفيف الأجنحة، طرطشَةَ وصياح الطيور وهي تطير وتهبط على الأسطح، أو تتقاتل على بقايا الخبز. شعرت برذاذٍ تناثر من قوارب التجديف، وسمعت صراخ أطفالٍ وصوت اصطدامٍ صغيرٍ لقاربين متجاورين. نادى الآباء على اليابسة بعبارات التشجيع، وأحيانًا التحذير. بعيدًا، بعيدًا عن امتداد البحيرة، سمعتُ حفيفًا وكشيشًا مختلفًا لقوارب عابرة. كان هناك من يلعب كرةَ القدم. سمعت صراخًا، وأقداماً راكضةً، ووقعَ اصطدام القدم بجلدة الكرة. بدا أن هناك عدّة مجموعاتٍ تلعبُ ألعاباً مختلفة، حولي أطفال يلعبون، وفي ذاك الاتجاه مجموعة أخرى من الأطفال. في خلفية كل هذا المشهد، كانت الريحُ تُهَسهس، والأشجارُ من ورائي بأوراقها تحفحف، والشجيرات على طول الممرات تخشخش، وبقايا الجرائد على طول الطريق تتطاير. اتكّأت إلى الوراء وتجرّعتُ كل شيءٍ. يا لها من بانوراما متنوّعة وثريّة بالحركة والموسيقى والمعلومات المُذهلة. كان ذلك ممتعًا ورائع الجمال.

مع ذلك، فإن الشيءَ الغريب في الأمر هو أنه كان عالمًا لا شيء فيه سوى الحرَكة. كل صوتٍ نقطة للحركة والنشاط. وإن

لـم يكن هناك شـيءٌ يحدث، يحلّ الصّمـت ويموت ذلك الجزءُ الصغيـر مـن العالـم ويختفي. كان البطُّ صامتًا. هـل رحلَ أم ثمّة شـيءٌ ما اسـتحوذَ على انتباهـه؟ وصلَ القارب للاسـتراحة. هل كان الـرُكّاب متكئيـن علـى المجاديـف، أم أنهـم ربطوهـا بحافة المركِـب ورحلـوا بعيـدًا؟ لم يمُر أحـدٌ من أمامي. هـذا يعني أن ممرّ المشاةِ ذاته قد اختفى. لا يمكنّني سوى تذكير نفسي باتجاه المَمـر، باعتبـاره مُوازيًـا للدكّة التي جلسـت عليهـا. حتى حركة المـرور على الطريـق الرئيسـي توقفّت مؤقتًا. هـل كانت أضواء الإشـارة حمراء؟ ما أن تركن الأشـياء إلى الراحة حتى تزول من الوجود. أن تكون في راحة؛ إذًا أنت لست موجود. أن تفعل؛ إذًا أنـت موجـود. عالمـي ليـس عالـم الكينونـة(١). إنـه عالـم مـن الصيـرورة(٢). عالـم الكينونـة، العالـم الصامـت السّـاكن حيـث الأشياء ببساطة، وهذا غير موجود بالنسبة لي. الجُنَيْنة، السُّرادِق، المظَلّ من ناطحة سـحاب، سـاريةُ العلم على أرض الكريكت، لا شـيء مـن ذلـك موجـود حقًّـا. عالـم الأحـداث والحركـة والصراع، هو عالمي الموجود.

العالـم السّـمعي هو العالـم الذي تمرُّ فيه الأشياء وتخرج من

---

(١) أو عالمي ليس عالم الوجود Mine is not a world of being

(2) it is a world of becoming.

الوجود. يحدث ذلك بسرعةٍ مدهشة. يبدو أنه لا توجد منطقة تتوسّط حدوث ذلك. ثمّة صرخةٌ مفاجئة من البحيرة: «أهلا يا أبي!»؛ أطفالي الآن هنا في قارب التجديف الخاصّ بهم. في السابق ومنذ لحظةٍ، لم يكونوا هناك، حتى خاطبوني بصرخةٍ وتحيّةٍ وتمكّنت من تمييزهم من بقيّةِ الأصوات. لم تكن عمليةً تدريجيّة الحدوث. العالم الذي يخاطبني بهذه الطريقة هو عالمٌ فاعل، أما أنا مجرّد فردٍ غير فاعل. لا أستطيع إيقاف هذه المؤثّرات التي تغمرني. كلّ ما أفعله هو الجلوس. الكائنات التي تصدرُ الضوضاء وحدها التي تشارك في الأنشطة. عليهم أن يكشطوا، يخبطوا، ينقروا، يضربوا السطح بالسّطح، يؤثّروا، يجعلوا حبالهم الصوتيّة تهتَز. عليهم أن يأخذوا زمامَ المبادرةِ في إعلان حضورهم لي. من ناحيتي، ليس لدي القوة لاستكشافهم. لا أستطيع اختراقهم أو التعرّف عليهم بدون تعاونهم النشط. عليهم أن ينطقوا بأصواتهم ويتحدّثوا. إنّه عالمٌ يأتي إليّ، تنبع الحياةُ فيهِ من أجلي، ولا وجود له إلّا بالحياة التي يوجهها إلي.

تُعدّ الطبيعة المتقطّعة للعالم السّمعي واحدة من أكثر ميزاته إثارةً. في المقابل، فإن العالم المُدْرَك مستقرٌّ ومستمرّ. لا يمكن للعالم المرئي أن يهرب من عينيك. حتى في الظلام، يمكنك

استخدام كشّاف وإجبار الأشياء على الظهور، لكن ليس لدي سوى قدرةٍ محدودة للتحكّم في العالم المسموع.

إليكم ميزة أخرى للعالم السّمعي: أنّه يبقى كما هو بغضّ النظر عن الطريقة التي أدير بها رأسي. هذا لا ينطبق على العالم المُدْرَك، والذي يتغير عندما أدير رأسي. أشياءُ جديدةٌ تظهر عندما أفعل ذلك. المنظر الذي أدْرِكه في هذه الناحية يختلف تمامًا عن المنظر الذي أدْركه في الناحية الأخرى. الأمر ليس كذلك مع الصوت. ليس هناك ضوضاء جديدة تلفت انتباهي وأنا أدير رأسي. قد أُدَلّي رأسي على صدري؛ أو أتكّئ إلى الخلف وأواجه السماء. لا يوجد فرقٌ يُذْكر. ربما هناك تغيّرٌ طفيف في الجودة، لكن العالم السمعي مستقلٌّ بشكل أساسي عن حركتي. هذا يزيد من شعور عدم الفاعلية. عوضًا عن الاضطرار إلى البحث عن الأشياء واكتشاف أجزاء جديدة من عالمي بمجهودي الخاص، بينما أقوم بتحويل نظراتي هنا وهناك، في العالم السمعي ثمّة شيء غير مبالٍ لمحاولة اختراقه. إنّه عالمٌ لا أستطيع إقفاله، إنّه ينتشِر من حولي ويستمرّ في ملكوته. يمكنني بالطبع تدريب نفسي على الاهتمام به؛ يمكنني أن أتعلّم التمييز بين هذا الصوت وذاك، وأن أصبح أكثر احترافية في الحكم على المسافة وما إلى ذلك. ومع ذلك، تظلُّ أذْنَاي

مثبتَتـان فـي رأس ثابـت، فـي حيـن أن عينـيَّ، إذا كان بإمكانـي الرؤية، ترشُقان النّظر هنا وهناك بحركاتٍ لا حصْرَ لها في رأسي المتَحرّك.

الفضـاء الصوتي عالمٌ من التجلّي.

١ مايو

الليلـة الماضية حلمـت أنّني كنت في حانة. كُنّـا أنا ومارلين نمـارس الحـبّ. تغيّر المشـهَد إلـى البـار المُزدحم، ثم سـمعت إعلانًـا عبـر مكبّـرات الصـوت: «الرجاء مـن الرّجـل الأعمى في الحانـة القدوم علـى الفـوْر؛ لأن زوجته وابنته تعرضـا لحادث.» تكـرّر الإشـعار. في الحلم كنت أشـاهد صورةً لنفسـي، ممسـكًا بالعصـا البيضاء، وأنا أسـتمع الإشـعار، كنتُ قلقًا ومشوَّشًـا. في المـرّة الثانيـة تكرّر الإشـعارُ مرّتين. ثم وجدتُ نفسـي عند الباب الخلفي للحانة. كانت سيارة مارلين وإيموجين في نهاية الشارع. لم أسـتطِع الوصولَ إليهما بالسّـرعة الكافية. انفجَرَت صرخةٌ من شفتيّ: «ميج! إيمي!»، ثم وجدت نفسي داخل السيّارة، لا أعرف مـا إذا كنـت قدّمت المسـاعدة لهمـا أم لا. كلُّ شـيءٍ كان على ما يـرام. لقـد كان إنـذارًا كاذبًـا. كانـت إيموجيـن ومارليـن بخيـر. أخبرتهما عن الإعلان في الحانة، لكن كلّ شيءٍ على ما يُرام.

شاهدتُ نفسي في هذا الحلم باعتباري رجلًا أعمى، رأيتني ممسكًا بالعصا يعتريني الذّعر لعدم قدرتي على الوصول بسرعةٍ كافيـةٍ لأحبائـي فـي محنتهم. ومع ذلك، لم يكُـن من الواضح ما إذا كنت قد وصلت إليهم بنفسي أم أن أحدًا ساعدني، لكن يبدو أنني كنت قادرًا للوصول إليهم بنفسـي.

كان الموضـوع الرئيسـي فـي الحلم هو الخـوف من فقدان مارليـن بسـبب عماي. مـن الواضح أن ذلك لم يحدث بحسـب المشـاهد الأخيرة في الحلم. هكذا كان حلمي.

هذا حلمٌ عن العمى، وكذلك حلُمُ شـخصٍ أعمى.

٨ مايو

يـوم الخميـس الماضـي، اصطحبتني إحـدى صديقاتي إلى المنـزل بعـد الانتهـاء مـن اجتمـاع. سـألتها مـا إذا كانـت تمانـع الوقـوف عنـد أحـد المطاعـم الهندية لرغبتـي بوجبـةٍ جاهزةٍ من هنـاك. أوقفنا سـيارتنا علـى الخطوط الصفـراء المزدوجة خارج أحد المطاعم في شـارع بريستول، ساعدتني صديقتي حتى باب المطعـم حيـث التقينـا برجـلٍ لطيـفٍ، بـدا وكأنـه شـخصٌ يُدير المـكان. عـادت صديقتي إلـى سـيارتها المتوقّفـة ورافقني أحدُ أفـراد الطاقـم إلـى الطاولة. قـدّم مُرافقي نفسَـه على أنـه مُضيفٌ

وفنّان يعمل كل مساءٍ في المطعم. قال إن اسمه كان بينيتو لويجي، وأوضح أنّه ليس هنديًا وإنما من صقلية، وعلى الرغم من كونه فنانًا وساحرًا ومُشعوذًا، إلا أنّه كان معالجًا بالتنويم المغناطيسي في الأساس.

سألني ما إذا كان صديقتي ترغب في الدخول لتناول فنجانٍ من القهوة، أكّد لي أننا سنكون بأمان، ونادى صديقتي من سيارتها وقدّم لنا القهوة، ثم بدأ بتسليتِها من خلال وصف أعماله وتخصّصاته.

انتقل إليّ وسألني ما إذا كنت أمانع الإجابة على بعض الأسئلة الشّخصية. عرفت لحظتها ما سيأتي من أسئلةٍ، وكنت على استعدادٍ لذلك. سألني ما إذا كنت أعمى تمامًا، ومتى أصبت بالعمى، وكيف حصَلَ ذلك، وما إذا كنت راضيًا تمامًا ومقتنعًا بأن لا شيء يمكن عمله. قال لي بطيب نيّة: إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن أتمنّاه الآن، هو قوة إرادتي. وأن بصَري يعتمد على إرادتي، وبإمكانه، من خلال العلاج بالتنويم المغناطيسي، استعادةَ إرادتي وتقويتها.

سألت لويجي ما إذا كان بإمكانه استعادة أحد الأطراف التي فُقِدَت في حادث طريق. أجاب: «لا»، أشرتُ إلى أن عيني تشبه ذلك إلى حدٍّ ما. يبدو أن ذلك جعله يفكّر قليلًا.

سـأل متـردّدًا: «أليـس لديك عينـان؟ هل اختفتـا؟». نزعتُ نظارتـي لأُريـه عيني اليسـرى، وهـي بيضاء بالكامـل. أخبرته أن هـذه ليسـت عينًـا طبيعيـة. مكوّنـاتٌ مهمـة وضروريـة أُتلِفـت وأُزيلـت. وقلتُ: إنّ عدسـة عينـي قد اختفت، وأن الشـبكيّة في كلتا العينين تالفة منذ وقتٍ طويل. قوة الإرادة لا تستطيع استعادة هـذه المكوّنات المادية، تمامًا كعدم اسـتطاعتها أن تجعل ذراعًا جديدةً تنمو.

قـال لويجـي أن لا شـيء يبعـث علـى الخوف، وأنـه قد قام ببعـض العلاجـات والجلسـات الرائعة لحـالات متأخّـرة ومنها السرطان. «أنت لسـت معالجًا للتنويم المغناطيسي. أنت معالجٌ إيمانـي!» قلـت لـه. اسـتنجد برفيقتـي وسـألها عـن رأيهـا فـي الموضـوع. كانـت تميـل إلـى الاتفاق معـي. أوضحـت أن هذه ليسـت حالـة إرادةٍ ضعيفـة، بل حالـة خلَلٍ تركيبـي. ربّما لاحظ لويجي أن طعامنا كان على وشك الوصول، قام بمحاولةٍ أخيرة: «لكن كل ما تحتاجه هو قوة الإرادة! ألا تمتلك قوة الإرادة؟ ألا تريد أن يعود إليك بصرك؟».

قلـت ضاحكً على النكتة: «بالطبع أريد أن يعود بصري».

«ولكن، من ناحيةٍ أخرى، لا تسئ فهمي. أنا شخصٌ قانع».

أجابني: «أرى أنك راضٍ. نعم، أرى أنك تضحك كثيرًا، أنت رجلٌ سعيد. مع ذلك، لابد وأنّك ترغب في استعادة بصرك».

وافقته، وفي تلك اللحظة وصل طعامنا. أعطاني لويجي بطاقة عمله، وقمنا بتوديع بعضنا. في الطريق إلى المنزل، في السيارة، ناقشت أنا وصديقتي هذهِ الحادثة المسلّية. كانت مسرورةً بهذه المعرفة الجديدة، مستمتعةً بظرافته وسِحْره. استغرَبتْ فكرة أن يكون المرءُ منوّمًا مغناطيسيًّا، وتساءلت عما سيكون عليه الأمر. عندما توقّفنا خارج المنزل. سألتي بنبرةٍ متردّدة، ولكن فضولية: «جون، ماذا عنك؟ لماذا لم تقبل بعرضِه؟ ما الضرر الذي يمكن أن يحصُل؟ هل تعتقد أنّك وصلت إلى النقطةِ التي لا تريد فيها استعادة نظرك؟».

فوجئت بهذا، وقلت: «كيف يمكِنُك أن تقولي ذلك؟ بالطبع أريد لبصري أن يعود! لن أقبل أبدًا فقدان البصر!».

سألت: «لكن يا جون، يبدو أنك تأقلمت بشكل جيد مع ذلك. تبدو دائمًا رزينًا جدًا، وسعيد جدًا، ويبدو أنك تمارس حياتك بشكل جيد».

قلت بحرارة: «أنتِ لا تعرفين نصف الحقيقة، لن أقبل أبدًا

بالخسائر الإنسانية التي تترتّب على العمى، ولن أقبل أبدًا بالمساعدة العبثية من ذلك النوع، من تلك الجهات خصوصًا. ألا ترين أنني أجد الأمرَ أكثر إهانة، وأكثر إذلالًا، وأنه سيكون محض خيانة لأي شجاعة أو كرامة تبقّت لدي؟ ثمّة مواقف في الحياة يتعيّن عليك فيها خوْضَ حرب ضد اليأس، حرب طويلة الأمد، ولكنها كريمة، عليك ألا تسمح لعاطفتك أن تستعبدك لأولئك الذين يروّجون آمالًا زائفة».

لم يكن لهذه الجُمَل من النقاش تأثيرًا كبيرًا. لا تزال صديقتي المخلصة والودودة تميل إلى الاعتقاد بأن الأمر مزيجٌ من الفخر والرضا عن النفس وذلك ما منعني عن قبول مثل ذلك العرض غير المؤذي. من ناحيتي، سأواصل باستعارةٍ عسكرية، إذا كان العمى سيهزمني، فإنني أفضّل أن أكون مقتولًا بجروحٍ على صدري وليس في ظهري.

٩ مايو

في الكنيسة يوم الأحد الماضي، التقينا مرةً أخرى بصديقنا المعالج الإيماني، السيد كريسويل. ربما أنّني أصبحت شديد المِراس إلى حدٍّ ما هذه الفترة، ويرجع ذلك جزئيًا إلى لقائي مع معالج التنويم المغناطيسي في المطعم الهندي، وجزئيًا لأن

مارليـن جعلَتنـي أتنـاول بضع ملاعـق من زيت كبد سـمك القد الممـزوج بالعسـل، وقـد كنـت أعارضهـا قليلاً ورفضـت تناول المزيد.

جـاء السـيد كريسـويل وبطريقـةٍ مَرِحـةٍ صافحني، وسـألني كيف كانت الأمور. من الواضح أنه لم يكن مهتمًا جدًا بما كانت عليـه الأمور؛ لأنني أفتـرض أن العصا البيضاء التي كنت أحملها تحكـي كلّ الأمـور، لكنـه اِعتـذر عـن عدم زيارتـه لنا بعـد لقائنا الأخيـر، ثـم قـال إنّه تلقّـى كلمـةً من الـربّ بخصوصـي. كانت الرسـالة هي أن الربَّ أمرَني بالحصول على كتابٍ مقدّس صغيرٍ وحمله في جيبي على الدوام. من الآن فصاعدًا، يجب أن تكون كلمـة الله معي دائمًا، يجب أن تذهب معي أينما ذهبت، وهذا ما قالـه الله: «دع الكلمة تذهب معك».

قلت: «أنا آسف سيد كريسويل، لكنني لست مستعدًا للقيام بذلك. لدي الكثير من الأشياء لأضَعها في جيبي ولست مستعدًا لمراكمـة المزيـد. أحمـل كلمـة الله دائمًا في رأسـي وقلبي، ولا أرى أي فائـدة من حملها في جيبي أيضًا».

أصبح السيد كريسويل أكثر ليونة، ولكن أكثر مباشرة، وقال لـي: إن الله كان يخبرنـي بالأمر البسـيط الذي عليّ أن أفعله الآن

لاستعادة بصَري، وإذا لم أكُنْ مستعدًا لطاعته، فلا ينبغي أن أتفاجأ إذا لم يعُد لي بصري. كانت الخطيئةُ سببَ العمى، وهي سبب كل الأمراض، والخطيئة تكمُن أيضًا في ممانعة وكبرياء الجنسِ البشري ورفض طاعة كلمة الله، ورفض القيام بالأشياء البسيطة التي يقولها الله.

قلت: «سيد كريسويل، أرى أن لدينا أفكارًا مختلفةً جدًا عن الله، وعن الخطيئة والبصَر. لا أقبل أيًا من أفكارك حول هذه الأشياء. سواء كنّا نعيش أو نموت، نحن في عناية الرب دائمًا، ولست مستعدًّا لأن أكون تحت أيّ ضغطٍ عاطفي بالقيام بكل هذه الأشياء الغريبة أسبوعًا تلوَ أسبوع. أنت تنصحني بقبول ممارساتٍ خرافية سحرية».

«لا، لا»، قال معاتبًا: «هذه هي كلمات الربّ!».

لحِقَ بي في الممر، حيث كنتُ أنا ومارلين نشقُّ طريقنا نحو الباب، محذّرًا من أنني أسلك طريقًا خطِرًا للغاية ولن أجِدَ الشفاء بهذه الطريقة.

عندما ركبنا السيارة، شعرتُ بالأسَف قليلاً لأنني، ربما، أظهرت نوعًا من الجفاء لرجلٍ لطيفٍ وحسن النّية بقولي للحقيقة بشكل مباشرٍ للغاية، لكن من ناحيةٍ أخرى، كما أخبرت

مارليـن، لا يمكنني السّـماح لنفسـي بأن أكون فـي موضع ابتزازٍ بفعـل كل هـذه الأشـياء غير المنطقيـة وبالاستسـلام للآمالِ غير المجدية.

١١ مايو

كنـت أسـير إلـى المنـزل بعـد درسٍ مسـائي. كان ذلك بعد السـاعة الثامنـة بقليـل. لـم يكـن هناك الكثيـر مـن الحركة حول الحـرم الجامعي. سـمعت أقدامًـا تجري وتقتـرب، توقّفَت ربّما علـى بُعْـد عشـرين يـاردة. صاح صوت ذكـوريّ هائـجٌ وأجش، مشـحونٌ بالغضـب والضغينـة: «هل أنـت أعمى يا صـاح؟ أنت لسـتَ أعمى! كيف أصبحت أعمى؟ أنت لست أعمى!».

فوجئت من أسـلوبه الفظ ومن طريقةِ اسـتجوابه، وقفت بلا حِراك. انتظرت لحظةً، في صمت، أتساءل ما إذا كنت سأجيب. مرةً أخرى، بصَق سـؤاله: «هل أنت أعمى؟».

بهـدوء، علـى أمـل أن يكـون صوتـي متماسـكًا وواضحًـا، أجبته: «نعم، أنا أعمى».

شـعرت أنه يقترب مني. قال فـي غضبةٍ: «أيها الوغد اللعين القـذر! أنـت لسـت أعمى! كيـف أصبحت أعمـى؟ لا يمكن أن تكون أعمى!».

أجبتـه: «لا، أنت مخطئ. أنا أعمى».

حاولـت مقاومـة الدّافع الـذي كان يحثّني عل رفـع حقيبتي ووضعها على صدري، لشـعوري بأنّه على وشـك الهجوم علي، أو لَكْمي، لمعرفة ما إذا كنت أعمى أم لا. ربّما يريد معرفة ما إذا كنت سـأُحني رأسـي أم لا. مع ذلك، قاومت الوسْوسـة، وبقيت ساكنًا تمامًا، أنظُرُ في اتجاهه؛ لأنني اعتقدت أن أي علامةٍ تشير لتوّتـري قد تشـجّعه على مهاجمتـي. بدا وأنهّ تحرّك إلى اليسـار قليـلًا، وعندمـا تحدّث مـرةً أخرى كان بعيدًا. صـرخ مرةً أخرى بنفـس نبْـرة الغضب الخبيثـة، البغيضة «أنت لسـت أعمى! كيف أصبحت أعمى؟ »، ومن مسـافةٍ أبعَد، ردّد «أنت لست أعمى!»، ثم اختفى.

كنت، بطبيعةِ الحال، متردّدًا بعض الشـيء بشأن المضي في طريقـي. مـاذا لو عاد ووقـف أمامي على بُعْد بضعـة أقدامٍ فقط؟ انتظرت للحظاتٍ أخرى لأراقب ما إذا كان سيصرخ مرةً أخرى. ثم أدركت أن هناك سيارة متوقّفة على الجانب الآخر من الطريق الـذي كنـت أسير فيه. شـعرت بأن السّـائق قـد نزلَ من سـيّارته خلال الحادثة، ولم يعُدْ إليها. سـمعته يتمتم إلى الشّـخص الذي كان معه: «سخيفٌ ذلك الفتى! ما الذي كان يريده ليتحدّث معه بتلك الطريقة؟ .»

اعتبـرت أنّـه كان يشـير إلـى المُعتـدي، وليـس لـي، أبـدى مساعدته لي قائلًا: «هل رحل؟».

ثم سألني السائق في أي طريقٍ أسير. أسأتُ فهمه، معتقدًا أنّه يقترح علي توصيلة. قلت: «أوه، كل شـيءٍ على ما يُرام، سـأتدبّر الأمر، شكرًا جزيلاً لك. لقد راعَني صوته قليلاً، هذا كل شيء».

سـأل مرة أخرى: «لا، في أي اتجاهٍ أنت ذاهب؟».

«أنا متّجهٌ إلى الأمام مباشـرة، إلى طريق بريستول».

«أوه، أنـت بخير. لقد ذهب في الاتجاه المعاكس».

سألته: «من هو؟».

«لا أعرف».

«كيف يبدو؟ هل كان ثَمِلًا أو شـيئًا من هذا القبيل؟».

«لا أعرف، لا أستطيع أن أقول».

شـكرت السّائق على مساعدته وذهبت في طريقي.

قبـل عاميـن أو ثلاثة أعوام، عندما كان بصَري ضعيفاً، كنت أسـير فـي متاجـر سـيلي أوك[1] ذات ليلـةٍ عندمـا عبرت شـارعًا

---

(١) متاجـر سـيلي أوك Selly Oak shops، مجموعـة مـن المتاجر الواقعة بالقرب من متنزه سيلي أوك وجامعة برمنغهام.

جانبيًا، وصاح أحدهم على بعد خطواتٍ قليلةٍ من ورائي «انظر، يـا صديقـي! هناك سـيارة! توقـف!»؛ توقّفت فورًا وإلـى حدٍّ ما، فزعـت لأنني لم أسـمع أي شـيءٍ قادم. عدت خطـوةً إلى الوراء نحـو الرّصيـف الـذي أتيـت منه. تحـدث صوتٌ ثانٍ «كل شـيءٍ على ما يرام يا صديقي، إنه يمزح فقط. يمكنك العبور.» لم أنظر حولـي أو أبـدي أي لفتـةٍ للاعتـراف أو الشّـكر، وإنما اسـتأنفت طريقـي حفاظًـا علـى وجاهتـي. كان هؤلاء مجرّد شـباب صغار يحظون ببعض المرح، وكنت الرّجل الذي يبدو غريبًا في الحرم الجامعـي. أخبرني صديقٌ أعمى يكسـب رزقه بالعمل في مراكز التسوق أنه كثيرًا ما يُهاجم من الشباب الذين يتهمونه بالاحتيال. لم يسـبق لي أن مررت بتلك التجربة من قبل.

١٧ يونيو

مـا الـذي يبعث علـى هذا الشـعور بالتوتّر بعد عـدّة أيام من الابتعـاد عـن العمـل أو عن مكتبـي؟ توتّـرٌ يتراكم ويتحـوّل إلى شـعورٍ قويٍّ من التنغيص والقلق ثـم الاكتئاب. يصبح هذا مقلقًا جدًا لدرجة أنه موجعٌ تقريبًا.

إلـى حـدٍّ مـا، أعتقد أن هذا هـو الإحباط الناجـم عن وجود الأطفـال. فـي هذه الحالة، أصبح أكثر وعيًـا بالعمى. ربما يكون

هناك عامل آخر، وهو أن أيّ شخصٍ أعمى، إلى حدّ ما، محروم من المعلومات. تقصُر وتنقص عنّي الحقائق، ويطلب عقلي شيئًا جديدًا لمعرفته.

يمكن أن أنغمس فجأةً في مثل هذه المشاعر من الحرمان بسبب بعض الأحداث الصغيرة. بينما كنّا نعبر الطريق من موقف السيارات إلى مدخل المطار في ذلك اليوم، صرخت: «هل هناك من يمسك بيد ليزي؟»، ونحن نهرع لتجاوز الطريق، تجاهلت العائلة سؤالي ببساطة. كان ذلك منطقيًا تمامًا بالنسبة لهم؛ لأنها كانت لحظات الوصول بأمانٍ إلى الرصيف، وليس لبدءِ مناقشة من كان يمسك بيَدِ من. شعرت فجأة بانفلات الأشياء من حولي، وأن قدرتي على مراقبة ليزي قد تحطّمت، وأنّه لا جدوى من محاولة الاعتناء بها أو الانزعاج بشأنها. ما الهدف الذي أرتجيه، وجدت نفسي أتساءل عنها، وماذا تفعل، وهل هي بأمان؟ كنتُ مجرّد كتلةٍ من الدّهون تُنقَل من مكانٍ لآخر.

من ناحيةٍ أخرى، حضرت قبل أيامٍ مؤتمرًا في لندن حيث وجدت عددًا من الأشخاص الذين أعرفهم. كنت أقابل أصدقاء قدامى طوال اليوم، وأتعرف على زملاء جُدُد، وأطّلع على

بعض الأخبار حول أحداثٍ مختلفة، وأستكشف آخر التطوّرات فـي عملي. لم يكن لدي الوقت الكافي لأدرك أنّني كنت أعمى، ومرّ اليوم سريعًا.

مـا يؤثر علي هـي التجربة التراكميّة لوجـود العمى الذي لا مفرّ منه. قد يكون لافتقار السيطرة دورٌ أيضًا، وقد يكون هذا هو السـبب فـي أنـني أجِـده مرهقًا جـدًا. أجِـدُ الانتعاش فـي العمل الفكـري، ويرجـع ذلـك جزئيًا إلى أنني أسـتطيع أن أنسـى تمامًا أنـني أعمـى. يبـدو أن المتطلبـات الاجتماعيـة للحيـاةِ العامـة والمتطلّبـات الشّـخصية للحيـاة الأسـرية تخلـق العديـد مـن المواقـف التـي لا أصبح فيها مدركًا فحسـب، بل مدركًا بشـكلٍ موجـعٍ للعمـى. ومع ذلك، فإن مثل هذه التجارب، بشـكلٍ عام، ليسـت شائعة ولا حادّة كما كانت قبل ستة أشهر.

٥

البحر والريح

صيف ١٩٨٤

١٩ يونيو

إذا كان الأعمى يعيش في الزمان، فإن الأصمّ يعيش في المكان. يقيس الأصمُّ الزمن برؤية الحركة. ومع ذلك، إذا نظر الأصمُّ إلى عالمٍ لا حركة فيه، مثل منظر النجوم، أو شارع مهجور، أو جبل لا يتزحزح، فثمّة شعور بالأبدية، ثمّة تواؤم ساكن. بفقدان هذا النوع من الشعور بالمكان، يصبح لدى المكفوفين شعورٌ أقل بالثبات والدوام. عالم المكفوفين سريع الزّوال؛ لأن الأصوات تأتي وتذهب.

ضع في اعتبارك أهمية العلاقة بين الجسد والزمن بالنسبة للمكفوفين. الشخص الأصمّ الذي يسير إلى المنزل لا يواجه أي مشاكلٍ في توقيت النقطة التي يغادر فيها الممشى العام ويدخل منزله، فهو يضَعُ جسَدُه في عدَدٍ من صور بيئته والتي

تكون متَّسِقة إلى حدٍّ ما من يومٍ لآخر. عندما تظهر أمامه صورةٌ معيّنة مثل شكل منزله، أو لون بابِه الأمامي، سيعرف الطريق الذي عليه أن يسلُكَه. أمّا الأعمى، فهذا الشعور بالوجود في مكانٍ ما أقلُّ وضوحًا.

دعونا نأخذ مثالًا على توقيت الجسَد الداخلي. منذ عدّة أيامٍ وأنا أتجاوز (أتعدّى) البابَ الأمامي للمنزل بحوالي ٤٠ ياردة، وهي المسافة التي يشغلها منزلٌ بأكمله تقريبًا. لم أتمكّن من معرفة سبب قيامي بذلك، لكنني كرّرت ذلك عدة مرّاتٍ في الأسبوع. منزلي على بعد حوالي مئة ياردة من زاوية المبنى. عندما أكون في الجزء الأخير من الطريق إلى المنزل، أستطيع تقدير المسافة المتبقّية. لا أحسَبُ الخطوات، لكنّني أُقدّر الجُهْد الذي عليّ أن أقوم به حتّى أصِل. عادةً ما أقوم بنقر السّياج على امتداد الرّصيف، وهذا يعطيني كل العلامات التي أحتاجها حول موقعي الدقيق، ولكن، حتّى لو كنت أسير برفقةِ شخصٍ آخر وليس لدي أي اِتصال بالسّياج، أستطيع تقدير المسافة.

حاليًا، المنزل الثاني بعد الزاوية يرمّم سقفًا جديدًا، والممر مسدودٌ بمخلّفاتٍ من مواد البناء. من الواضح أن ساعةَ جسدي تعيد ضبط نفسها مرةً أخرى بعد هذا التّدخل في مساري،

لتسمح لي مرةً أخرى بتقدير المسافةِ المتوقّعة. كنتُ أُخطئ وأتجاوز المسافةَ الصحيحة بنفس عدد البلاطات التي كانت تشغلها مخلّفات البناء على ممرِّ المشاة. بالنسبة للمكفوفين، المنزل موجودَ فقط بسبب خبرة سابقة. تتقلّص المساحة لتصبح جسَدَ المرء فقط، ولا يُعرف موضع الجسد بالأشياء التي يمُرّ بقربها، وإنّما بالمدّة التي قضاها في الحركة. وهكذا يُقاس الموقع ويتحدّد المكان بالزّمن.

دعونا نأخذ مثالًا آخرَ. الصفحة في الكتاب المطبوع تشغلُ مساحةً معيّنة. عندما تقرأ بعينيك، تعبر هذه المساحة حتى تُغطّيها بالكامل، ثم تقلب الصّفحة لتواجه مساحةً أخرى وهكذا. ينطبق الشّيء نفسَه على القراءة بطريقة برايل. لكن الكتبَ المسَجّلة على أشرطة مجرّد كلام، يتحرّك دائمًا، ويُقاس بالوقت. قد نقول: إن مشكلة المؤلّف الأعمى الذي لا يستخدم طريقة برايل هي تحديد الوقت الذي يوازي ما يفعله المؤلف المُبصر في مساحة الصّفحة.

هذا يقودنا إلى الاختلاف في إدراك الأعمى للناس. بالنسبة للأصمّ، للناس حضور مستديم. إنهم موجودون هناك طوال الوقت وكل يوم. بالنسبة للمكفوفين، لن يكون الناس موجودين

مـا لـم يتحدّثوا. في كثير من الأحيان، أتابـعُ المحادثة مع صديقٍ مُبصر وأكتشـف لاحقًا أنّه غير موجود. ربما يكون قد ابتعد دون أن يخبرني، أو قد يكون هزّ رأسَـه، أو ابتسم معتقدًا أن المحادثة قـد انتهت، لكنه من وجهة نظري، اختفى فجأةً.

عندمـا تكـون أعمى، يشُـدُّ أحدُهم يدَك فجـأةً، أو يخاطبك صـوتٌ فجـأةً. ليس هنـاك توقّـعٌ أو تحضير، وليس هنـاك مكان لتختبـئ فيـه. لا يمكنـك أن تخفـض رأسَـك. مقبـوضٌ علـي والجميـع يسـتقبلني. أنا غير فاعلٍ فـي حضور ما يقترب مني. لا أسـتطيع الهروب منه. يمكن للمُبصر أن يختار من يريد التحدث إليـه وهـو يتجـوّل فـي الشـارع أو السّـوق. النـاس هنـاك ليختار منهـم، ويمكنـه أن يختـار ما إذا كان سـيحوّل هـذا الحضور إلى علاقةٍ أم لا بالتعرّف عليهم. بالنسبة للمكفوفين، الناسُ في حالة حركـةٍ دائمـة، مؤقّتون، يأتـون ويذهبـون. يخرجون مـن العدم. يختفـون. مثّـلَ القديـس أوغسـطينوس[1] الروحَ البشـرية بقوله: إنهـا مثـل طائـرٍ يصطـدم في مبنـى كبيـر، يخفق بجناحيـه لبعض الوقت، ثم يجد مهربًا ويختفي. يبدو لي أن هذا تصوّري للزيارة،

---

(١) القديس أوغسطينوس St Augustine عالم لاهوت وفيلسوف وأسقف من أصل نوميدي لاتيني ولد في طاغسـت (سـوق أهراس، الجزائر). أثرت كتاباته في تطوّر الفلسفة والمسيحية الغربية (٣٥٤-٤٣٠).

لمباركـة أحدهم لي بزيارته، وذلـك مهمٌّ جدًا في تجربة الأعمى وعلاقته بالآخر.

٣ يوليو

عُـدتُّ لتـوّي من مؤتمـرٍ في أونتاريـو. بذلتُ مجهـودًا كبيرًا للتعـرف علـى الثمانين أو نحو ذلك من الأشـخاص الموجودين هنـاك. كنتُ إذا سـمعت شـخصًا يتحـدّث في إحدى الجلسـات العامة، ولم أسـتطع التعرّف على الصوت، أهمسُ إلى الشـخص الذي بجواري، وأسأله عنه. فوجئت بعدد المرّات التي لم يتمكن فيها جاري من معرفة المتحدّث. يعرفون من المتحدّث، يعرفون أنه الشخصُ الذي أجروا معه محادثة كذا وكذا، لكنّهم لا يعرفون اسـمه. حتّى في وقـتٍ متأخّرٍ من المؤتمر، عندمـا كنت أعتقد أن معظمَ النّاس قد تعرّفوا على بعضهم البعض، أجِدُ أنني إذا طلبت مـن أحـد المعـارف أن يأخذني إلى أيّ شـخصٍ يعرف اسـمه في الغرفة، فقد لا يكون هناك أكثر من اثنين أو ثلاثة أشخاص معروفة أسـماؤهم في غرفةٍ بها عشـرين شـخصًا. ناقشـت هذا مع زميل، أشَـرتُ إلـى أنّـه مـن السـهل نسـبيًا علـى المبصـر التعـرّف على مجموعةٍ مكوّنةٍ من سبعين أو ثمانين شخصًا، بينما على الكفيف أن يبـذل جهـدًا أكبر لفعل ذلك. أجاب زميلي على أنّ افتراضاتي

حـول كيفية تعرّف المبصرين على بعضهم البعض كانت خاطئة. لا يتعـرف النّـاس، بشـكلٍ عـام، علـى بعضهـم البعض بالاسـم. الاسـم جـزءٌ مـن العمليـة، بالطبـع، لكنه فـي جزئهِ الأكبـر مجرّد مجاملـة. يتعـرّف الأشـخاصُ المبصـرون علـى بعضهـم البعض بالمظهر العام، بالأشـياء التي تقولهـا أو تفعلها المعرفةُ الجديدة. المظهر وما يبدو عليه الشـخص، هي تلك السّـمة التي تجمع كل العناصـر سـويّة. اسـم الشـخص مجـرّد عنصـر إضافـيّ مـن المعلومـات، ولكـن المظهـر هـو ذلـك الجوْهر المركـزي الذي تجتمع حوله كل الأشياء.

بالنسـبة لي، فإن معرفةَ شخصٍ ما تتوقّف على معرفة اسمه. معرفة الشـوارع تعتمد على معرفة أسـمائها. في الغالب لا يعرف المبصـرون أسـماءَ الشـوارع التي يسـتخدمونها كل يوم. بالنسـبة للمكفوفين، فإن اسـم الشـارع ضروري، حتى يتمكنوا من معرفة مواقعهم.

ومـع ذلـك، فإن اسـم الشّـخص لا يخبـرك كثيرًا بمـا يمكن توقعـه. يمكنـك معرفـة الجِنـس، والجنسـية غالبًـا، وفـي بعـض الأحيـان قد تتمكن من تخمين العُمُر، لكن يمكنك معرفة المزيد من مظهر شخصٍ ما.

فـي أونتاريـو، تعاملـت مـع مـن حولـي بعـد التعـرّف علـى أسـمائهم. قُرِئـت عليّ قائمة الأسـماء مـرارًا وتكـرارًا، وتمكّنت ببسـاطةٍ مـن طلَـب أسـماء بعينهـا والتقيـت بأصحابهـا. واصلت العمـل علـى القائمة، اسـمًا تلوَ آخر. لـم أكُن أتوقّـع الكثير حتى سـمعت الصـوت وشـعرت بقبضـةِ اليد التي سـتقترن فـي النهاية بذاك الاسـم. الاسـم هو الإشـارة اللفظية التي تدور حولها تلك القصة بالذات.

عندمـا يقوم شـخصٌ أعمـى وآخر مبصِر بتكويـن صداقات، يشـبه الأمر الفرق بين هاتين الحكايتين لتاجرين، الأوّل اكتشـف لؤلؤةً بسـعرٍ رائع، فباع كل ما لديه لشـراء تلك اللؤلؤ، أمّا التاجر الثانـي فهو مـزارع حرَثَ الحقْلَ، واكتشـف بالصدفة كنزًا مخفيًا. بعد أن شـكّل الشـخصُ المبصر صورة اللؤلؤة التي يبحث عنها، يتخـذّ الخطـوات التاليـة لتعميـق تلـك الصداقـة. بينما يكتشـفُ الأعمى فجأةً الكنزَ في الحقل. بدون ترقّب، بدون تصوّر مُسبَق، يلتقـي بشـخصٍ ما، يدخل معه فـي حوار ويكتشـف قصّةً جديدةً مفاجئة.

الأشـخاص في المجموعة من حوله ليسوا حاضرين كما لو كانوا يشـغلون حيّزًا من المسـاحة، أو ككُتَلٍ ملوّنة إنّما كأصواتٍ

معَلّقـة علـى ركائز متينة، إنهم حاضِرٌ ينبثق من الماضي، ينبثق في الزّمان وليس في المسـاحة والمكان. يتيـح البصَرُ للمرء أن يأخذَ مقطعًا عرضيًا من حياةٍ شخص ما في اللحظة الراهنة. أما الأعمى فيأخُـذُ مقطعًـا طوليًـا إلى الوراء وعبـر الزمن. هذه ليسـت مجرّد نظـرة أطوَل لحيـاةِ الشّـخص، ولكنها نظرة تسـتغرق وقتًـا أطوَل لاكتسابها.

٤ يوليو

أحـد أصعـب جوانب العمى هو أنّه يجعـل منك عنصرًا غير فاعـلٍ عند التعرّف على النـاس، لا يجعل لك الاختيار بحرّيةٍ مع من تريد التحدّث. لست قادرًا على تشكيل وجهة نظَرٍ عن شخصٍ ما بشـكل أفضـل عند تحيّتـه أو تحيّتها، هذه المشـكلة كانت ولا تزال تقلقني منذ أن فقدت بصَري.

لقد طوّرت أساليب معيّنةٍ للتعامل مع هذا. آمل أن تعيد إلي روح المبادرة في تكوين الصداقات الإنسانية والحفاظ عليها.

لنفتـرض أننـي أتحدث مع شـخصٍ ما بعـد الاجتماع، كيف يمكننـي إنهـاء المحادثـةِ والانتقال إلى شـخصٍ آخر؟ للشـخص المبصـر العديـد مـن الحيَـلِ الصغيرة المتاحـة. يمكنـه أن يقول: «أوه، عفواً، أريد فقط أن أتحدث في موضوعٍ مع فلان.» لا يمكن

للشخص الأعمى أن يفعل ذلك، فليس لديه طريقة سهلة لمعرفة أنّ فلانًا موجودٌ هناك. يمكن للشخص المبصر أن يقول: «سأعود بعد دقيقة. سأحصل على مشروبٍ آخر فقط». ليست الصعوبة في اِنسحابي من المحادثة فقط، لكن حتّى صديقي المُبْصر يجد صعوبة في الانسحاب من الحديث معي كذلك. يشعر بالمسؤولية تجاهي. لا يمكنه التوقّف فجأةً وتَرْكي واقفًا هناك. إنّه مأزق. كيف يمكنُنا الانسحاب والابتعاد عن بعضنا؟

عندما أشعر أن الوقت قد حان للتوقّف عن التحدّث إلى شخصٍ ما، أطلبُ منه ببساطةٍ إلقاءَ نظرةٍ في الغرفة وأخذي إلى شخصٍ آخر. معرفة أسماء الأشخاص الذين أريد التحدث إليهم أمرٌ مهمّ بالطبع. قد أقول: «حسنًا، سأذهب وأتحدّث إلى شخصٍ آخر الآن. هل يمكنك معرفة ما إذا كان فلانٌ هناك؟»، هذا ليس جيدًا في رأيي. فقد يستغرق الأمر من صديقي وقتًا طويلًا حتى يجد شخصًا معينًا. إذا كان صديقي لا يعرف هذا الشخص، أو إذا تبيّن أن الشخص غير موجود، فأنا عالقٌ. أجد أنه من الأفضل أن أسأل: «هل يمكنك رؤية أي شخص تعرفه على الإطلاق؟»، عادةً ما يقول صديقي: «حسنًا، هناك فلانٌ وعُمره كذا وكذا»؛ أجيبه: «هل يمكن أن تأخذني إلى هناك وتقدّمني له؟». أكرّر هذه العملية كل مرّة.

بهـذه الطريقة أتمكّن من التحدث إلى عشـرات الأشـخاص خـلال فترة اسـتراحة تنـاول القهـوة، خلال خمس عشـرة دقيقة. أقابـل أيضًـا أشـخاصًا جـدُدًا؛ لأن أصدقائـي يعرّفوننـي على من يعرفون.

تعمـل هـذه الطريقة بشـكلٍ أفضـل في المواقـف التي يكون فيها اجتماع منظّم إلى حدٍّ ما لمجموعة الناس، على سبيل المثال: مجتمـع أو كنيسـة. تعمـل الطريقة بشـكلٍ جيد فـي الاجتماعات المتخصصّـة مثل المؤتمرات، حيث يرتدي الأشـخاص شـارات الاسم، أو حيث يشارك كل شخصٍ في المبنى في ذات الحدث. لكن هذه الطريقة تواجه مشكلاتٍ مختلفة، فهي تزيد من صعوبة وصول أي شخصٍ إلي، والتحدّث معي؛ نظرًا لأنني دائمًا ما أبدو منشغلا في المحادثة، لا توجد المساحة الاجتماعية الطبيعية التي تجعـلُ مـن الممكـن التدّخـل والتعـرّف مـن خلالهـا. الكثير من الناس لا يجدون تبنّي النهج والأسـلوب المباشـر سـهلًا: «عفوا، سأتحدث مع جون الآن، إذا كنت لا تمانع».

إحـدى الميـزات المثيـرة للاهتمـام لهـذه الطريقـة هـي الاختلافـات الهائلـة التـي أجدُهـا فـي مهـارة مـن أطلـب منهـم المسـاعدة، بعضهم يقدّم مسـاعدته بكلّ سلاسـة، بعضهـم الآخر يحرجني ويصرخ: «عفوًا، بيل! يودّ جون هال أن يتحدّث معك».

يتوقّف بيل فجأةً عن كل ما كان يفعله، ويأتي إلي قائلًا: «نعم، جون، ما الأمر؟». الحقيقة هي أنّه ليس لدي ما أقوله لبيل على وجه الخصوص. أردت فقط أن أصافحه وأسأله عن حاله. حقيقة أن الطريقة نفسها مُتقصَّدة للغاية تجعل الناس يعتقدون أنني أقصد التحدّث إلى الشّخص المذكور. مجموعة أخرى من الناس لديهم غريزةٌ طبيعيةٌ للمساعدة. لا يمكنهم فقط مناداةَ خمسة أو ستة من الأسماء في تتابعٍ سريعٍ، ولكن يمكنهم تقديمي إلى المحادثة الجديدة بطريقةٍ في غاية الذّوق. يبدو أنني اكتشفت نوعًا من الكواشف، نوعًا من الفحوص الاجتماعيّة، والتي تمكّنني من اكتشاف أشياء معينة عن معارفي الجدُد بسرعةٍ كبيرة، وبشكلٍ موثوقٍ تمامًا غالبًا.

إنه لأمرٌ مروّع، الاضطرار إلى تقديم مثل هذه المطالب إلى الناس في كل وقت. ومع ذلك، يبدو أن البديل هو التهميش الاجتماعي الكامل والسلبيّة.

٦ يوليو

عندما أذهب إلى العمل، ليس من غير المعتاد أن يسأل الناس عمّا إذا كنت بحاجةٍ إلى أيّ مساعدة. الحقيقة هي أنني لسْتُ بحاجةٍ إلى مساعدةٍ في هذا الطريق. عادةً ما أقول: «شكرًا

جزيلاً لك. أنا بخيرٍ تمامًا. أمُرّ من هنا كل يوم. شكرًا على عرضِك».

أنا مُمتَنٌّ دائمًا لمِثل هذه العروض؛ لأنني أدرِكُ حقيقةَ أنني سأكون سعيدًا جدًا بمثل تلك المساعدة لو كنت على طريقٍ غير مألوف. قد لا يعرف من يقابلني من المبصرين، ما إذا كنت على أحد تلك الطرق المألوفة أم لا.

أحيانًا يكون الشّخص الذي يعرض مساعدتي معروفًا لي. قد يكون جارًا، شخصًا يعمل في مكانٍ آخر من الجامعة، أو شخصًا التقيت به في مناسبةٍ سابقة. عادةً ما أردُّ بالقول: «لست بحاجةٍ إلى أي مساعدةٍ؛ لأن هذا أحد مساراتي المُعتادة، لكنّي أسعدُ برفقتك والسّير معك».

يحدث شيءٌ غريبٌ معي وأفقد استقلاليتي بمجرد قبولي مرافقة أحد. ذلك لأن عليّ أن أضعَ إصبعًا تحت مرفق رفيقي، لتحديد مكانه، والسير جنبًا إلى جنب بمحاذاته، حتى لا أصطدم به. أنا مثل المسافر المجّاني. يتم جرّي، وأتحرّك بسرعةٍ أكبر مما اعتدتُ عليه.

عوضًا عن التلويح بالعصا من جانب إلى آخر أمامي، أمسك بالعصا بثبات، تمامًا أمامي، كحمايةٍ في حال نسي

صديقي إخباري بمكان عمود إنارة، أو ربما أطويها تحت ذراعي. أضف إلى ذلك، أننا نتحدّث، إذا كنت تمشي برفقةِ شخصٍ ما عليك أن تتحدّث. هذا يعني بالضرورة أنني لا أكرّس كامل تركيزي للطريق الذي أسير فيه.

عندما أسير على امتداد مساري المعتاد، أتخيّل في ذهني شاشةً عليها خريطة المنطقة، أتحرّك فيها مثل نقطة ضوء وأعود إليها باستمرار للتحقّق من موقعي. ها أنا ذا، قادمٌ على إلى هذا الجزء من الطريق، عبرت التقاطع الآن، أنا على وشك عبور ذلك الطريق، ستكون هناك إشارات مرورٍ في الزاوية التالية. يجب أن لا أنسى موقعي أبدًا. سيكون ذلك كما لو أن الضوء انطفأ. أتحقّق باستمرار من موقعي على الخريطة، بالتعرّف على التفاصيل الصغيرة والمألوفة. الرصيف أعلى قليلًا في هذه الزاوية. ممرّ المشاة أكثر انحناءً في هذا المكان. سطح الطريق هنا يختلف تمامًا عما كان عليه هناك. هنا تأتي تلك الرقعة الناعمة الصغيرة. هناك نقاط معيّنة في الطريق يتعين عليّ فيها حساب الخطوات لتجنّب أعمدة الإنارة. كل ما سبق يتطلب اهتمامًا مستمرًا. إذا فقدت تركيزي للحظات، قد أخرج قليلاً عن مساري، قد أخطو على شيءٍ ما، قد أنحرف إلى طريقٍ مزدحم. لا يمكنني القيام بأيٍّ من هذا وإجراء محادثةٍ في ذات الوقت.

هـذا يعنـي أن الشـخص المبصـر لا يمكنـه ببسـاطة قبـول رفقتـي. لقـد حرمنـي من اسـتقلاليتي دون ارتـكاب أيٍّ خطأ من جانبه.

دون ارتكاب أيّ خطأ من جانبي، ضحّيت باسـتقلاليتي من أجـل رفقتـه. لقد أصبح مسـؤولًا عني. أصبح سـيارة تجرّ عربةً، وعلـى عاتقه تقع مسـؤولية التأكّـد من أن العربةَ التـي يقطُرها لا تزال موجودة، وأنّني لن أنفصِلَ عنه في نقطةٍ حرجةٍ من الطريق. عليه التأكّد من وجود مُتّسَـعٍ عند المرور بين سيارتين متوقفتين، ليس له فقط، ولكن لكلينا. إذا كان يمشي بين أعمدة الإنارة ولم يتأكّـد مـن أني أتبعه أيضًا، فإن اصطدامي بعمود الإنارة سـيكون مسـؤوليّته. كل هذا يمكن أن يكون مقلِقًا للغاية لعديمي الخبرة.

من السّـهل، في هـذه الحالة، أن يفترض الشـخصُ المبصر أن التعويـل الـذي يجد نفسـه ملتزمًـا به الآن، هو حالـة عادية أو طبيعيّـة. إنْه يدرك أنني أعـوّل عليه الآن في تنبيهي بوجود حاجزٍ مـا فـي الطريـق أو أعمـدة إنارة، يجـد صعوبة أكبر فـي تخيّل أنه عندما أكون وحدي، يمكنني العمل على هذه التفاصيل بنفسـي؛ لِذلـك فهـو دائمًـا مـا يتعجّل ويقـدّم المسـاعدة لـي، عوَضًا عن تقديـم رغبتـه بمرافقتـي؛ لأن مسـاعدته تنبعُ من عجـزي. يخلق العمي تباينًا غريبًا في أنماط التبعية والاسـتقلالية المألوفة.

٧ يوليو

بمجرد صعوده، يعتبر الدرج من أكثر الأماكن أمانًا للمكفوفين. لن تجد كرسيًا على الدّرج، أو دلوًا، أو قرميدًا. تظلُّ الدرَجات بنفس الارتفاع ثابتة في الدّرج، دائمًا ما يوجد درابزين أو على الأقلّ جدار يمكن للمرء التمسّك به. ربما يكون هناك بعض الرّيبة بشأن الدرَجة العلوية والسّفلية، ولكن تصبح المشكلةُ بسيطة باستخدام العصا البيضاء.

هذا يلتبِسُ على معظم المبصرين، الذين يميلون إلى افتراض أن الدرَج سيكون خطيرًا على المكفوفين. يعرف المبصرون أنّهم في بعض الأحيان يتعثّرون ويسقطون على الدّرَج، ويفترضون أنه إذا كان من المحتمل أن يتعثّر المبصر، فإن الشخص الكفيف بالضرورة يتعثّر.

من الشائع جدًا عند صعودي أو نزولي من الدّرج أن يقوم دليلي ومرافقي المُبصر بحساب عدد الدّرجات بصوتٍ عالٍ، مُفترضًا أن ذلك يعود لمصلحتي. الغريب أن هذا هو أحد المواقفِ القليلة التي تكون فيها المعرفة الإضافية عديمة النّفع. يمكن للمرء، بالطبع، مصادفة درَجٍ هابطٍ بشكلٍ غير متوقّع، ذلك سيكون خطيرًا على الشّخص الأعمى كما هو الحال على

المُبْصر، وبالتالي فإن الاقتراب من درَجٍ هابط هو لحظة غير مؤكّدة. يحتاج الكفيف إلى معرفة أمرين: أولاً: أنّه يقترب من الدّرج، وثانيًا: أن الدّرج هابط. يبوح معظم المرافقين المبصرين عن الحقيقة الأولى، لكن الكثير منهم، وربما الأغلبية، ينسون الحقيقة الثانية. وجود الدَّرَج واتجاهه أمران ضروريّان، أمّا عدد الدّرجات فهو أمرٌ غير جوهري. إذا كنت أنزل في سلسلة من الدرَجات التي تتقاطع مع المِسْطبات، فمن المفيد أن أعرف متى تكون آخر الدرَجات، حتى أتمكّن من الانطلاق بثقة مع دليلي، دون الاضطرار إلى التحقّق بعكازتي باحثًا عن أوّل الدّرجات للسلسلة القادمة. وبالمثل، عند الاقتراب من درَجٍ دائري، من المفيد معرفة ما إذا كان ينحني في اتجاه عقارب السّاعة أو عكس اتجاه عقارب الساعة. يمكن للدرَج أن يأخذ منعطفًا غير متوقّع بطريقةٍ أو بأخرى، ويكون ذلك واضح على الحافة الخارجية للدّرج. بشكلٍ عام، الدّرج تصميمٌ يمكن التنبؤ به، وينطبق الشيء نفسه على المصاعد والسلالم المتحرّكة.

ما يجده المكفوفون صعبًا هي المساحات المفتوحة البسيطة. يفترض الكثير من المبصرين أنّ هذه المساحات هي الأفضل للمكفوفين، لانعدام أسباب التعثّر فيها. ومع ذلك، من وجهة نظر الأعمى، فإن المساحة المسطّحة المفتوحة صعبة

وغير قابلة للتفاوض، لانعدام إشارات الإرشاد والتوجيه فيها، لانعدام التصاميم التي يمكن التنبّؤ بها. مساحات قد تنتهي في أي لحظةٍ ولا توجد طريقة لمعرفة مكانك فيها. مشكلة الكفيف ليست السقوط، بل معرفة مكانه. لهذا السبب، من الأسهل أن أجدَ طريقي حول الحرم الجامعي المُكوّن من الخطوات والدرَجات المتنوّعة، من التلال والوديان الصغيرة والجدران المنخفضة والكثير من الأرضيات المختلفة؛ لأنني أستطيع تحديد وتقسيم طريقي. يصبح التصميم تسلسلاً عندما أتحرّك خلاله.

دعونا نأخذ مثالاً آخر على هيكلٍ وتصميمٍ لا يمكن التنبؤ به. أحيانًا وأثناء عبوري الباحة الأماميّة تعترض طريقي سياراتٌ متوقفة في زوايا مختلفة عن بعضها البعض. لا يكمن الخطر في أنني قد أصطدم بسيّارة، ولكنّ في احتماليّة ضياعي. يصطدم المكفوفون أحيانًا في حواف الأبواب أو فيما يعترض رؤوسهم من أعلى، ولكن من غير المعتاد أن يصطدم الأعمى بجدارٍ أو سيّارةٍ متوقّفة. تعطي العصا البيضاء تحذيرًا كافيًا لوجود مثل هذا الجسم الكبير. تكمُن المشكلة بالأحرى في اختيار المسار والاتجاه الصحيح بعد محاذاة السيارة المتوقّفة. إذا اكتُشفت، في الخطوة التالية، سيارة متوقّفة أخرى، وثانية متوقّفة بزاويةٍ

مختلفة، ثم ثالثة، يكاد يكون من المستحيل العودة إلى المسار الأصلي تمامًا. عليك أن تحاول الاحتفاظ بخريطة في ذهنك توضح كل هذه الزوايا وتعود بك إلى الاتجاه الأصلي. هذا ما أسميه هيكلًا وتصميمًا لا يمكن التنبّؤ به.

٨ يوليو

الدراسة من الكاسيت تجمع الكلمةَ المنطوقة والصفحة المطبوعة. أصبحت قراءة كتاب أشبه بالاستماع إلى محاضرة. الأمر يختلفُ قليلًا؛ لأنه بالضّغط على زر الإرجاع لفترةٍ وجيزة يمكنني أن أجعلَ محاضرتي تتكرّر مرارًا وتكرارًا. علاوةً على ذلك، فإن التسجيل يرفع الغموضَ عن الكلمات الفعلية التي قيلت، ويمكنُني الاستماعَ إليها مرارًا وتكرارًا، من وجهات نظرٍ مختلفة.

ومع ذلك، يظل صحيحًا أن مهمةَ تلخيص خطابٍ أو محاضرةٍ أثناء الاستماع إليها هي نفسها إلى حدٍّ كبير سواء كان المتحدّث حاضرًا بالفعل على المنصّة أو كانت المحاضرة تسجيلًا.

إذا توفّر النصّ المطبوع أمامك وشخصٌ ما يقرؤه في ذات الوقت، فإنك تميل إلى اتّباع النصّ المطبوع، ولكن إذا لم يكن

لديك سوى صوت المتحدث، فعليك التركيز على ما يُقال. إذا كنتُ قد تحسّنتُ في تلخيص ومراجعة الكلام الفوري على شكل محاضرات وعناوين، فأنا متأكد من أن ذلك بسبب ممارستي للتلخيص أثناء الاستماع إلى الكتب بالذّات.

٩ يوليو

كنتُ أسير في شارع نافيجيشن[١]، في وسط المدينة. قدّم لي أحدُهم علبة حلوى النعناع.

«شكرا» قلت مبتهجًا، وقبلت الحلوى بابتسامة.

أجاب فاعل الخير: «هذا جيد، كنتُ سأعطيها لأيِّ طفلٍ ألتقي به على أي حال».

في عشاءٍ رسميّ، كان الطبق الرئيسي عبارة عن دجاجٍ بالعظم. طلبت من الشخص الذي بجواري أن يلوّح إلى النادلة، لأطلُب من طاقم المطبخ أن يزيلوا العظمَ عن الدجاج من أجلي؛ ذلك أقل شيءٍ محرج يمكن القيام به في مثل هذه المناسبات. قالت الضيفة بجواري إن هذا لن يكونَ ضروريًا؛ ستقطّع الدجاجة بنفسها لي. فعلت ذلك، بأريحيةٍ كبيرة ومهارةٍ،

(1) Navigation Street

وأعـادت الطبقَ إلـيّ مُعلّقةً: «لقد قطعت وجبـة لطفل معاقٍ قبل يومين».

كنـت أقيم مع صديقٍ في منزلٍ غير مألوف، حيث كان هناك طَفْـحٌ مـن المرحاض أثنـاء الليل. سـجّادةُ الحمـام كانت غارقة بالطّفـح. علمـتُ بما حدَثَ في الصباح الباكر، عندما اسـتيقظت للذهـاب إلـى الحمّـام. اسـتيقظ صديقـي علـى الفـور وصـاح: «جون، لا تدخل الحمّام. هناك مشـكلةٌ في الحمّام».

عُـدتُّ وأخبرني عن المشـكلة. جلسـت على حافّة السـرير وقلـت لـه: «أخبرنـي، هـل كنت مسـتلقيًا هنـاك نصف مسـتيقظٍ طـوال الليـل، تنتظر أن أقوم وأذهب إلى الحمّام حتّى تتمكّن من اعتراضي في الوقت المناسـب وإخباري؟ لم ترغب في إيقاظي مبكّـرًا لتخبرنـي؟ هـل كنت تعلـم أنها سـتكون كارثـةً لو ذهبت هناك دون أن أعرف؟».

ضحكَ صديقي القديم. قال: «حسـنًا، هذا صحيح إلى حدٍّ ما. لم أبق مسـتيقظًا. ذهبت للنوم، مسـتعدًّا في ذهني للاستيقاظ في اللحظة التي أسمعكُ فيها تنهض من السرير»، وأضاف كاتمًا ضَحكتـه: «وكأنني أنجبت طفلًا من جديد».

أثنـاء السـفر مع ابنتـي البالغة مـن العمر ١١ عامًـا على متن

السكك الحديدية البريطانية، لم نتمكن أبدًا من تحديد أيّ تذكرة كانت لي، وأي تذكرة لها. اِشترينا تذكرتها بامتيازٍ عائلي، طُبِع عليها: «سعرٌ ثابت للأجرة». اشترينا تذكرتي بموجب امتياز شخصٍ معاق، مطبوع عليها كلمة: «طفل».

أجريت حديثًا ذلك اليوم مع كليف إنمان، الذي يجلس على كرسيٍّ متحرك. أخبرني أنه عندما يراه الناس على كرسيه المتحرك، فإنهم يميلون إلى التحدّث إليه بصوتٍ رقيقٍ هادئ ومواسٍ. صوت لطيفٌ ومُشفق، الطريقة التي يتحدث بها بعض الناس مع الأطفال. إنّه أيضًا صوت الحيرةِ وعدم اليقين، فالناس لا يعرفون تمامًا كيف يتعاملون مع شخصٍ بالغ «قُصّت أجنحته!».

يفقد الرجل المعاق جزءًا من رجولته، وجزءًا من بلوغه، وجزءًا من إنسانيّته. لا أحب أن يُنتزع مني البلوغ بهذا الشكل.

١٠ يوليو

في حين أنه من السّهل جدًا التهميش، من السّهل أيضًا الهَيْمنة. في بعض الأحيان قد لا يكون الشخصُ الكفيف مدركاً لهيمنته. قد لا يدرك أنه محورُ الاهتمام، وأن هناك الكثير من الضجيج يحدثُ من حوله، لهُ ومن أجله؛ استعداداتٌ واتفاقات

بشأنه، محادثاتٌ تجري استعدادًا لوصوله. يدرك الأعمى أحيانًا أنّه محور الحديث، وذلك شيءٌ لا يرغبُ فيه. يصبحُ موضوعًا للفضول. تتجهُ كل العيون عليه وهو يدخلُ الغرفة.

من الصعب جدًا العثور على مكانٍ وسَطٍ، مكانٍ ما بين التجاهل وكونك مركز الاهتمام. من الصعب جدًا أن تكون شخصًا عاديًا عندما لا يتمّ اعتبارك في الحقيقة شخصًا عاديًا. من الصعب أيضًا تجنّب المواقف التي تفرضها سلطة المرء على الناس، السلطة النابعة في الأساس من العجزِ الشديد. يميل الشخصُ المعاق إلى ترجمة قوة الآخرين بشكلٍ أقل. يغتاظ منهم وينظرُ إليهم نظرةَ الريبة والشكّ، ويجعلهم يشعرون بالحرَج والتطفّل والافتقار إلى الكياسة والإحساس، ويجعلهم يدركون أنّهم لا يعرفون ماذا يفعلون، ولا يعرفون كيف يتعاملون مع هكذا شخص غير عادي. يمكن للشخص المعاق أن يُلْحِقَ كل هذه المشاعر بالشخص العادي.

الحكم والتفصيل للاستخدام الصحيح لهذه السلطة هو جزء مهمّ من تعلّم أن تكون معاقًا.

١١ يوليو

هناك نقطةٌ معيّنةٌ في طريقي تلتقط الريحَ. هذا الصباح، بعدما عبرت النّفق وصعدتُ درجات السّلم وعند الزاوية، شعرت

بالنّسيم. كان نسيمًا جميلًا ودافئًا ومعطرًا، ليس حارًا مثل شمال أستراليا؛ كانت ريح تعبق بالأريج، ولكنها مضطربة، ما يوحي ببداية يوم قائظٍ إلى حدٍّ ما. وقفت هناك لبعض الوقت، قاصدًا الشعور بالتّيار على وجهي وفوق ملابسي. أدَرتُ رأسي هنا وهناك، انحنَيْت وتنفّست الهواء. كان ذلك ممتعًا.

هل يمكن أن تعني الريح مقدار ما تعنيهِ للأشخاص المبصرين؟ إنّها شيءٌ غير مرئيّ؛ لذلك فلا يمكن للمبصر أن يزايد على الأعمى فيما تعنيه. بالطبع، فإن المكفوفين لا يمكنهم رؤية العالَم الذي تهب عليه الريح، ولا الغيوم المتسارعة والأشجار المتمايلة. من ناحيةٍ أخرى، للريح جمالها الخاص عند المكفوفين. بالنسبة للمبصرين، فإن العالم مرئيٌّ بشكل أساسي؛ لذلك تعتبر ظاهرة غير مرئيّة مثل الريح لا تُلاحظُ إلاّ بالصدفة؛ إنّها أحد الأشياء العديدة التي يلاحظها المرءُ بشكلٍ عابر. الإشارات المرئية مهمّة للمبصر؛ مثل مشهد الغسيل يرفرف على الحبل، ما يجعل المرء يعتبر اليوم عاصفًا بالريح. الريح نفسها، كما يشعر بها الجسد، ليست سوى واحدة من الطرق التي يعرفُ بها المبصر اليوم العاصف.

الأعمى يدخل في ريح النهار مباشرة. بالنسبة للمكفوفين، لا تتمتع الريح بالخاصيّة المُلغزة الِتي تتمتع بها عند المبصرين.

هناك فقرة في إنجيل يوحنا[1] تقول عن الريح: «لا تعلم إلى أين تذهب أو من أين تأتي». أعتقد أن هذا رد فعل شخصٍ مبصر؛ لأن المبصرين معتادون على رؤية أين تذهب الأشياء ومن أين تأتي. المبصرون ينظرون لمسافات أطول. يميل المُبصِر إلى النظر إلى دوّارة الرياح فوق الأبنية ليرى الاتجاه الذي تهب فيه الرياح.

اعتاد المكفوفون على عدم معرفة من أين تأتي الأشياء وإلى أين تذهب. تسرع الأشياء وتذهب إلى الماضي والمرء في وسط معمعةِ الأحداث، لا يتوقّع معرفة منابع الأحداث ولا جهاتها. كوْن الريح مخفية لا يجعلها غامضة بالنسبة للمكفوفين، الذين لا يوجد بالنسبة إليهم شيءٌ اسمه مخفي. يشعر الأعمى بتأثير الريح على جسدِه ويسمع صوتها على الأشجار. إنه يعرفُ جيدًا من أين أتت: إنها تأتي من هذا الاتجاه، إنه يواجهُها. تأتي الرياح من الاتجاه الذي أشعر به.

أحيانًا يكون شعور الأعمى بالريح أكثر إثارة لأنها قادمة من مكانٍ بعيد. أحيانًا أسمع الريح تقذفُ بأوراق الشجر من

---

(١) إنجيل يوحنا Fourth Gospel ويسمى أيضًا الإنجيل وفقًا ليوحنا هو رابع الأناجيل القانونية، ورابع كتب العهد الجديد.

بعيـد عبر المتنزه، أشـبهَ بموجةٍ تتدحرج عبر الشـاطئ، وتتكسّـر علـى جسَـدي نافحـة وقابضة مشـاعري. ذلـك مثيـر لأنني كنت أترقّبه، لأن جسـدي يعرف ما يجري حوله.

١٢ يوليو

إذا اضطـررت إلـى حمـلِ كوبٍ من الشـاي من هـذه الغرفة إلـى الغرفـة التاليـة، سـأتمكن مـن فعل ذلـك. إذا وضعـت كوبًا ممتلئًـا فـي يدي الأخرى، فلن أسـتطيع حمـل الكوبين. إعطائي كأسًـا ممتلئـةً بيـدي الثانيـة، يشـبه تعصيـب العينيـن. أن يحمـلَ شـخصٌ أعمى كأسًـا ممتلئةً في كل يَدٍ يكافئ ما يحمله شـخصٌ مبصـرٌ فـي كلتـا يديـه والعصابـة على عينيـه. أن يحملَ شـخصٌ أعمـى كأسًـا ممتلئـةً في يد واحـدة فقط يكافئ تقريبًـا (قد يكون أبطـأ قليـلاً، وأقـلّ براعة) ما يحمله شـخصٌ مبصرٌ فـي كلتا يديه وبـدون عصابـةٍ على عينيه. ففقدان التوجيه من اليـدِ الثانية يكافئ تعصيـب العينيـن. قـد يكـون هنـاك اعتـراض، كَـوْن الشْـخص الأعمـى يعتبر بصورةٍ أو بأخرى معصوب العينين طوال الوقت. ذلـك بالضرورة ليس صحيحًا. يـرى الأعمى بيدِه، يده المتفرغة للتوجيـه والاكتشـاف. لا يشـعر الأعمـى بالضياع ويعـرف دائمًا أين هو وإلى أي مكانٍ سـيذهب، طالما أنّه يسـتطيع توجيه نفسه

بيَـدِه الحرة. إنه لا يشـعر بالعمى، ولكن مع وجـود كأسٍ ممتلئة فـي كل يَـدٍ، يـكاد يكـون مـن المسـتحيل تجنّب الاصطـدام بما يحيـط به وانسـكاب بضع قطـرات هنا وهنـاك. الطريقة الوحيدة للقيام بذلك هي المشـي للخلف، والمحافظة على الكأسين بين المرفقين. بالنسـبة للمبصرين، يبدو هذا سخيفًا.

يصعـب على الأعمى حمل أكـوابٍ وأطباقٍ على صينيّة من غرفةٍ إلى أخرى، أو حمل كرسـيّ أو أي شـيٍء يتطلب اسـتخدام كلتا يديه. إذا بدأ الشـخص الأعمى في نسيانِ كيف تبدو الأشياء للمُبصـر، فلـن يكون هنـاك فائدة مـن تعصيب عينيـه. إذا اضطر الأعمى إلى حمل كؤوس كاملة من الماء في كلتا يديه، سيعرف بالضبط كيف يشـعر المبصر معصوب العينين.

بطريقـةٍ أخـرى، لا يمكن فهـم العمى بمنطق تعميـة العينين فقـط، يبـدو ذلـك فهمًـا سـطحيًا، ولكن بإضافـة وتخيّـل المثال الـذي سـبق ذكـره؛ بوضـع كأسـين مـن المـاء في يدي شـخصٍ معصـوب العينيـن وحرمانـه مـن اللمـس، وبالتالـي حرمانـه من القـدرة علـى التوجيه. بعبارةٍ أخـرى، للحصول على نظـرةٍ ثاقبةٍ لمشـاكل المنـاورة والحركـة، لا يكفـي حذف الملَكةَ والحاسّـة الأكثـر تأثـراً فقـط (في هـذه الحالـة، البصـر)، بل يجـب تجربة

التداعيات أيضًا، من خلال إلغاء حاسةٍ ثانية (اللمس)، ما يوضح كيف تخضع العملية الإدراكية بمجملها للتغيير. اللمسُ ليس هو نفسه للمبصر كما هو للأعمى. إلغاء البصر وترك اللمس دون مساس يعطي انطباعًا خاطئًا؛ لأن اللمس يتأثر بإلغاء البصر. اختصار ذلك كلّه، يرى الأعمى بأصابعه.

١٣ يوليو

لم يلتق الكثير من الأشخاص الذين أختلط بهم بشخصٍ أعمى من قبل. ليس لديهم أي فكرة عما يجب عليهم فعله أو كيفية التواصل معي. أحاول خلق أوضاع يشعر فيها المبصرون بأنهم في بيتهم، لكن هذا ليس بالأمر السهل دائمًا، وغالبًا ما أفشل. أعتقد أن أحدَ أسباب هذا الفشل هو حقيقة أن العلاقة بين الشخص الأعمى والمبصر ليست علاقة مساواة في كثير من الأحيان. لنفترض أنني أقف، أتحدّث مع الناس عند البار. لنفترض أنني غيّرت من أتحدّث إليهم عدّة مرات، باستخدام تكنيك: «ورقة الكواشف». لنفترض الآن أنني أريد الجلوس. لدي العديد من المشاكل حينها. هل توجد مقاعد شاغرة في الغرفة؟ كيف يمكنُني تحديد أماكنها.

كنت أتحدث إلى صديقة على طاولةٍ، في أحد المؤتمرات،

أشـارت إلـى أنه ليس أمامنا أيّ مشـروبات. اقترحـتُ أن تذهب إلـى البـار وتحضـر المشـروبات لكلينـا. أضفت أنني سـأجلس وأنتظـر عودتها. قالت: «حسـنًا، أين تريدنـا أن نجلس؟»، قلت: «لماذا لا تأخذيني وتضَعي يدي على الكرسيّ الذي تختارين؟»، أمسـكت بيـدي ووضعتها على ظهر كرسـيٍّ، وذهبـت إلى البار. وجدتُ أنني كنت أقف خلف الكرسـيّ، مددتُ يدي إلى الجزء الخلفـيّ وعلـى جانبي الكرسـيّ محاولًا اكتشـاف مـا إذا كان بهِ ذراعين أم لا، فجأةً وجدت أنني أحرّك أصابعي على رقبةِ امرأةّ. ثمّة اِمرأة جالسة على الكرسيّ بالفعل. تفاجأتْ لأن رجلاً غريبًا كان يتحسّسُ رقبتها وكتفيها. سادَ نوعٌ من الذّعر، ومن ثم الكثير مـن الضحكِ والاعتذار. تسـاءلتُ لماذا لـم تضـع صديقتي يدي علـى ظهرِ كرسـيٍّ فارغ؟ هل فشِـلتُ بطريقةٍ ما فـي توضيح أنني أردت الجلـوس؟ ربّمـا اِعتقـدت صديقتـي أنّـه كان فـي نيّتي أن أقِفَ في انتظارها ويدي على ظهر كرسـيّ.

عندمـا عـادت صديقتـي مـن البـار ومعهـا المشـروبات، اعتذَرَت بعد أن رأَت الحادث. ضحكنا واتجهنا نحو الكراسي. قلِت: «دعيني أضَعُ إصبعي تحت مرفقك الأيسَـر إذا سـمحتِ.» لـم تسـمح بذلك. عوضًـا عن ذلك، أمسَـكَت بقوّة يـدي اليمنى بيدها اليُمنى، وسحبت ساعدي تحت ذراعها اليسرى، وأغلقت

ذراعها اليسرى عليهِ بإحكام. كان ذلك شخصًا مُصممًا على عدم ارتكاب خطأ ثانٍ. هذه المرة، لن يكون هناك لَبْس.

بينما كنّا نسيرُ عبر الصالةِ المزدحمة، قلت لها ممازحًا: «كما تعلمين، عليّ أن أدرّب الناس بالطريقة التي يدربون بها الكلاب المرافقة للمكفوفين. لدي طريقة خاصة تتعلّق بكيفيّة إجلاسي على كرسي بذراعين. هل تريدين أن تتعلّمي ذلك؟»؛ ضحكت ووافقت. قلت: «حسنًا، هذا ما نقوم به. عندما نصِل إلى الكرسي، تأخذين يدَي وتضعينها على ظهرِ الكرسي».

عندما وصلنا إلى الكرسي، لم تستطِع فعل ذلك. ربّما كان الكرسي في وضع معيّنٍ لم أفهمه أو شيءٍ من هذا. اقترحت عليها أن تضع يدَها على ظهر الكرسي. فعلت ذلك، لكن شعرت أنّها حائرةٌ تمامًا. ببساطة مددت أصابعي على طول ذراعها حتى تحسّست الجزء الخلفي من الكرسي، لم أعُد بحاجةٍ إلى مزيدٍ من المساعدة. عرفت مكان الكرسي بالضبط، ويمكنني الآن الجلوس في أي وقتٍ أحب بكلِّ كرامةٍ وأمان. رفيقتي، مع ذلك، لم تتركني. قلت مبتهجًا: «شكرًا، كان ذلك جيّدًا للغاية. يمكنك الآن أن تتركيني وسأجلس». كانت مصمّمةً على مساندتي للجلوس على الكرسي، ممسكةً بمرفقيّ من الأمام. بعد بضع مناشداتٍ أخرى أقنعتها بالتخلّي عنّي

وجلست. أقارن هذا بحادثٍ مماثل وقع في اليوم التالي. كنت أسير مع صديقة أخرى قالت: «دعونا نجلس». في حركة سريعةٍ وتلقائيّةٍ وغير مزعجة، أمسَكَت بيدي، ووضعتها برفْقٍ على ظهر كرسي بذراعين، وجلسَت على الكرسي المجاور دون أيٍّ تعليق. أُعجبت كثيرًا بالسّرعة والسلاسة اللطيفة لهذه اللفتة، لدرجة أنني سألتها عمّا إذا كانت معتادةً على العمل مع المكفوفين. قالت: «لم أقابل شخصًا كفيفًا في حياتي من قبل، لكنّني قرأتُ سريعًا ما يتوجّب عليّ فعله». هذه الصديقة، كما تعرّفت عليها، أثبتت أنها شخصٌ يتمتّع بحساسيّةٍ وبصيرةٍ استثنائية.

نعم، بدأت أعتقد أن لديّ بالفعل نوعًا من اختبار الكواشف. ما هي درجة الحرّية التي سيمنحني إياها هذا الشخص الجديد؟ هل سيجِدُ هذا الشّخص المبصر طرَقًا تسمح لي بالحفاظ على أكبر قدرٍ ممكنٍ من الاستقلالية والكرامة؟ هل يرغب هذا الشّخص أن يتملّكني، أن يتحكّم بي، ويجعلني أشعر بأنني أكثر إعاقةً برفض الاِعتراف بمقدرتي على فعل أيّ شيءٍ بنفسي؟ من ناحيتي، كيف يمكنني جعل الأمر سهلًا على المبصرين؟ يبدو أنّ سياستي المتمثّلة في إعطاء توجيهات مبهجةٍ وبسيطةٍ تعمل مع البعض، ولكن ليس مع الجميع.

١٦ يوليو

في الكنيسة، اقترب الشمّاس من مارلين وهي تقف بجواري، وقال لها: «مارلين، هل يرغب جون في المضي قدمًا إلى سكة المذبح[١]؟» لم تردّ مارلين؛ لذلك التفتُّ تجاهه وقلت مبتسِمًا: «نعم، شكرًا جزيلًا، سأمضي قدمًا». سمعت صوتًا طفيفًا من الشمّاس يعكس مفاجأته، وجدت أن الرّجل الطّيب كان مرتبكًا إلى حدٍّ ما لأنني سمعت ما قاله. أكّدت له أنّني سأكون على ما يرام، وسأصعد برفقةِ مارلين كما كنت أفعل عادةً. شكرته على اهتمامه. أعتقد أنّه كان يفترض أنّني أصمّ، حتّى لو كان افتراضي صحيحًا، لماذا لا ينقر على مرفقي ويسألني إن كنت أنوي المضي قدمًا وهل سأحتاج إلى أيِّ مساعدة؟ سأقدّر تلك البادرةَ المراعية لي. أمّا التحدّث عني، بصيغة الغائب، إلى شخصٍ آخر، ذلك أمرٌ مختلف.

غالبًا ما يظهر هذا الموقف عندما أركب سيارة مع مجموعةٍ

---

(١) سكّة المذبح communion rail وهي عبارة عن حاجز منخفض، عادة ما يكون مصنوعًا من الحجر أو الخشب أو المعدن. تنتشر سكة المذبح في الكنائس الرومانية الكاثوليكية والأنغليكانية، وترمز على التمييز بين الحرم (حيث يوجد المذبح) الذي يمثل الجنة، وبقية الكنيسة التي تمثل الأرض.

من الأشخاص الآخرين. «هل ستضع جون في الخلف معك؟». «لا، سأضَعه في المقدّمة معك». «حسنًا، أدخله إذن». عند هذه النقطة أقتحم الحديث، وبصوتٍ عالٍ أقول: «جون لن يوضعَ في أي مكانٍ، شكرًا جزيلًا لكم. يجب أن يُسأَل جون ما إذا كان لديه أي مكانٍ يفضّل الجلوس فيه». عندها، يضحك جميع أصدقائي بصخبٍ، مُمرّرين الاعتذارات في ضحكاتهم. في مناسبةٍ مماثلة مؤخرًا صِحْت: «مهلًا، يا رفاق، لا تتحدّثون عني كما لو أنني لست هنا».

مرةً أخرى جلَبَت صيحتي، مزيجًا من الضحك، والاعتذارات، والاتفاقات، والتهنئة.

إنه، بالطبع، أمرٌ محرج للغاية للأشخاص الأذكياء والحسّاسين عندما يتم القبض عليهم ممارسين لنهج: «هل يتناول السُكّر[1]؟» مع شخصٍ معاق. كل هؤلاء الأشخاص حساسون، ويدركون جيدًا الإهانة التي ينطوي عليها هذا النهج؛ لذا فإن السؤال الذي يطرح نفسه، لماذا يفعلون ذلك؟

(١) في إشارة على التمييز الذي يتعرّض له أحيانًا ذوو الاحتياجات الخاصة، عندما يسأل شخص ما مقدّم الرعاية أو المرافق عن السُكّر عوضًا عن سؤال الشخص (من ذوي الاحتياجات الخاصة) الذي سيتناول المشروب الساخن وبشكل مباشر.

من السهل جدًا تهميش الأعمى، في الواقع، في بعض المواقف يكاد يكون من المستحيل عدم القيام بذلك.

٢٩ يوليو

كنت متوترًا من عدة نواحٍ بشأن زيارتي إلى ملبورن. كنت متخوّفًا من إحساسٍ متجدّدٍ بالخسارة لوجودي في مكانٍ به الكثير من ذكرياتي البصرية. محطة شارع فليندرز[١]، جسر الأمراء، كاتدرائية القديس بولس، والمنظر الشهير للمدينة من الحدائق النباتية على امتداد نهر يارا، كلّ هذه المعالم محفورةٌ بعمقٍ في مخيّلتي. لطالما أحببت المنظر على طول شارع كولينز باتجاه مباني البرلمان الفيكتوري، والأُفق المُمتد على طول طريق سانت كيلدا[٢]، حيث يقف ضريح الذكرى[٣] بجلاله بين المروج والأشجار.

بالنسبة لبرمنغهام، كان لدي ما يكفي من الوقت للتكيّف مع الاختفاء التدريجي للمباني العالقة في ذاكرتي، لمراجعة ذكرياتي شيئًا فشيئًا بينما الناس تخبرني بعمليات هدمٍ هنا

---

(1) Flinders Street

(2) St Kilda Road

(3) Shrine of Remembrance

وترميـمٍ هنـاك. عندمـا أعود فجأة كشـخصٍ أعمـى وانخرِط في عالـم ملـيء بالصّور التي أتذكّرها، أشـعر بحزنٍ عميق. شـعرت بخيبـة أملٍ بشـكل خـاص من فكرة أنني لن أسـتطيع الاسـتمتاع بالسّـاحل. لطالمـا أحببـت خليج بـورت فيليب بأمواجـه العالية ويخوتـه التـي لا تُحصـى، لكـنّ الإثـارة الأكبـر كانـت دائمًا في الساحل الجنوبي الغربي الفيكتوري. هناك يأخذك طريق جريت أوشـين[1]، المقطوع من الجرف، عبر مناظر خلاّبة، وصولًا إلى منطقـة بـورت كامبـل[2]، حيـث تشـكّلت صخـور المنحـدرات وتآكلـت بفعل المّوج، كانت لطبيعةِ المشـهد وجلاله فتنة خالدة وسـحراً مميّزًا. علـى الرغـم مـن أنني لـم أكن أبـدًا محبًـا كبيرًا للتخييـم وللطبيعـة، ولا يمكـن الادعـاء بأننـي خبير فـي نزهات الغابـات، إلا أن الدهشـة تتملّكنـي عنـد رؤيـة التـلال الزرقـاء والرماديـة اللامتناهيـة والجمـال البديـع لنتـوءات الجرانيـت الصخريـة. كانـت جبـال جرامبيانـز[3] مكانًـا مفضـلًا لقضـاء العطلات بالنسـبة للأطفال، منذ أن نشـأت والدتـي عندما كانت

---

(1) Great Ocean Road

(2) Port Campbel

(٣) يشار إلى منتزه جرامبيانز الوطني عمومًا باسم The Grampians، وهـي حديقة ومنتزه وطني يقع في منطقة جرامبيانز في فيكتوريا، أستراليا.

طفلة في بلدة ستاويل[1] القريبة. عندما كنت هناك في ربيع عام ١٩٨٠، تعذّر عليّ الوصول إلى العديد من الأماكن العزيزة والمحفورة في ذاكرتي بسبب ضعف نظري والأرض الصخريّة غير المستوية. كانت ألعاب بلاد العجائب، وغراند كانيون، واختبار الأعصاب، والحوت، والعملاق الساقط تتلاشى بالفعل. ربما اختفت هذه الأشياء الآن.

كنت أكثر قلقًا بشأن الأشخاص الذين سألتقي بهم. كنت أعلم أنّني بلا شكٍّ سأتسبّب بالألم للأشخاص الذين أعرفهم وأحبّهم لمجرّد معرفتَهم بعماي. شعرتُ بالقلق والخوف من فكرة أنني سأضطر إلى إعادةِ تكوين معرفتي بهم على أساس الصّوت واللمس، تمامًا كما كنت أفعل في إنجلترا، عند لقائي بأشخاصٍ لأول مرة. كل ذكرياتي البصرية لتلك الوجوه أصبحت الآن في أحسن الأحوال غير ذات صلة، وفي أسوأ الأحوال عائقًا فعليًا لتكوين علاقةٍ حقيقيةٍ وحديثةٍ معهم.

كنت منزعجًا أيضًا من فكرة حرماني من روتيني لأسابيع عديدة. كان عليّ أن أتعلم وأتدبّر طريقي خلال العديد من المنازل والمباني الجديدة، وأن أكون على درايةٍ بالأواني

(1) Stawell

المنزليـة الجديـدة، وأن أعـرف أسـماءَ العديـد مـن الأشـخاص الجُدُد. شـعرت بالخوف من أنني سـأكون أكثر تهميشًـا في هذه الحالة، بل أكثر سـلبيةً مما أنا عليه في مثل هكذا أيام.

يجـب أن أعترف أن كلَّ هـذه المخاوف تحقّقت. بعد ثلاثة أو أربعـة أيـام، أصبـتُ بنوبةِ ربـو حـادّةٍ لازمتني لعشـرة أو اثني عشـر يومًـا. كنـت مسـتوعبًا لكميّة المعانـاة ولقَـدْر الكمَد. أحد خيوط هذه المعاناة محاولة الأشخاص الذين يحبونني التواصل معـي. كان عليهـم أن يعتـادوا علـيّ مـرةً أخـرى. جلسـت أمـي بجانبـي فـي محميّـة طبيعيّـة، بينمـا كان الأطفـال يسـقون كنغرًا صغيـرًا زجاجـةً من الحليب. مسَـحت على يدي بلطـفٍ، قائلةً: «يجـب أن ألمسَـك؛ لأنني أشـعر أن هـذه هي الطريقـة الوحيدة التـي يمكننـي من خلالهـا الاقتراب منـك الآن». كنت أتوق إلى تواصـلٍ أكثـر فوريّـة مـع أحبائـي عوضًـا عـن ذلـك التواصـل التدريجـيّ البطـيء، الذي يسـتغرق وقتَه، يومًا بعـد يوم، لتكوين الانطباعـات والتواريخ والأصوات التي يتطلّبها العمى.

فـي وجود أولئك الذين غِبتُ عنهم لفترةٍ طويلة، أريد شـيئًا أكثـر منهـم. أريـد أن أكون حاضـرًا على الفـوْر، وأن أكون ذلك الشـخصُ الـذي يتذكّرونـه مـرةً أخرى. أريـد أن تتـمّ تحيّتي من

الشـخص الـذي أحبه في شـكله الذي أتذكّره. عـدم القدرة على تجربة هذه المشـاعر، ليس فقط سببًا للإحباط وإنّما، للأسى.

أسـتطيع تحمّل ضياع معالـم المدينة والبحر والرّيف. لكن، هنـاك مشـكلةٌ في مشـاركة تلك المعالـم. يصعبُ علـيّ أن أظلّ دائمًا مهتمًا ومتحمسًا عندما يشير الناس إلى الأشياء ويذكرونني بالمنظر الجميل الذي يمكن للمرء رؤيته من تلك البقعة. أشـعر بارتباكهم حيال محاولتهم مسـاعدتي في مشاركة ما يُمتعهم وما يُشـعرهم بالدّهشـة والاعتزاز، كيف يمكنهم إشـراكي في جديد الأحـداث حولهم، وجذبي إلى عالمهم الذي يحبّون.

مـا زلت أجِد صعوبـةً في التخلي عـن دوري كأب، بصفتي الشـخص الأنيس الذي يجعل الآخرين دائمًا يشـعرون بأنهم في بيتهـم. كيـف يمكنني أن أكـون رفيقًا يُعتمد عليـه؟ كيف يمكنني بعـد الآن أخذ زمـامِ المبادرة في الحكايـات والنكات؟ ماذا عن دوري كقائـدٍ ودليـلٍ لأولادي؟ أدركُ تمامًـا صعوبـة تعريفهـم بالمـكان حولهم. بينما كُنّـا نتنقّل، أردت أن أقول: «انظروا! هذا هـو المكان الذي فعلنا فيـه كذا وكذا. هناك المكان الذي حصل فيه كذا. في ذلك الشـارع كنـت أعيش ذات مرّة. هناك! يمكنكم إلقاء نظرةٍ على مدرسـتي القديمة». لا يمكنني حتّى أن أشير إلى

الحيوانـات الغريبة للأطفال ما لم أحصل على وصفٍ لشـكلها. توقّعت أنني سـأكون قادرًا على القيام بكل هذه الأشياء، ويجب أن أكون قادرًا عليها. خلال العشرة أو الاثني عشر يومًا الأولى، كنـت أقاتـل للسـيطرة على مشـاعري، وشـعرت باسـتمرار أنني علـى حافـة الذّعـر والإرهـاق. كل الدّفاعـات التي بنيتهـا كانت مُهدّدة.

في منتصف كلّ هذا، حلمت حلمًا غريبًا ومثيرًا للإعجاب. كنـت ذاهبًـا إلـى جامعـة كامبريـدج للتسـجيل والحصـول على درجـة الماجسـتير في اللاهـوت، والالتحاق بكليـة جونفيل آند كايـوس[١]. فجأة كان مطلوبًـا مني الجلوس للورقـة النهائية من الامتحـان، مـع جميـع المرشّـحين الآخريـن الذيـن تمكنوا، مع ذلـك، مـن إكمال الـدورة طوال العـام. كنت أغالـب نفسـي وأنا أُجيب أسـئلة الامتحـان، وأعرف أنني في وضعٍ غير مُبشّـر. بعد الاختبـار، اسـتلمت بيـان مالّـي بمـا قـد يكلفنـي العـام، إذا تـم تسجيلي بنجاح. أُعطيتُ الفاتورة من قبل القسّ جاك نيوبورت[٢] (الـذي كان فـي الواقـع معلمّـي عندمـا كنـت فـي كامبريدج من

(١) كليـة جونفيل وكايـوس Gonville & Caius College وهي كلية مكوّنة وجزء من جامعة كامبريدج في كامبريدج، إنجلترا.

(2) Rev. Jack Newport

١٩٥٩ إلى ١٩٦٢). بلغت قيمة الفاتورة ٢٦٠٠ جنيه إسترليني، شعرتُ بنوعٍ من الصدمة وأدركت أنني لم أقدّم أي طلباتٍ بعد إلى الصناديق للحصول على منحة. يجب أن أتخذ خطوات فوريّة لأوضّح لإدارات الكلية أن العمل الذي أدّيته على ورقة الامتحان لا ينبغي أن يُقارن بأداء المرشحين الآخرين؛ لأن هناك سوء فهمٍ رهيب، فما كان عليّ أن أدخل هذا الامتحان. بقية الحلم كان تجوالًا في أنحاء الكلية القديمة المؤثّثة بشكل رائع، رأيتني في ردهاتها المزيّنة بالتحف العتيقة، وبين طلابها المُتجمهرين في كل مكان، ومن خلال أبوابها الغريبة والمثيرة للاهتمام، قرأت أسماءً هامّة في هيئة التدريس ممن كان على المرء أن يحدّد مواعيد معهم.

الشيء الذي عَلِقَ في ذهني هو أن الحُكْم عليّ كان يَحصُل في سياقٍ مليءٍ بارتباطات الماضي الجميل الذي كنت أعيشه، هكذا كان يُساء فهمي؛ ذلك أنّني لن أتمكن الآن من العودة إليه. ألوم نفسي؛ لكوْني أعمى، وأعتَبُ على نفسي؛ لأنني على الهامش، وأنتقد نفسي؛ لأنني لم أفعل المزيد لوالدي وزوجتي وأولادي. ألوم نفسي؛ لأنّني لا أستطيع منحهم حياةً أفضل، وأنني لا أستطيع أن أُشعِرهم بفضل تواجدهم هنا في هذا البلد الرائع.

الشيء الوحيد الذي لم أشعر به، مقارنة برحلتي إلى هنا قبل أربع سنوات، هو الشعور بالاستياء من العالم المُبْصر. لم أشعر أبدًا كما لو أنني أريد الانسحاب من عالم المبصرين لأفقِد نفسي في عالم أقل تطلبًا وأكثر راحة، عالم المكفوفين الذين يفهمونني.

لقد ساعدتني مارلين كثيرًا خلال أزمتي الحالية، ظلّت تقول لي أنه يجب أن لا أضع نفسي تحت مثل هذه المطالب، وأنه يجب أن لا تكون لدي مثل هذه التوقّعات. لقد شعرت بالارتياح أيضًا بتذكير نفسي بكلماتٍ من الخطبة الشهيرة لبول تيليش[1]: «أنت مقبول». أنا مقبولٌ في العمى. أنا مقبولٌ كشخصٍ أعمى.

شيئان آخران ساعداني. أولاً: أتاحت المدرسة الابتدائية التي تدرّسُ فيها أختي الكبرى مكتبًا لاستخدامي. تأخذني أختي في سيارتها كل صباح في طريقها إلى المدرسة، لدي أجهزة التسجيل في المكتب هناك، حيث أعملُ طوال اليوم الدراسي. أنضَمُ إلى الموظفين والمدرّسين في استراحات الشاي وفي وقت الغداء. بعد المدرسة، أعود مع أختي وأقضي فترة ما بعد

(١) بول تيليش Paul Tillich فيلسوف ولاهوتي ألماني أمريكي (١٨٨٦-١٩٦٥)

الظّهـر والمسـاء مـع العائلة والأقـارب. صنع ذلك نمطًـا منحني إحساسًـا بالألفـة. ثانيًا: اكتشـفت أنه يمكنني التحكّـم في نوبات الربو عن طريق التنفّس. لا بدّ وأنّني رأيت العشـرات من الأطباء علـى مرّ السـنين، لكن أحدًا لـم يخبرني أنه بإمكانـي التحكّم في نوبـة الهلَـع وبالتالـي السـيطرة علـى النوبـة الفعلية للربـو بطريقة تنفّس بسـيط، اكتشـفتها خـلال اليوميـن أو الثلاثة أيـام الماضية. طريقـة التنفّـس مـن خلال البَطـن، اسـتطعتُ إيقـاف الأزيز. بعد عشـرة أو عشـرين نفسًـا يتلاشـى الشـعور بالهَلَع ويصبح التنفّس أسـهل. عوضًـا عن الخوف مـن فكرة أنني قد أمـوت في غضون ثـلاث أو أربـع دقائـق، أعـرف الآن أنّني قـد وصلت إلـى النّفَسِ السـابع أو الثامـن، وفـي غضـون عشـرة أو اثني عشـر نفَسًـا آخر سينتهي الأسوأ. إنها طريقةٌ تعمل. إنها تقاتل العدو.

٣٠ يوليو

ربّما كان رأيي السـابق بأن مكانًا ما يشـبه الآخـر، رأيًا مبالغًا فيـه. بالأمـس، ذهبـت العائلـة بأكملهـا إلـى حديقةٍ تبعـد حوالي عشرين ميلاً عن جيلونج[١] تسمى: فايري بارك[٢]. المكان عبارة

(١) جيلونـج Geelong مدينـة سـاحلية تقع فـي ولايـة فيكتوريا، إلى الجنوب الغربي من ملبورن، جنوب أستراليا.

(2) Fairy Park

عـن نتـوءٍ ضخم مـن الجرانيت، فيـه صخور ضخمـة تتقاطع مع الأخاديد والوديان، تمّ تصميمه كمنطقةٍ للشواء فيها ممرّات مشي متعرّجـة تمـرّ بيـن الصخور، يتخللهـا عروضٌ موسـيقيّة لقصصِ الأطفال الأسطورية. عروضٌ لدُمى متحرّكة تقفُ خلف الزجاج، والـذي يبـدو وكأنـه نوافذ متاجـر. ينتقل الأطفال مـن عرْضٍ إلى آخـر بحماسةٍ وابتهاج، يقومـون بضغط الأزرار التـي تعمل على تحريك العروض، وتشغيل الموسيقى والقصّة.

خرجـت مـن هناك ولـديّ انطبـاعٌ واضـحٌ عن المـكان. لم أشـعر بالبُعْـد والانفصـال؛ ربّمـا لأننـي تمكنت من القيـام بدور نَشِـطٍ فيـه، قمـت برَفْـع الأطفـال لأعلـى حتّـى تتوافر لهـم رؤية أفضـل، أو ليتمكّنـوا مـن الضغـط علـى الأزرار، ولأن أغانـي الأطفال والحكايات الأسـطورية كانـت مألوفةً لديّ؛ لذلك كان هنـاك الكثيـر لنتحدّث عنه. كان الوصول السـمعي المباشـر إلى العـروض أمـرًا مهمًـا. كنـت أعـرف مـا كان يجـري، لسـماعي التعليـق. كنـت أجيب على أسـئلة الأطفـال، وأضغطُ باسـتمرارٍ علـى الأزرار ومـا إلى ذلك. تمشّـينا بعد ذلك، صعـودًا وهبوطًا علـى المنحـدرات الصغيـرة، مـروراً بالفجـوات بيـن الصخـور الخشـنة والوديان الصغيرة، ذهبنا أيضًا إلى الكهوف أو المناطق المغطّاة الأخرى، شـعرت بالفرق في صوت الصدى والتغيّر في

درجة الحرارة، خاصةً عندما انتقلنا من مكانٍ مكشوفٍ بارد إلى مكان مُغطّى لا يزال الهواء فيه دافئًا. وصلنا إلى أعلى نقطة، مطلّ مرتفع للمراقبة. شعرتُ بالدرابزين وبالمساحة الواسعة المفتوحة أمامي. كانت حركة الهواء مختلفة تمامًا. كنت أسمع من قبل صدى خطوات الأطفال الذين يركضون، أصبحت الآن أسمع صرخات النوارس، والضوضاء القادمة من فرن الطوب البعيد في الوادي، وحركة المرور في الطرق البعيدة، والتعليقات المبتهجة للمبصرين المُجتمعين على طول القضبان الممتدة والمجاورة لي. أخيرًا، عدنا إلى منطقة الجلوس، شعرت بالمقاعد الخشبية المحفورة، وأحسست ببلاط الفسيفساء الذي يربط مختلف المرافق. ساعدتني حقيقة أنّنا تجولنا في أنحاء المنطقة على إدراك أبعاد المكان وجعلتني أشعر أنه بالفعل مميّز.

١٣ أغسطس

الجمعة الماضية حلمت حلمًا مؤثّرًا. حصَلَ بالكامل في أعماق المحيط. لم يحصل أيٌّ شيء فوق السطح على الإطلاق. كان يشبه إلى حدٍّ ما مشاهدَ من فيلم: محطة الجليد زبرا[١]،

---

(١) محطة الجليد زبرا Ice Station Zebra فيلم تشويق وتجسس تدور =

أعتقد أن ذلك اسمه، والذي كان فيه غواصة نووية تمُرّ من تحت الغطاء الجليدي، باستثناء أنّ في الحلم لم يكن هناك غطاءً جليديًّا؛ كُنّا في أعماق المحيط القاتمة. كان الحُلم مُقسّمًا بين مشاهدَ من خارج الغوّاصة، ومشاهدَ من الداخل. كان للغوّاصة هيكلٌ ضخمٌ، يشبه إلى حدٍّ ما صحنًا طائرًا عملاقًا مستطيلًا ومزوّدًا بمحركات نفّاثة، يسافر عبر أعماق المحيط. لم يكن طويلًا ورفيعًا، كما قد تكون الغوّاصة، لكنّه ضخمٌ ومدبّبٌ. من داخل الغواصة كان الطاقم يحاول فهم وقراءة الشاشات، لم يتمكّن أفراده من معرفة ما إذا كانت المركبة تسير للأمام أو للخلف. أنا نفسي لم أكن في الحلم. كنت أشاهد كل هذا، كما لو كنتُ في السينما. كان الطاقم يراقب باهتمام عبر النوافذ ما في خارج الغواصة. كانت النوافذ محجوبة بغشاوةٍ متذبذبةٍ ومضيئة، مثل تلك التي أراها الآن في عيني اليمنى. دار نقاش حول ما إذا كانت هذه الآثار والغشاوة تقترب من السفينة أو تغادرها. أخيرًا، كانت هناك صورةٌ من الخارج للغّواصة وهي تلامس قعرَ المُحيط. لقد وصلت إلى وضعٍ محفوفٍ بالمخاطر.

= قصته حول غواصة نووية تسافر إلى القطب الشمالي في محاولة لإنقاذ طاقم في إحدى محطات الطقس، الفيلم من إنتاج سنة ١٩٦٨ وإخراج جون ستورجس.

كان الانطباع الرئيسي الذي تركه الحلُمُ هو أن للغوّاصة وزناً هائلاً وثقيلاً، وقوةً كبيرةً تجعلها تتقدّم بثبات، غير أن المسؤولين عنها لا يعرفون في أي طريق هي تسير.

لم يكن هناك أثرٌ للعمى في هذا الحلم. كان مُشبّعًا بالألوان الجميلة والبديعة. رأيت درجات الأزرق والأخضر العميقة للمحيط، وأضواء الغواصة وهي تسير، هيكلها الرّمادي والأبيض، والخطوط المضيئة التي تركتها وراءها.

من الغريب أنني أصبحت أعتمد على الأحلام للترفيه. أصبحت أستغرق في مثل هذه الأحلام، وكأنني أشاهد فيلمًا ملحميًّا وأُفتن به. نادرًا ما يجيء إليّ العالمُ الخارجي بمثل هذه الحيوية.

على الرغم من أن الحلم كان قويًّا، ونقل صورةً من الخطر والتهلكة، إلا أنه نقلَ في ذهني المستيقظ نوعًا من الودّ، كما لو أن الأعماق تُدرِك مشكلتي، وتحاول مساعدتي في وصف الأشياء بالنسبة لي. كانت الغوّاصة عمياء وترى كما أرى. لكن المحيط أيضًا كان أعمى، تحرّكت الغوّاصة في أعماقه وحاولت العثور على الاتجاه والمسار. الآن أنا المحيط. الآن أنا الغوّاصة. أنا أيضًا الغوّاصة والمحيط في ذات الوقت. الحلم هو أنا ومع ذلك فهو أعظم مني.

* * *

وصلـت إلى ملبـورن مع العائلة منذ حوالي شـهر. هذه هي الزيـارة التـي طـال انتظارهـا لأقاربـي، والمحاولـة التـي طـال انتظارهـا للتعـرّف على والديّ مرةً أخرى كشـخصٍ أعمى. كان والداي رائعين ومتفاهمين. ما زلتُ أجِدُ التجربة صعبةً ومزعجةً بشـكلٍ خـاص؛ أن ينقطع المرء عن الأشـخاص الذيـن يحبونه، وأن يتعلّـم التواصل معهم من جديد، بدون رؤية وجوههم.

كانـت طفولتـي في ملبـورن. واجهـت الماضي هنا بشـكلٍ غريـب. غـادرت أسـتراليا للدراسـة فـي إنجلترا في سـن الرابعة والعشرين. هذه هي المرة الرابعة التي أعود فيها. زيارتي لوالدَيّ تجعلنـي دائمًـا ما أربطُ بين إيماني بالله وعلاقتي بهما. ليس لدي أدنـى شـكٍّ فـي أن علاقـة حبي مـع الله هـي، جزئيًا علـى الأقل، تعبيـرًا عـن محاولتي المسـتمرة طـوال حياتي للتعـرف على أبي وحبّـه، ورغبتي في أن يحبّني ويعرفني.

٦

حوْل المنعطف

خريف ١٩٨٤

١٩ أغسطس

أمضَيتُ الآن حوالي أربع سنوات أعاني من مشكلة التحدّث في الأماكن العامة دون ملاحظات. عندما كنت محاضرًا مبصرًا، لم أضطر مُطلقًا إلى القراءة من نصٍّ ما، إلا عند الحديث عن مسألةٍ خلافيّةٍ وجدَلية. ما أحتاج إليه في العادة هي قائمة بالعناوين، مقسّمة إلى أقسامٍ وعناوين فرعية. بالطبع، إذا كنت سألقي ذلك النوع من المحاضرات التي تتضمّن الكثير من الأرقام أو الإحصائيات التاريخية، فسأعود إلى نصٍّ مطبوع.

بعد فقدان البصر، جرّبت طرقًا مختلفة للتعامل مع هذه المشكلة. جرّبت عمل ملخّص على الميكرو كاسيت واستخدامه كوسيلةٍ للتلقين. كانت المشكلة أنّه إذا لم أكن بحاجةٍ إلى أي تلقينٍ حتى وقتٍ لاحقٍ من المحاضرة، فسيتعين عليّ تشغيل

الملخّص من بدايته في الكاسيت حتى الوصول إلى النقطة التي أريدها، وذلك يستغرق بضع ثوانٍ. كما أن تحديد النقطة بحدٍّ ذاتها أمرٌ صعبٌ للغاية، ما يضعني في وضعٍ محرجٍ أمام الجمهور ويؤكّد لهم أنني أضعت الحديث.

أحيانًا أُسجّل ملخصًا موجزًا لما أرغب قوْله، مقسمًا الموضوع إلى أقسامٍ. أقوم في المحاضرة بتشغيل ذلك الملخّص القصير للحضور، وأتحدّث ببساطةٍ حوله. كان ذلك مجرّد نجاح جزئي. قد يجد المستمعون صعوبةً في سماع ما يُقال من المسجّل وأضطرُّ إلى تكراره، مما يضيع الكثير من الوقت. كان أسلوبًا يفتقد للمرونة؛ لأنّه يُلْزمني بتسلسلٍ ثابتٍ وقدرٍ كبير من التحضير الشاقّ، ما يؤثّر سلبًا على أسلوبي غير المتكلّف وقدرتي على الاستجابة لاحتياجات اللحظة.

حاولت أن أُملي على نفسي بتسجيلِ الخطاب بأكمله، أو الملخص، وباستخدام سدّادة الأذن. حاولت لفترةٍ من الوقت الاستماعَ والتحدّث في ذات الوقت، لكن بعد تجربةٍ أو تجربتين كارثيتين، تخلّيت عن الأمر. حاولت استخدام عناوين بطريقة برايل. لم يكن ذلك يتطلّب تحضيرًا شاقًا فحسب، ولكن لغة برايل الخاصة بي لم تكن جيدةً بما يكفي.

لم أتمكّن من المَسْـح بأصابعي بسرعةٍ كافيةٍ لإخراج نفسي من مأزق نسـيان ما كنت سأقوله.

فـي النهاية، طوّرت عادةَ تسـجيل خلاصـة المحاضرة على الكاسـيت والاسـتماع إليهـا، وإعـادة الاسـتماع إليهـا حتى قبل إلقـاء المحاضرة بلحظات. كنت آخذ المسـجّل إلى المحاضرة؛ لأنه يشعرني بنوعٍ من الأمان، على الرغم من أنني نادرًا ما أحتاج إلى الرجوع إليه.

خلال دورة للمعلمين في كانتربري[1] في ربيع عام ١٩٨٢، كنـت جالسًـا فـي غرفتـي أسـتمع بحمـاسٍ إلـى الملخـص، وإذ بصديقتـي تناديـني لتقديـم محاضرتـي علـى المسـرح. عندمـا أدرَكـت مـا كنت أفعلـه، قالت لي: «اترك عنـك ذلك الآن، انس كلّ هذه القمامة»،»لا تقلق، لن تنسى. تعال فقط وتحدّث إلينا». وذلـك ما فعلت، وكان نجاحًا كبيرًا.

يبـدو الآن أنني قد طوّرت طريقةً لاستكشـاف ما في ذهني، لمعرفـة ما سـأقوله. يفعل الجميع ذلك فـي الكلام العادي، وإلا لـن نتمكّـن مـن إكمال جملـةٍ. بطريقةٍ أو بأخرى، وبـدون جهْدٍ،

---

(١) كانتربري Canterbury مدينة في جنوب شـرق إنجلترا، بناها الرومان في الأصل وفيها كاتدرائية كانتربري الشهيرة، تأسست عام ٥٩٧ م.

طورت منظورًا أطول، والآن عندما أتحدّث يمكنني رؤية فقرات الحديث تخرج من فجوات دماغي. الأمر يشبه إلى حدٍّ ما القراءة من الماسح الضوئي. أثناء حديثي، هناك جزءٌ آخر من ذهني يقوم بفرز ما كنت سأقوله في الدقائق القليلة القادمة إلى فقراتٍ، وهناك جزءٌ آخر بعيد يقوم بتحديد خطوط للحديث بديلة، يستخرجها من بنك الأفكار. يبدو أن هذا يمنح أسلوبي في المحاضرة حِسًّا أكبر من التنظيم، ويبدو أن الحاضرين قادرون على متابعتي بسهولةٍ أكبر.

يمكنني في كثير من الأحيان الرجوع إلى ما قلته، أي يمكنني تذكير جمهوري بنقطةٍ أشرت إليها تحت العنوان الفرعي ٢ (أ) وقبل عشر دقائق. يجد الناس ذلك مفاجئًا، لكنه في الواقع ليس كذلك. إذا لم تكُن لدي المادة في أقسام من هذا القبيل، فلن أتمكن من المحافظة على انسيابية حديثي على الإطلاق. تعلّمت هذه العادة الصغيرة، على ما أعتقد، من سماع مقالات الطلاب وهي تُقْرأ لي. غالبًا ما يتفاجأ قرّائي عندما أقول: «عُد إلى ما قيل في الصفحة ٣ ضمن القسم ٤ (و)». لم أبذل أي جهدٍ في تعلّم كيفية القيام بذلك؛ إنه لأمرٌ مُتعب أن تعود وتقرأ المقال بالكامل مرةً أخرى. في الغالب أقوم لا شعوريًّا بعمل ملاحظاتٍ ذهنيّة لبُنْية المقال بحيث يمكنني

العـودة إليهـا مـرةً أخـرى إذا لـزَم الأمر. فـي حال عـدم مقدرتي العـودة إليهـا، فـإن ذلك يرجـع بالضـرورة لعدم تركيزي بشـكل كافٍ أو لأن بُنيـة النـص التـي قُرئـت عليّ كانت غامضـةً للغاية. أعتبـر الأمـر نوعًا مـن المهارة العقليـة التي تعلّمتها من سـماعي لأشرطة الكاسيت وفرضت عليّ.

يميـل المؤلـف المُبصـر إلى تقسـيم عملـه إلى فقـراتٍ بأثرٍ رجعي. ترى الأشياء تنبسط على الآلة الكاتبة أو الشاشة، وتعتقد أن الوقت قد حان لبدءِ فقرةٍ جديدة. الشـخص الذي يسـتمع إلى الكتـب الموجـودة علـى الكاسـيت، حيـث لا يشـار عـادةً إلـى الفقـرات الفعليـة فـي الصفحـة المطبوعـة، يقـوم بصنـع فقراتـه الخاصـة، وعنـد التأليـف يميـل إلـى طـرح فقراتـه فـي تخطيـطٍ مستقبلي. أعتقد أن هذا يساعدني أيضًا في تنظيم المواد الخاصة بـي مسبقًا عندمـا أتحدّث فـي الأماكـن العامة. يركّـز المحاضر المبصر الذي يقرأ من مخطوطة مطبوعة بشـكل أساسـي على ما قالـه، أي أن الفقـرات تُفْلِـت وراءه بينما «يسـبح» إلى الأمام من خـلال حديثـه. يجـب علـى المتحدّث الأعمـى أن يركّز بشـكلٍ كاملٍ على ما سـيقوله، أو ما سـيقوله بعد خمس عشرة دقيقةٍ من الآن؛ لأنـه قد يفقـد اتجاه الحديث. إنه غيـر معصومٍ من الخطأ، لكـن يبدو أنها طريقةٌ تنجحُ في معظم الأحيان.

٢١ أغسطس

حلمـتُ الليلـة الماضيـة حلمًا غزيـر الألوان. حلمـت أنّني استيقظت مـن السـرير، وكنت جاثيًا أو جالسًـا بجانب السـرير، ربمـا كنـت أبحثُ عن نعلي أو شـيءٍ من هذا القبيـل. وإذ بطفلةٍ صغيرةٍ تسـير في الغرفة. كان بإمكاني رؤيتها بوضوحٍ في الضوء الخافـت. فـي الحلـم، كنت أعلـمُ أنّنـي أعمى، وأن هـذه كانت المـرة الأولـى التـي أتمكّـن فيهـا مـن رؤيـة الطفلة. حدّقـت بها والدّهشـة تملؤني مسـتغرقًا في تفاصيل وجهها وهي تقف هناك مبتسـمةً، تمُـدُّ يديهـا نحـوي. كان ذلـك أشـبه بوحـيٍ. قلتُ في نفسـي: «إذن هـذه هي. هـذه هي الابتسـامة التـي يتحدّثون عنها جميعًـا. هـذه هـي تلك العيـون البُنيّـة النيّرة». شـعرتُ بعد ذلك بشعورٍ جديدٍ وغريب، شعرتُ أنها كانت مندهشةً لأنها أدركت، بطريقـةٍ مـا، أن هنـاك شـيئًا مختلفًا عنـي، وأنني كنت أسـتجيب بطريقـةٍ جديـدةٍ لهـا. وقفنـا هناك فـي صمتٍ تـامٍّ، أو على الأقل جلسـتُ هنـاك، ووقفـتْ بجانبـي. حدّقنـا في بعضنـا البعض في لحظةٍ من البهجةِ المتبادلة. ثم تلاشـى الحلم.

هـل كان هـذا حلمًـا صغيـرًا أم حلمًا كبيرًا؟ هـل كان مجرّد تحقيـق لأمنيـةٍ أم كان هـذا مثالاً على ما يسـميه يونغ[1] النموذج

(١) كارل غوسـتاف يونغ Carl Jung عالم النفس السويسـري ومؤسـس=

البدئـي للطفل الإلهي[1]، وهو نوع الأحلام التي كان يرويها عن مرضاه عندما تتكوّن شـخصيةٌ جديدة بدءًا من طوْر الولادة. لقد كانت الطفلة التي زارتني في الليل تشـعُّ بالبركة.

* * *

هـذا الصبـاح بينمـا كنـت أقـوم بتجفيفـه بعـد الاسـتحمام، سـألني تومـاس عن المنشـفة التـي اسـتخدمتها لتجفيـف ليزي. أجبتـه أننـي لا أعرف، فسـألني: «هل هي بيضـاء؟». مرةً أخرى، أجبتـه بأنني لا أعرف، سـأل: «هل تعـرف أمي؟»، وعندما قلت: «نعم» سألني: «لماذا تعرف أمي».

«لأن أمّك يمكنها رؤية الألوان».

«ألا يمكنك رؤية الألوان؟».

«لا».

«لماذا لا يمكنك رؤية الألوان؟».

= علم النفس التحليلي (١٨٧٥ - ١٩٦١)

(١) الطفـل الإلهـي أو الطفـل الداخلـي archetype of the divine child وهـي شـخصية فرعية في إطار التركيب النفسـي، تشـمل كل ما تعلمه المـرء واكتسـبه أثنـاء الطفولـة، وتمثّـل كيانًا شـبه مسـتقل يتبـع للعقل الواعي.

«لأنني لا أستطيع رؤية أي شيءٍ. أنا أعمى».

«أوه».

يتكوّن مفهومُ عدم القدرة على الرؤية من أجزاء كثيرة. لا يجمع الطفل هذه الأجزاء في فكرةٍ كليّةٍ واحدةٍ، كما يفعل البالغ. لا يدرك الكثير من البالغين حقيقةَ أن لا فائدةً من قول: «إن شيئًا ما هناك» لشخصٍ أعمى. يجب استخدام الكلمتين: «هنا» و«هناك» بطريقةٍ مختلفةٍ مع المكفوفين. قد نقول إن ذلك البالغ لم يدرك التداعيات اللغوية المترتّبة على العمى. قد لا يدرك الطفل تداعيات اللون على العمى. قد يتفاجأ شخصٌ بالغ من كوْن أن الطفل لا يدرك أن الأعمى لا يستطيع رؤيةَ الألوان، ولكن أيضًا قد يتفاجأ الأعمى بأن الشّخص المبصر لا يدرك تداعيات الألفاظ المترتّبة على مفهوم العمى.

كانت هذه أول مناقشةٍ أجريتها مع توماس حول اللون، على الرغم من وقوع حادثٍ قبل حوالي أسبوعٍ جعلَهُ يفُكّر في مشكلةِ الحركة عند المكفوفين. استغرقَ الأمرُ وقتًا طويلاً حتّى تعلّمت كيف كان منزلنا مُصمّمًا ومنسّقًا في ملبورن. أثناء خروجي من السيّارة، حاولت التوجّه بمفردي نحو الباب الأمامي للمنزل. اتّجهت إلى الجانب الأيسر من المنزل بدلاً

مـن الجانب الأيمـن، ناداني أحد البالغيـن الموجودين ضاحكًا: «فـي هـذا الاتجاه يا جون». قال توماس:» كان يسـير في الاتجاه الخطـأ. كان سـيذهب نحـو البوّابـة». اسـتمرّ فـي تكـرار ذلـك، متفاجئًا ومبتهجًا، بينما كُنّا نسير. لست متأكدًا ما إذا كان قد ربطَ غلطتي بالعمى، أو كان يعتقدُ فقط أنني فعلت شـيئًا مضحكًا.

١٩ سبتمبر

استمتعت حقًـا بالسّـفر فـي مترو أنفـاق لندن يـوم الجمعة الماضـي. الأسـطح أكثر سلاسـة للمشـي مـن ممـرّات وأرصفةِ الشّـارع. تعلّمـت طريقـةً أفضـل للصعـود والنزول من السـلالم المتحرّكة، وهو ما أسـعدني، وجدت الإحساس بالريح في مترو الأنفـاق مثيـرًا إلى حدٍّ ما. عندمـا تمرّ القطـارات، تندفع تياراتٌ الهـواء علـى امتداد المنصّـات والأنفاق وحتى السّـلالم. مُفعمَةً برائحـة الصّحـف والمعـادن والزيوت، إلـى جانب آثـار لرائحة السّيجار والطعام وملابس الناس.

الأكثـر إثارةً للاهتمام كان القطار نفسـه. بين المحطّات، لا يوجد شـيءٌ يمكن رؤيته عبر النوافذ، لذلك لم أشـعر بالإحباط مـن ضيـاع المنظـر. وجـدت أنّـه يمكنني بسـهولة التمييـز بيـن الاحتـكاك المعدنـيّ للعجـلات علـى القُضبـان، والـدويّ

الميكانيكـي للمحـرّكات أثنـاء تجميـع القطار للطاقة، وكشـيش فتح وإغلاق الأبواب الأوتوماتيكية، وضوضاء الهواء المتسـارع في النفق نفسـه. صوت الريح عندمـا نقترب من المنصة يختلف تمامًـا عـن صوتها عندمـا نغادرها. بالإضافة إلـى كل هذا، هناك ضوضـاء بشـرية، محادثـات فـي المقصـورة، صـوتُ خطـوات الـركّاب وحركتهـم، ضوضـاء الخلفيّـة الكاملـة للمحطـة والتي تفيـض إلـى المقصـورة في كل مـرةٍ تُفتـحُ الأبواب فيهـا. يتكرّر المشـهد البانورامـي بأكملـه كل دقيقتيـن أو ثـلاث دقائـق، وهو الوقـت المسـتغرق للانتقـال من محطّـةٍ إلى أخرى. ثمّة تسـارعٌ يُسـرع ويُسْرع حتى نصل إلى السرعة القصوى. تُسحَبُ الفرامل بعـد ذلك ويبـدأ التباطؤ. نصِلُ إلى محطةٍ جديدة، نتوقّف بفرملةٍ أخيـرة، وتبدأ العمليـة برمّتها مرة أخرى. عـلاوةً على ذلك، فإن الأصوات تغمرني تمامًا.

٢٠ سبتمبر

أدركت أن شـدّةَ شـعوري بالعمى تتناسـب مع وجودي مع الأشـخاص الذين أتوق إلى مشاركة حياتهم. على سبيل المثال، لا أشـعر بالعمـى عندمـا أكـون فـي العمـل. معظـم مـا أفعله في الجامعـة يتم بشـروطي وعلـى طريقتي. يجـب أن يتكيّف الناس

مـع يوميّاتـي، أن يأتـوا إلـى مكتبـي، وأن يعتـادوا على أشـيائي، وطريقـة عملـي. مشـاركتنا هناك هي مشـاركة للأفـكار أكثر من كوْنها مشاركة للحياة.

مع العائلة، الأمر مُختلف. خلال عطلة نهاية الأسبوع هذه، أصبحت مدركًا لكيفية ممارسـة الأطفال المبصرين لحياتهم في العالـم المرئـي. ألعابهـم وروح الدعابـة عندهـم، ملابسـهم وتعثّرهم، كل شيء في سياق ما يرونه. وعلى النقيض من ذلك، أصبـح لـدي يقيـن أننـي لسـت حاضـرًا عنـد هـؤلاء الأطفـال المبصرين.

أنـا، بالطبـع، كائنٌ في مجالهم البصـري، لكن عالم التجربة المشـتركة، العالـم الـذي نعرفه معًا، العالـم الـذي نقف أمامه في نوع من الحضور المتبادل، تم تجزيئه وتناثره بسـبب العمى.

٢١ سبتمبر

فـي الخامسـة من صبـاح هذا اليـوم اسـتيقظت على صوت المطـر. ذهبت إلى مكتبي وضغطت بجبهتي على زجاج النافذة. كان المنـزل سـاكنًا تمامًـا، بـدَت الشـوارع بالخـارج مهجـورة. وقفـت هنـاك بلا حـراك، بالكاد أتنفـس، مركّـزًا ومنصتًا لصوت المطر.

أولاً: لاحظت اختلافاتٍ في المكان. تأتي بعض الأصوات مـن يسـار النافـذة، وبعضهـا مـن اليميـن، ويمكننـي تتبّعها حتى زاويـة المنـزل وما يحيط به. أُعير انتباهي الآن إلى الأصوات في الأعلـى، حيـث يـرشُّ المطـر علـى الحائط فـوق النافـذة وعلى سطح المنزل ذاته. تحتي، يسقط المطر على السياج والشجيرات وعلى الأرض.

هناك اختلافات في سـرعة الأصوات. هناك التنقيط البطيء والثابـت قطرةً تلوَ أخرى، وهناك الشـلاّل السـريع المندفع على وقـعِ إيقـاعٍ من النقـرات الخفيفـة للقطرات على زجـاج النافذة. تتفـاوت سـرعة الأصـوات بحسـب انحسـار واندفـاع العاصفـة المطريـة ذاتهـا، كمـا أن بعـض أنمـاط الأصـوات تتفـوق علـى أخرى، تشـبه إلى حدٍّ ما موسيقى المينمال[١] للملحن الأمريكي ستيف رايش[٢].

ألاحـظ الآن أن هنـاك اختلافـات فـي الشـدّة. هنـا سـطح يصطـدم فيـه المطـر بكامـل قوّتـه وهنـاك سـطحٌ محمـيّ. هناك رَشـاشٌ غزير، لا يبدو وكأنّه صوت المطر على الإطلاق، ولكن ماء متجمع يفيض من أنبوبٍ مسـدود أو شـيءٍ من هذا القبيل.

(١) المينمال أو التقليلية minimal.

(٢) ستيف ريتش Steve Reich موسيقيّ وكاتب أمريكي (١٩٣٦-)

تظهر لي أيضًا اختلافاتٌ في الحِدّة. هناك قرع الطبول عالي النبرة حيث تسقط القطرات على المعدن، وهناك التأثير الأعمق الخافت لسقوط المطر على الطوب أو الخرسانة، وألاحظ أيضًا أن الحدّة قد تختلف من نافذةٍ إلى أخرى. ثمّة اختلافات في السرعة التي يسير بها الماء: فهو يتدفّق، ويُقرقر، ويَسُحّ في حالة من الهيجان، تزيد ثم تنقص. هناك اختلافاتٌ في الحجم. يكون الصوت مرتفعًا جدًا على لوح النافذة. تهتزّ ألواح الزجاج على جبهتي. تتضاءل الأصوات، طبقة تلو أخرى، تنحسر حسب بُعدِ المسافة حيث يسقط المطر على الأشجار القريبة. أتساءل: إلى أي مدى يمكنني سماع سقوط المطر؟ هل يمكنني سماع سقوطه على البيوت الواقعة على الطريق؟ يمكنني بالتأكيد سماعه في المنزل المجاور.

يبني كلُّ هذا نمطًا معقداً. كلما أنصتُّ بشكلٍ أكبر، أجدُ أنني أستطيع التمييز أكثر، أبني لبنةً فوق لبنةٍ من الصوت، ألاحظ الاتساق والاختلاف، أحشو بُعدًا وراء بُعد. كان الصمت التام ضروريًا. حتى الصوت الطفيف للتنفّس كان كافيًا لإخفاء أدقّ التفاصيل. ذكرني هذا بضوضاء مترو لندن، والتي تقوم على العديد من الأنماط والطبقات والأشكال، والعديد من الأماكن والمستويات.

هل صحيح أن المكفوفين يعيشون في أجسادهم وليس في العالـم؟ أنا علـى إدراك بجسـدي تمامًا كما هو إدراكـي للمطر. يتكـون جسـدي بالمثـل من أنمـاطٍ مُتّسـقة ومختلفـة، ممتدة في المـكان مـن هناك في الأسـفل إلى هنا في الأعلى. تكشـف هذه الأبعـاد والتفاصيـل عن نفسـها أكثر فأكثـر كلّما ركّـزت انتباهي عليهـا. لا شـيء يتوافـق بصريًـا مـع هـذا الإدراك. عوضًـا عـن الحصول على صورةٍ لجسـدي، كما نسـميه: «الشكل البشري»، أسـتوعب الأمر على أن هذه الترتيبات من الحساسيات، مساحةٌ واعيـةٌ يمكـن مقارنتهـا بأنمـاط المطـر المتسـاقط. تقبـض عليّ أنمـاطُ المطـر فـي عـددٍ لا يحصـى مـن نقـاط الوعـي، وكذلك يتمظهـر جسـدي لي بنفس الطريقة. هنـاك منطقة مركزية، بالكاد أعيها، ويبدو أنها تأتي وتذهب. في أطرافي، تتلاشى الأحاسيس فـي اللاوعـي. يختلط جسـدي والمطـر، ويصبحان كونًـا صوتيًا لَمْسـيًا واحـدًا ثلاثي الأبعاد، يكمن وعيي فـي داخله وفي جميع أنحائـه. يحصـلُ هـذا في تناقضٍ حـادٍ مع الخط أحاديّ المسـار للـكلام المتتالي والذي يتكون من أفـكاري. هذا الخط الفكريّ المُعبّـر عنـه في الكلام لا يمتـد في المكان علـى الإطلاق، لكنه يأتـي نحـوي مثـل عرباتٍ فـي قطار بضائـع، تخرج مـن الظلام، واحـدة تلـو الأخـرى، وتمرُّ تحـت نـور المعرفـة، لتنحسـر في

الذاكـرة. يقع هـذا الخطُّ من الأفكار المتتاليـة داخل واقعٍ ثلاثيّ الأبعـاد لأنمـاطِ الوعـيّ التي يتكـون منها المطر وجسـدي، مثل محور الغُضروف. يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك. إذا توقّف المطـر، وبقيـت سـاكنًا هنا، سيحلُّ الصّمت. سـيتقلّص إدراكي للعالم مرةً أخرى إلى حدود بشرتي. إذا كنت مشلولا من رقبتي إلى أسـفل، سـيتقلّص أكثـر. إلى أي مدى يمكـن أن تذهب هذه العملية؟ في أيِّ مرحلةٍ يصبح مجرّد خطٍّ فكريّ (كلاميّ)، بدون بيئةٍ متكاملةٍ من الأحاسيس والإدراك؟ ماذا يحدث للمسـارات عندمـا لا توجـد أرضيـة لدعـم الخط؟ مـاذا يحـدث للغُضروف عندمـا لا يبقى سـوى المحور فقط؟ مـن أين تأتي الأفكار؟ على مـاذا تعتمـد؟ كم عدد العوالم التي أقيم فيها؟ ما هو العمى؟

٢٢ سبتمبر

يتحقـق توماس مـن المعاني المختلفـة المترتّبة على العمى والتـي تؤثر علـى علاقتنا، كذلـك أصبحت معظم سـلوكيّاته في الوقـت الحالـي. إنّـه يفهـم معظم هـذه الأمور، لكنـه يتحقق من زوايا مختلفة.

اليوم كان جالسًـا على ركبتي، يلون كتابًا للرسم على شكل ديناصـور. سـألني إذا كنـت أرغـب فـي التلويـن. قلـت إنني لا

أستطيع فعل ذلك؛ لأنني لا أستطيع رؤية حواف الديناصور. علّق: «لكن يمكنني التلوين؛ لأنني أستطيع رؤية الحواف؛ لأنني لست أعمى».

وافقته. استمرّ في التلوين لبضع لحظاتٍ ثم نظر إليّ. شعرت برأسه يستدير: «هل يمكنك التحدّث فقط؟»؛

ضحكت وقلت: «يمكنني التحدّث والاستماع».

«نعم!» قالها مسرورًا.

«يمكنني أن أدغدغ».

«ويمكنني أن أصيح، اسمع.» ثم صِحْت.

كان مسرورًا بهذا وأراد مني أن أصيح مرارًا وتكرارًا وهو ما فعلت. انضم إليّ في الصياح. لخّصت حديثنا بالقول: «لذا، لا أستطيع أن أرى، ولكن يمكنني التحدّث، والاستماع، والدغدغة، والصياح».

صمتَ للحظات، بدا وكأنه يفكّر في الأمر. ثم اقترح عليّ: «انظر يا أبي. يمكنك التلوين هكذا». وضَعَ قلم التلوين في أصابعي، أمسكَ بيدي وحرّكها للخلف وللأمام على الورقة. اقترحت عليه أن يمسك بمعصمي، حتى يتمكّن من تحريك

يَـدي. قمـت بحـركات دائريـة سـريعة باسـتخدام قلـم التلويـن وسـرعان ما ظللت معظم الديناصورات. أسعده ما فعلناه كثيرًا، كما أسعدني، وكررناه عدة مرات.

ليـزي، التي تصغره بثمانية عشـر شـهرًا، لا تزال غير مدركة تمامًـا تقريبًـا لمدلول العمـى. طلبت منها هـذا الصباح أن ترمي منديـلًا فـي سـلة المهمـلات. ركضـت بالمنديـل عبـر الغرفـة، وقالـت: «هنـا؟ هـل أرميـه هنـا؟». وصل تومـاس إلى المشـهد عندمـا شـعَرَ أنـه يتعيّـن عليـه المجـيء ليأخذنـي، أمسـكَ بيدي ووضعَها على حافةِ سـلّة المهملات.

٢٨ سبتمبر

سافرت إلى كندا وأسـتراليا في الأشهر القليلة الماضية. إذا نظـرت إلـى الوراء فليس لدي شـعور واضح بأننـي زرت أيًا من البلديـن. صحيـح أن الأشـخاص الذيـن تحدثـت معهـم كانـت لديهم لكنات كندية أو أسـترالية، لكن هذا قد يحدث في مكتبي الخـاص فـي برمنغهـام. فـي ذاكرتـي، ملـف صـور فوتوغرافيـة لمناظـر مـن ملبـورن، لكنني لم أضِـف أي جديدٍ لهـذا الملف. قمـت بجولـةٍ بالسيارة في الجزء الشـرقي مـن بحيـرة أونتاريو،

حيث يبدأ نهر سانت لورانس، وتبدأ منطقة: «الألف جزيرة[1]».

أتذكّر التعليقات المختلفة التي كان يقولها زملائي المسافرون في السيارة. توقّفنا لفترةٍ قصيرةٍ لتناول الآيس كريم، وسِرنا فوق موقف سيارات مفروش بالحصباء. ومع ذلك، بأي معنى يمكنني القول إن هذه الزيارات قد أضافت إلى تجربتي؟

بمثل ما ينظر المسافرُ المبصر بلا كاميرا للمسافرِ المبصر بكاميرا، أنظر أنا لأي مسافرٍ مبصر. يقوم المسافر المبصر الذي يحمل الكاميرا بتخزين ذكرياتٍ مرئية، بحيث يمكنه إطالة شعوره بالتجربة الحالية واسترجاعها وإعادة عيْشها ومشاركتها مع الآخرين والاستمتاع بها مرة أخرى. بما أنني المسافر الأعمى الجالس في السيارة، أنظرُ إلى زميلي المبصر، باعتباره شخصا لديه كاميرا. إنه يسجّل باستمرارٍ الأشياء التي لا تنسى - الآفاق والشلالات وغروب الشمس والجزر والجسور- حتى يتمكّن من العيش فيها والتحدّث عنها ومقارنتها بالأماكن الأخرى التي زارها واسترجاعها مرارًا وتكرارًا. سيتحدّث عن

---

(١) الألف جزيرة أو جزر الألف One Thousand Islands تشكل أرخبيلاً في أمريكا الشمالية مكونًا من ١٨٦٤ جزيرة، وتمتد على الحدود بين كندا والولايات المتحدة في نهر سانت لورانس، شمالي شرق بحيرة أونتاريو.

الأماكـن التي ذهب إليها وعـن انطباعاته حولها. يقول المسـافر المبصـر الـذي يحمـل الكاميـرا لصديقه: «أوه، ولكـن لن يكون لديـك مـا يذكّرك بالمـكان!». كذلك الشـخص المُبصِر سـيقول للأعمـى (إذا تسـاءل عن شـكل التجربـة): «لن يكـون لديك ما تتذكّـره بهـا»؛ لذلـك عندمـا أنظـر إلى الـوراء إلى الأماكـن التي زرتها في السـنوات الأربع الماضية، لا أشـعر بأنّ تجربتي كانت مُثريةً بأي شـكلٍ من الأشـكال بما يتناسـب والجهـد الذي بذلته للوصـول إلى هناك. لقد تعلّمت الكثير عن تلك الأماكن، والتي كان بإمكانـي تعلّـم معظمهـا هنا دون عناء. بعـد أن تحدّثت إلى النـاس في منازلهم في هيوسـتن عن المشـاكل الأمنية في المدن الأمريكيـة، تكَـوّن لدي انطباعـات مختلفة في ذهنـي عن الحياة فـي أمريـكا، لكن هذا لا يرقى إلى درجة زيارة هيوسـتن، كما أن الحاجـة ماسّـة إلـى التحـدّث مـع النـاس فـي مدنهـم، حيث إن الحكايـات مُسـتملحة وطازجـة. لكن مـا هي هيوسـتن، أوتاوا، ملبورن؟

مثلما يتعرف المكفوفون على الناس بتخزين ذكريات معيّنةٍ حـول اسـم الشـخص، كذلـك الأمر مـع المُـدُن. حـول الكلمة الرئيسية: «أوتاوا»، أقوم بربط ذكرياتي بجميع الأشخاص الذين تحدثـت معهـم، وكلّ الطعام الـذي تناولته، والأسِـرّة التي نمت

فيها، والأيدي التي صافحتها في أوتاوا. هذا ما تعنيه أوتاوا بالنسبة لي: تلك التجميعة من ذكريات الاتصال البشرية، والتي تختلف تمامًا عما قد تستحضره أذهان المبصرين عن أسماء المدن. بالنسبة للمبصرين، تستحضر «سيدني» منظر جسر الميناء، وتستحضر «باريس» برج إيفل، وتحضر ناطحة الإمباير ستيت عند تذكّر «نيويورك». بعبارات أقل دراميّة ورمزية، يستدعي اسم أي مدينة للشخص المبصر صورًا لما تبدو عليه تلك المدينة. أما الأعمى، فإما أنّه ليس لديه مثل هذه الصور على الإطلاق، أو أنه يتخيّل صورًا لما يعتقد أن هذه المدن ستكون عليه. ومع ذلك، فنحن لا نتعلّم من صورنا ولا من ذاكرتنا الخاصة، ولكن من تصورّاتنا فقط.

الشعور الذي يتبقّى من تجربة شخصٍ بالغ فقد بصره مؤخّرًا هو شعورٌ غريبٌ بأن المرء قد توقّف عن مُراكمة الخبرات. في السابق، كان المرء دائمًا ما يقف على نهاية خطٍّ من الخبرة التي كانت تتّسع باطراد. كان الأمر أشبه بوضع قطَعٍ من الفسيفساء. كان من الممكن دائمًا التوقف عند الحافة والنظر إلى الشّكل، لكن عندما أنظر إلى الوراء الآن، أشعر أن آخر قطعةٍ من الفسيفساء قد وُضعَت في صيف عام ١٩٨٠. ومنذ ذلك الحين وأنا أتجوّل فوق نفاياتٍ لا مسار فيها، تفتقر

للخبرات المتّسقة والمفهومة والتي قد تملأ المنطقة الواقعة بين المكان الذي أنا فيه الآن وآخر قطعةٍ من الفسيفساء والتي أراها بعيدًا ورائي. عندما تسافر في طريق يتخلّله الكثير من المنازل أو الأشجار، يصبح لديك إحساسٌ واضحٌ بالسّرعة وبمرور المسافة والوقت. عندما تبدأ في السفر عبر النفايات التي لا تتبع مسارًا، وإنما تهيم بك عبر الفضاء أو عبر الصحراء، عبر عالمٍ لا ملامح له يُفقِدُك ذلك الإحساس. المساحات الشاسعة تبدو صغيرة، وتبدو المساحات الصغيرة في بعض الأحيان شاسعة. يتفاقم هذا لانعدام تعاقب الليل والنهار، وغياب الإدراك الحقيقيّ لمرور الفصول. الأيام تزداد برودةً، ولكنها لا تقصُر، ولا يمكن اعتبار أوراق الخريف هذا العام أجمل من الخريف الذي كان منذ عدّة سنوات، هكذا تفقد التجربة علامات الترقين الخاصة بها.

الطريقة التي يتذكر بها البالغون المكفوفون التجربة تشبه إلى حدٍّ ما الطريقة التي يتذكر بها أي شخصٍ بالغٍ تجربته منذ الطفولة. كثير من البالغين، عند محاولة تذكرهم لطفولتهم، يبحثون عن صورٍ بصريّة من النوع الذي يمكن الآن إسقاطه في تلك الأماكن، على سبيل المثال، مظهر الأثاث أو مظهر الغرف، تصميم الفناء الخلفي أو صفّ المحلات التجارية القريبة من

المنـزل. ومـع ذلك، فـإن النقطة المهمة هي أن الأشـياء بالنسـبة للأطفـال الصغـار لا تبـدو على ذلـك النحو، وبالتالـي لا يمكن تخزينهـا فـي شـكلٍ يمكـن للكبـار أن يتذكـروه أو يتعرفـوا عليه باعتبـاره مماثـلًا للصـور المخزنـة مؤخـرًا. بين الحيـن والآخر، وبعيـدًا عـن الإلهام البصري العرَضي، يكمن شـيءٌ أعمق يمكن أن يُطلَـق عليـه ذاكرة الجسـد. هذه ليسـت ذاكرة لما بـدَت عليه الأشـياء، ولكنها ذاكرة الشـعور بتلك الأشـياء. المشـاعر الأكثر تأثيـرًا فـي هـذا النوع مـن الذاكرة هي تلـك التي تحصل بشـكلٍ منتظـم وليسـت نتيجـةً لحـدثٍ بعينـه. قـد يصعـب تمييزهـا عن لحظات التعاطف التي يمرّ بها الطفل. هذا هو الحال مع ذكريات الكبـار المكفوفين. تقوم على ما يشـعر به الجسـد أو يخضع له، وهذا يختلف تمامًا عن الذاكرة البصرية؛ لأن جسـمك لا يشـعر بما تراه عينك.

لـذا فإن ذكرياتي عـن ملبورن تتكوّن من عددٍ لا يحصى من رحلات السـيارات من مكانٍ إلى آخر، وذكريات ترتبط بالشعور بأنسـجةٍ مختلفةٍ مثل حزام الأمان وتنجيدة السـيارة. من المدينة الفلانية أتذكّر الانزعاج الناتج عن الوقوف في الجوّ البارد، ومن المدينة الأخرى الشـعور بتيبّس المفاصل بعد الجلوس لساعاتٍ علـى نفس الكرسـي، ومـن مكانٍ آخـر ملمس البـلاط البارد في

الحمـام. ذاكرتي مثل ذاكرة الحلزون. يمكن لجسـدي أن يتذكر شـريطًا صغيـرًا ضيّقًـا مـن الأرض التـي مـررت فوقهـا، والـذي يتكـوّن مـن تفاصيـل دقيقـة ومتناهيـة الصِغر بحيث قـد لا تكون ذات صلة من وجهة نظر القطة أو الكلب. هنا يرتفع ممرّ المشاة قليـلاً، هنـاك شـقٌّ في الرصيـف، عمـود الهاتف هذا بـهِ صفيحة معدنيـة مثبتة ببراغي لا تتوافر في العمود الآخر.

هذا الطريق، مثل مسار الحلزون، هو ما أعرفه عند الذهاب مـن منزلي إلى المكتب. ليس بالتحديد مسـار الانتقال من مكانٍ إلـى مـكانٍ آخـر مـرورًا بأماكـن وسـيطة. عندمـا أحـاول تصوّر طريقـي، فـإن مـا أفعلـه هـو توقّـع الأحاسيس التي سيشـعر بها جسـدي في أوقاتٍ (أي أماكـن) مختلفة على طول هذا الطريق. هنا سأسترشـد بشـيءٍ سـيمرّ على يسـاري، لاحقًا سـيكون شيئًا علـى يمينـي. ما يقع على بعد أكثر من قدمين أو ثلاثة أقدام على جانبي هذا المسـار لا يعني شـيئًا بالنسـبة لي. إنه ليس جزءًا من تجربتي، إلا عندما أعود إلى المنزل مع ضجيج حركة المرور أو أصـوات العصافير. أعرف مكاني بباطن قدمي وطرف عكّازتي.

٢٩ سبتمبر

يمكننـي الآن التفكير في معنى التجربة الأسـترالية بأكملها. يبـدو أنني انعطفت عن مسـار النفـق. حتى الآن، كان هناك ضوءٌ

فـي النهايـة. صحيـح، أنّنـي كنت أسـافر بعيـدًا عن ذلـك النور، أعمـق وأبعـد منه؛ ومع ذلك، كان الضوء خلفي. لقد كانت نقطة ضوءٍ تتضاءل باسـتمرار، ومع ذلك فإن وجودها منَحني التوجيه والإرشـاد. علـى الأقـل، ثمّـة نقطـة تعريـف فـي الماضـي كنت أتراجـع عنهـا. لقد كانت كما النجم السّـاطع الـذي ابتعدت عنه مركبتـي الفضائيـة أبعـد وأبعـد، لكننـي أعرف ذلك فقط بسـبب وجـود النجم، الذي يحدد النقطة التي ابتعدت.

بالعـودة إلى صورة النفق، يبدو أنني انعطفت.

يبـدو أن نقطة الضوء قد اختفت. كان الضوء في نهاية النفق يتألّـف مـن ذكريات خمسـة وأربعيـن عامًا من حياتـي المبصرة. والتـي تقع على قسـمين. هنـاك أربعة وعشـرون عامًا (١٩٣٥-١٩٥٩) قضيتهـا فـي أسـتراليا. ثـم هنـاك واحـد وعشـرون عامًا (١٩٥٩-١٩٨٠) قضيتهـا في إنجلترا، أربعة عشـر عامًا منها في برمنغهـام. جـزء الضوء الـذي مثّلته السـنوات التـي أمضيتها في برمنغهـام غطّته تدريجياً ذكريات سـنوات العمـى التي أمضيتها. هنـاك العديد من الرحلات التي يمكنني الآن القيام بها بالسـيارة عبـر شـوارع برمنغهـام، علـى طـول الطـرُق المألوفـة، ويمكنني تحديـد مكاني من خـلال منعطفات والتـواءات الطريق. أنا مثل الكلـب، ينـام علـى المقعـد الخلفي، يسـتيقظ لمربّـع أو مربّعين

سـكنيين مجاورين. يعرفُ بجسده تلك الالتواءات والمنعطفات المألوفـة والأخيرة للسـيارة. هذه الذكريات، إلـى حدٍّ ما، حلّت محـل الذكريات البصرية للشـوارع. بالتأكيد أنني ما زلت أفضل حالًا في برمنغهام مما سـأكون عليه في أي مدينةٍ أخرى؛ لأنّه لا يـزال هنـاك الكثيـر مـن تجربتـي العميـاء التـي تُثريهـا ذكرياتـي المبصـرة؛ لذلـك، على سـبيل المثال، ما زلت أرى برج السـاعة بالجامعة، والسّيد جو الكبير، في مخيلتي. هذا يساعد على ملء محيطـي ومعرفـة مكانـي. الأربعة وعشـرون عامًـا الأولى كانت مضيئـة تمامًـا. لم تكـن هناك فرصة، باسـتثناء زيـارة ملبورن في عـام ١٩٨٠ عندما كنتُ ضعيف البصر، لفـرض تعديلٍ وتكييفٍ تدريجـي للذكريـات المرئيـة بأخـرى عميـاء. يحول بينـي وبين ذلـك الماضـي المرئي جـدارٌ صلْـب. عندمـا أفكر في أسـتراليا الآن، فإنهـا لا تسـتحضر فقـط منظر الشـواطئ المبهـرة الذهبية، وغابـات الأوكالبتـوس[1] المتمايلـة، وسـفوح التـلال الجافّـة بنتوءاتها الصخرية، ولكن أيضًا تستدعي وعورة ركوب السيارة، وصفيـر الربـو المـلازم لـي من غرفـةٍ إلـى أخرى، والإحسـاس بدرابزيـن حديقة الحيوان بملبورن، ورائحة الأدغال.

---

(١) الأوكالبتـوس eucalyptus جنـس كبيـر بـه أكثـر مـن ٦٠٠ نـوع مـن الأشـجار الطويلـة ذات الأخشـاب الصلبـة، موطنـه الأصلي أسـتراليا وينمو في الفلبين وماليزيا وجزر المحيط الهادئ.

هناك أجزاء من تجربتي المرئية في إنجلترا البالغة ٢١ عامًا والتي لا تزال مُضاءة بشكلٍ ساطع. يبدو أن الضوء يسقط على كلّ الأماكن التي لم أقم بزيارتها كشخصٍ أعمى. في كل مرة أقوم فيها بزيارة إحدى هذه الأماكن، أعود إلى منزلي وكأنني فقدت ذلك المكان، عوضًا عن مُراكمة المزيد من الصور البصرية، وتحديث ذكرياتي القديمة، وتسجيل ملاحظاتي الذهنية للتغييرات، ومعرفة ما يقع خلف الركن الذي لم يكن لدي وقت لزيارته من قبل. لا بدّ لي من البدء من جديد، بمساعدة ذكرياتي البصرية عن المكان، وبمعرفةٍ مختلفةٍ للمدينة؛ لذا فإن مخزوني المعرفي البصري بأكمله يتراجع إلى الماضي، ويصبح أقلّ فائدة، وأقل صلَةٍ بي، وأقل دقة. إنه الإدراك الدرامي لابتعاد ذلك الماضي البصري الذي أحدثته زيارة ملبورن التي أشير إليها على أنها مُنعطفٌ في مسار النفق. يتعين عليّ البحث عن طرقٍ جديدة لتوجيه نفسي في المكان بعد اختفاء نقطة الضوء الأخيرة، كما يتعيّن عليَّ البحث عن طرقٍ جديدة لتوجيه نفسي في الزمان وطوال فترة حياتي. أعيش الآن في زمانٍ أعمى.

ما معنى العمى؟ من الغريب أنّه بعد أربع سنوات من تسجيلي كفيفًا، وسنتين من العمى التام، ما زلت أسعى لفهم هذا السؤال.

٧

ما وراء المشاعر

شتاء ١٩٨٤

١٣ أكتوبر

الليلة الماضية كنت أنا ومارلين نتساءل ما إذا كان سيحدث فرقًا في مشاعري تجاه توماس وإليزابيث لو رأيتهم من قبل. هل حقيقة أنني لم أرَهم من قبل ستكون خسارةً دائمةً في علاقتي معهم؟ هل يهمّ أنهم ينتمون بالكاملِ إلى حياتي الثانية، حياتي العمياء؟

صحيحٌ أن إيموجين تربط بين الحياتين. كانت في السابعة من عمرها عندما فقدت بصري؛ هي الآن في الحادية عشرة من عمرها. ومع ذلك، أليس من الممكن أن تظلّ إيموجين في مخيلتي ثابتة بشكلٍ دائمٍ في سنّ السّابعة، بينما تظل مارلين شابةً وجميلةً إلى الأبد؟

هذا وثيق الصلة بتجربة العمى باعتبارها رحلة إلى نفقٍ

مظلم. تشكّل الوجوه المُنحسرة لإيموجين ومارلين نقطةَ ضوءٍ ثابتة في النهاية البعيدة، ورائي، ما يوفّر نقطةً مرجعية يمكنني من خلالها الحكم على سفري المستمر عبر النفق. بطريقةٍ ما، يعمل هذا على تضخيم الوقت الذي قضيته في النفق، حيث تظلّ نقطة التوجيه ثابتة وتجعلني على درايةٍ بالانحسار المستمر للضوء. يبدو الأمر كما لو، وخلال الجزء الأول من رحلةٍ عبر الفضاء، يدرك المسافرون السرعة التي ينفصلون بها عن الأرض التي لا تزال مرئية، ولكن بمجرد الخروج في الفضاء الفسيح الأسود، لم يعد هناك ذات الشعور بالسّرعة أو الوقت. طالما أن هناك صورة تتراجع وتنحسر، فلا يزال المرء على علمٍ بالرحيل والابتعاد. من ناحيةٍ أخرى، فإن عنصر التثبيت هنا، وهو استمرار التفكير في الشخص كما لو أنّه على صورته منذ سنوات، ما يجعل الوقت أقل واقعية. يظل شعورٌ لدى المرء بأنّه لم يسافر في علاقاته. ثمّة تعارض بين الصورة الخالدة والمثبّتة والتي لم تسافر، و(من جهة أخرى) الإحساس الحاد بالمسافة، الذي يسافر فيه المرء بعيدًا طوال الوقت. يساعدني هذا التضارب على فهم التبريح والارتباك الغريبين اللذين أشعر بهما في حضرةِ من أحب ممّن رأيتهم قديمًا، ولكنّي ما عدت أراهم منذ زمن. وهذا من شأنه أيضًا أن يفسّر محنتي الحالية عند لقاء أقاربي الأستراليين، وخاصة والديّ، في الصيف.

هذا مثالٌ جيد لما يسميه علماء النفس: «التنافر المعرفي[1]».

هناك شعورٌ مربك بالانزعاج؛ لأنك تدرك وجود رأيين أو معتقدين متناقضين. أولاً: أعتقد أنني أعرف كيف تبدو. لديّ صورتك في ذهني وأنا أتحدّث معك الآن. وبهذا، على الرغم من أنني أعمى، فإن شيئًا لم يتغيّر. أنا لم أتغيّر. أنت لم تتغيّر. لا يزال بإمكاني التواصل معك بوساطة تلك الصورة البصريّة الموجودة في ذاكرتي. ثانيًا: أعلم أنه بين تلك الذاكرة البصريّة التي تتوسط بيننا وبين حياتي الحالية الفعلية، هناك نهرٌ أسودٌ وعميقٌ من الزمن، يغمر ضفّتي وعيي، ويزداد اتساعًا وقوّة، ويحملنا بعيدًا عن بعضنا البعض. صورتك هناك، على الجانب البعيد، تتراجع وتنحسر دائمًا ولا يمكن الوصول إليها تمامًا الآن. لقد تغيّرت أنا، وتغيّرت أنت، وكلّ شيءٍ تغيّر. هناك تضاربٌ بين هذين المعتقدين.

قد يجعلك الانزعاج من هذا التناقض تشعر بعدم الارتياح قليلاً، أو قد يصبح موجعًا للغاية. يمكن تخفيفه بطرقٍ متعددة. قد أحاول أن أدير ظهري لصورتك لأنها تتوهج بشكلٍ ساطع على الجانب البعيد من المدى. يمكنني حينها محاولة إعادة بناء علاقتي معك على أساسٍ جديدٍ تمامًا، في هذا الجانب، حيث نحن الآن.

---

(1) cognitive dissonance

مـن ناحيةٍ أخـرى، قد أميل إلى التريّث والبقاء في الماضي، بالانغمـاس والتأمّـل فـي صورتـك التـي أتذكرهـا، أُبقيهـا دائمًا أمامـي، أتحدّث معك دائمًا وكأنني أتحدّث قاصدًا تلك الصورة المحبوبـة. في الحالـة الأولى، أحاول إلغاء الماضي. في الثانية، أعيش في الماضي.

في علاقتي مع توماس وليزي لست على علمٍ بهذا التضارب بالـذات. لكننـي أتعـرض للتهميـش كأب. لقـد أصبـح تفاعلـي معهم الآن محدودًا للغاية، وأشعر أنني لست الأب الذي أرغب أن أكونه. بالرغم من ذلك، لا أشـعر بهذا الإحساس الغريب في وجودهمـا، بالصدمـة المُسـتعصية التـي أشـعر بهـا أحيانًـا مـع إيموجيـن ومارليـن، ومع والديّ. توماس وليـزي أطفال العمى. لقد اعتادا عليه؛ ولذا فإن علاقتي بهما لا تعيقها ذكرياتي البصرية مـن الماضي. بل تتطوّر بالكامـل على غرار علاقاتي غير المرئية الأخـرى. هـل أختبـر إذن مـع تومـاس وليزي مـا يسـميه ألفريد شـوتز[١] «التقدم في السـن معًا[٢]»؟ هل هناك مقاسـمة مشـتركة في محاولة إنضاج هذه التجربة؟ هل نحن حقًا معًا، نتشارك هذا

(١) ألفريـد شـوتز Alfred Schutz فيلسـوف نمسـاوي وعالـم فـي الظواهر الاجتماعية (١٨٩٩–١٩٥٩).

(2) growing old together

الزمان والمكان؟ الجواب: نعم. قد تكون القاعدة ضيّقة، لكن المجتمع المشترك موجود. لست على يقينٍ أن ما سبق ينطبق على إيموجين ومارلين.

مع امرأةٍ محبوبة، يكمُن الكثير من تجربة التقدّم في السن معًا في مشاهدة عمل الوقت. ربّما في حالة الطفلة التي تصبح مراهقةً، فإن الأمر يكمن في مشاهدة عملية النمو. أريد أن أرى كيف يتحول هذا الوجه الطفولي إلى وجه امرأةٍ شابة. هل سيكون الأمر مختلفًا مع الابن؟

علاقتي بالأطفال الأصغر سنًا يسيطر عليه عناصرُ مجافاة الدور (فقدان الأبوة)، لكن علاقتي بإيموجين ومارلين متأثّرة بالتضارب المعرفي (الإشارة إلى الماضي باعتباره الحاضر).

هذا ينطبق على علاقتي مع نفسي. أعرف كيف أبدو من ذكريات الصور الفوتوغرافية ورؤية نفسي في المرآة. من الغريب أن العديد من الصوَر التي أتذكّرها بوضوح ليست حديثة، لكنّها التقطت منذ سنوات، وبقيت عالقةً في ذهني؛ لذلك أعلم أن ذكرياتي عن نفسي أصبحت قديمةً بالفعل، والشيء الغريب أنّني لا أستطيع تحديثها. هذا يُشعرني بالتنافر المعرفي عندما أفكّر في نفسي. من ناحيةٍ، أعلم أنني فلانٌ من

النّاس بملامح معيّنة. من ناحيةٍ أخرى، أعرف نفسي كشخصٍ ربّما ما عاد يبدو كذلك، ولا أستطيع الوقوف ومشاهدة أثر الوقت والزمن على ملامح وجهي. كيف يمكنني أن أتقدّم في العمر مع نفسي؟

لقد انفصلت عن ظلّي كما في الرسوم المتحركة. صورةٌ مرتعشةٌ لنفسي تُرِكت ورائي، في حين أن شخصي الحقيقي تشظّى بفعل انفجارٍ مفاجئ، ما فلقَني إلى صورتين. كل واحدةٍ لديها تعابير وقوام مختلف، وتقوم بأشياء مختلفة. أنا على علاقة مزدوجة مع نفسي.

هل يجب أن أنسى كل شيءٍ عن شكلي ومظهري القديم؟ هل يجب أن أحاول الآن التعرّف على نفسي مرةً أخرى بالكامل على أساس بياناتٍ غير بصرية؟ من الواضح أن هذا أمر لا مناص عنه. ماذا سيحلُّ، إذن، لتلك الخمسة والأربعين عامًا من كونك مبصرًا؟

لابدّ وأن هذا جزءٌ من السبب الذي جعل العودة إلى أستراليا موجعة للغاية؛ ذلك أنني واجهت الأربعة وعشرين عامًا الأولى، طفولة وشباب تلك الذات المبصرة، والتي أصبحت الآن منفصلة عني؛ لأنني تائه الآن في مفترق طرق معرفة نفسي.

٨ نوفمبر

أعتقد أنه ديفيد سكوت بلاكهول[١]، في سيرته الذاتية: «بالطريقة التي أراها[٢]»، أشار إلى مدى انزعاجه عندما يرفض الناس الإجابة على سؤاله حول مكان وجوده ويصرّون على سؤاله عن المكان الذي كان يحاول الوصول إليه. أشارك هذه التجربة.

عندما عدت إلى المنزل الليلة الماضية، لم أستطع العبور إلى طريقي المعتاد بسبب بعض أعمال البناء على أحد ممرّات المشاة. عن طريق الخطأ انعطفت إلى شارعٍ جانبي، وبعد مربّعٍ سكنيّ أو نحوه، عندما أدركت أنني ارتكبتُ خطأ في مكانٍ ما، لم أكن متأكدًا من مكاني بالضبط. كان هناك بعض الرجال يعملون على سيارةٍ متوقفةٍ على جانب الطريق. قلت: «معذرةً، هل يمكن أن تخبرني أين أنا من فضلك؟ ما اسمُ هذا الشارع؟».

أجاب الرجل: «إلى أين تحاول أن تصل؟».

---

(١) ديفيد سكوت بلاكهول David Scott Blackhall شخصية بريطانية إذاعية، كاتب وشاعر فقد بصره تمامًا في الخامسة والأربعين من العمر (١٩١٠-١٩٨١).

(٢) بالطريقة التي أراها The Way I See it، ديفيد سكوت بلاكهول، كتاب سيرة ذاتية نُشر عام ١٩٧١.

قلت بضحكةٍ مرحةٍ: «لا تهتم بهذا، فقط أخبرني، من فضلك، ما هذا الشارع؟».

«هذا طريق ألتون. عادةً ما تصعد طريق بورنبروك، أليس كذلك؟ إنه على بعد مربّع سكني من هنا».

شكرته، وأوضحت أنني بحاجة الآن لمعرفة مكان تواجدي بالضبط في طريق ألتون حتى أتمكن من الوصول إلى طريق بورنبروك. «في أي جانبٍ من طريق ألتون أنا أسير؟ إذا واجهت هذا الطريق، فهل سأخرج إلى طريق بريستول أم العكس؟».

«أنت تعيش في أعلى طريق بورنبروك، أليس كذلك؟ حسنًا، إذا أخذت المنعطف القادم إلى يسارك، فستكون على ما يرام».

ولكن أي اتجاه هو «يسار»؟ هل يقصد عبوري الطريق أو البقاء على هذا الجانب؟ عند هذه النقطة، يشعر المكفوفون والمبصرون بحيرةٍ متبادلة.

عندما يتيه شخصٌ مبصر، فإن ما يهمه ليس مكانه، بل إلى أين يتجه. عندما يتم إخباره أن المبنى الذي يبحث عنه يقع في اتجاهٍ معين، لا يصبح تائهًا حينها. يتيه المبصر بمعنى أنه لا يعرف مكان المبنى الذي يبحث عنه. لا يتيهُ أبدًا لأنه في شارع

لا يعرفه؛ ينظر فقط إلى لافتةِ الشارع على زاوية المبنى. لقد فقد اتجاهـه، وليـس موقعـه. الأعمـى التائـه يفقـد اتجاهَـه وموقعَه. يحتاج إلى الموقع لاكتشاف الاتجاه. يا له من ضياعٍ كبير لدرجة أن معظـم المبصرين يجدون صعوبة في تخيّله.

١٠ نوفمبر

غالبًا ما يساعدني الأشخاص المبصرون في إيقاف سيارات الأجـرة. لا يمكننـي إحصـاء عـدد المـرّات التـي يقودنـي فيهـا صديقـي الجديـد علـى الطريـق إلـى سـيارة الأجـرة، وينقـل التعليمات لسائق سيارة الأجرة. عادةً ما نسير إلى صفّ سيارات الأجـرة، ويسـألني دليلـي إلى أين أنا ذاهب. يأخذني إلى سـيارة الأجرة بعد ذلك، يتأكّد من أن لا أخبط رأسـي عند الركوب، ثم ينقل التعليمات إلى السائق.

يعتنـي بي الشـخص المبصـر ويرعاني. العلاقة الناشـئة من هذه الرعاية تُشـعِره أنه شـخصٌ بالغ وأننـي طفل. إذا كنت تضع طفـلاً في سـيارة أجـرة، فسـتحاول أن تعرف من الطفـل المكانَ الـذي يعيـش فيه بالضبـط أو المكان الذي يعتقـد أنّه ذاهبٌ إليه. لـن تترك الأمر للطفل ليتفاوض مع سـائق سـيارة الأجرة. يجب أن تتأكـد مـن أن السـائق قـد اسـتوعب كلّ المعلومـات وفهمها

تمامًا قبل السماح للطفل بالخروج من رعايتك. كذلك هو الأمر بين المبصر والأعمى.

١١ ديسمبر

توماس مهتمٌ جدًا بكيفية معرفتي للأشياء، ومدى معرفتي بها وتفاصيلها. في الإفطار هذا الصباح قلت: «الآن أنت تأكل! هذا هو توماس الشاطر».

قال: «كيف تعرف؟».

«يمكنني سماعك، ويمكنني الشعور بك.» وضعت راحة يدي على ظهره، وشعرت أن جسدَه يهتز وهو يمضغ.

ابتعد قليلاً وأكل بهدوءٍ أكثر، وسأل: «هل ما زلت تسمعني؟ هل أنا أمضغ؟».

«نعم، ما زلت أسمعك».

سأل مرةً أخرى بعد تناول الطعام بهدوء أكبر.

أجبته: «لا، لا أستطيع سماعك الآن. هل أنت تأكل؟».

أجاب بمرحٍ: «نعم» وبدأ يمضغ بصوتٍ مرتقع مرّةً أخرى.

لقد اكتشف الحدّ الفاصل.

بينما كان يرتدي ملابسَه بالطابق العلوي، في حضوري، قال لمارلين: «عندما أكون أكبر سنًا في العاشرة من عمري، هل ستتحسّن عينا أبي؟».

ردّت مارلين: «لا، توماس، لن تكونا قد تحسّنتا».

«هل ستتحسنان بعد وقتٍ طويل، طويل، طويل؟».

«لا، عزيزي، لن تتحسنا أبدًا».

«أوه».

١٣ ديسمبر

قضيت عشرة أيامٍ في المستشفى. كنت في جناحٍ صغير بسريرين، بعيدًا عن الجناح الرئيسي الذي يستوعب حوالي عشرين سريرًا. كانت الغرفة النهارية، حيث كان الهاتف، في نهاية الجناح الرئيسي. للوصول إليها، كان عليّ أن أمشي على طول الممرّ في منتصف الجناح الرئيسي وصفتّ الأسِرّة على كلا الجانبين.

في المرّة الأولى التي قُمت فيها بهذه الرحلة، كانت التجربة كابوسًا. قد يكون المرور بين سِمَاطَين[1] هو أقرب شيءٍ لما

(١) المرور بين سِمَاطَين أو صفّين running the gauntlet، وهو شكل =

شعرت به هناك. كانت ضجّة عارمة. بعصاي البيضاء، جذبت انتباه كل العيون. توقّفت كلُّ المحادثات. قدّم كل رجلٍ في الجناح نصيحته الخاصّة. «إلى اليسار قليلًا! إلى اليمين قليلًا! انتبه يا صديقي! الآن أنت على ما يرام يا صاحبي! تقدّم للأمام مباشرة وستكون بخير. احذر العربةَ في طريقك! الآن توقّف قليلاً.» لقد كنت مرتبكًا تمامًا من كل هذا، ووجدت أنّه من المستحيل التركيز.

عندما وصلت إلى نهاية الجناح، توقّفت وسألت أحد الرجال الذين كانوا يقدّمون لي هذا التشجيع الودّي أن يقرأ لي رقم هاتفٍ مكتوبٍ على قطعة من الورق. جاء صبيٌّ صغير وقرأه. حفظته وشكرته وذهبت في طريقي. سمعت رجلاً أكبر سنًا يقول لهذا الفتى: «من الأفضل أن تلحق به وتتأكّد من أنه على ما يرام». بعد ذلك ببرهةٍ، سمعت صوت أقدامٍ خلفي، ووقعَت يدٌ على ذراعي. استدرت وقلت بجفوةٍ، ولكن بابتسامة: «ماذا تريد؟».

ضحك الصبي، وأجاب مُحرجًا: «لقد جئت للتو للتأكد من أنّك لم ترتطم بالباب».

---

* من أشكال العقاب البدني في القرون الوسطى حيث يُجبر الطرف المُدان على الرّكض بين صفّين من الجنود، الذين يضربونه ويهاجمونه بالعصي أو بأسلحة أخرى.

أجبته: «حسنًا، شكرًا جزيلاً لك، ولكن بمساعدتي بهذه الطريقة، جعلتني أنسى رقم الهاتف».

ضحك من إجابتي، وسحبت قطعة الورق من جيبي. «الآن، ماذا كانت؟».

قرأها لي وانطلقت مرةً أخرى. من الخلف، صرخ: «إلى اليسار قليلاً، انتبه، الآن أنت بخير، إنه أمامك مباشرة».

استدرت وقلت: «اششش - ستجعلني أنساها مرةً أخرى!».

أجابني: « آسف».

وجدت باب الغرفة النهارية، ومررت وأجريت مكالمتي.

كانت رحلة العودة بذات السوء والروعة. مرة أخرى، كان كل رجلٍ في المكان يساعدني. كانت الأجواء مشحونة بصيحات: «اليسار قليلاً، واليمين قليلاً، والوراء قليلاً». شعرت بأنني غير قادرٍ على تجاهل كل هذه الإشارات، كنت أستدير من اليسار إلى اليمين وكأنّني الأمير فيليب في معرض، أشكر هذا الرجل وذاك الرجل، أقول: مرحبًا، وداعًا، وأؤكد لهم أنني بخير، كان من المستحيل تمامًا التركيز في خضمّ ذلك، وكنت في خطر حقيقي من الارتطام بعربة. عندما عدتُّ إلى غرفتي

الصغيرة، وجدت يدي رطبةً من العرَق، كان قلبي ينبض بالإثارة، وشعرت بالإرهاق التّام. لقد تغلّب عليّ المجهود والحرَج.

منذ ذلك الحين، أجري اتصالاتي الهاتفية في وقتٍ متأخرٍ من الليل عندما يكون الجميع نيام. كان من السهل جدًا المشي في الممر، ولمس نهايات الأسرّة التي أمرُّ بجانبها للتأكد من أنني كنت أسير بشكلٍ مستقيم. لا أواجه أدنى صعوبة في العثور على الهاتف، ولا أرتطم بأي شيء، شريطة أن يكون الجميع نيام. محاولات المساعدة التي كانت تُقدّم لي هي ما كان يعطّلني.

٣٠ يناير

في طريقي للمنزل ذات مساء في نوفمبر الماضي. كنت واقفًا عند إشارة المرور على طريق بريستول في انتظار صوت الصفير. أدركت فجأة التناقض بين ما يجب أن أبدو عليه، وما شعرت به حقًّا. كل هؤلاء الناس الذين يندفعون على عجَلٍ في سياراتهم يجب أن يقولوا: «يا إلهي. هنالك رجلٌ أعمى. آمل أن لا يعبر أمامي. أتساءل مّا إذا كان بخير. ربّما عليَّ أن أُبطِئ أو أسأله ما إذا كان يحتاج إلى مساعدةٍ. أتساءل لماذا لا يرافقه كلبه؟».

لكـن مـن داخلـي، شـعرتُ بالخفّـة والثقـة والقـدرة علـى التعامـل مـع موقفٍ كنت أعـرف أنـه يمكنني التعامـل معه. كان ضجيـج حركـة المـرور القـادم مـن كلا الاتجاهين عاليًـا وغنيًّا، والأصوات الخارجية القادمة من الأشـخاص العابرين على ممرٍّ المشـاة، أعلـى في هـذا الجانب مـن الطريق، وأكثر خفوتًا على الجانـب الآخـر، جميـع الأصـداء والملامـح الأخـرى كوّنـت الشـكل السّمعي لما أسـمّيه طريق بريستول. في غضون لحظاتٍ قليلة، ستتغير ضوضاء حركة المرور. عوضًا عن الحركة الحالية لأصـوات الوصول والمغادرة، سـيكون هنـاك هديرٌ للمحركات العابـرة علـى كلا الجانبيـن. يعقبها فتـرةٌ هادئة. أميـل حينها إلى الأمـام، وأمدّ عصـاي البيضاء بطولهـا الكامل، وأنقرُ بها سـريعًا أولاً على جانب واحد منّي، ثم على الجانب الآخر، أعلن بذلك عزمي على العبور (إذا كان أي شخص يشكّ في ذلك) ثم أتقدّم بجرأةٍ في ذلك الفضاء الصامت. أسير عبر الطريق بسرعةٍ، وأنقرُ الرصيـف البعيـد بعصـاي، أخطـو إلـى ممّـر المشـاة، وألتـفّ للحظـاتٍ ملوّحًـا للسـائقين المُتَخيليـن قبـل أن أسـتريح عنـد الأعمـدة المعدنيـة للسـياج المقابـل. حينهـا أكـون قـد أُغلقـت الفجـوة ورائـي وعـاد الصّخب يغمر الشـارع مـن كلا الجانبين. لقـد نجحت، لقد فعلتها مرةً أخرى.

ومع ذلك، فقد أدهشني، بينما كنت أقف في انتظار صوت الصفير، شعوري أن ما كان بالنسبة لي بيئةً طبيعيةً تمامًا ومكتملةً وغنيةً بالمعلومات التي تخبرني بكلُّ ما أحتاجه من أجل عبورٍ آمن، تبدو بالضرورة وتظهر بشكلٍ مختلفٍ تمامًا لسائق السيارة. عبرَت الفكرة في ذهني: «إنهم يعتقدون أنّني أعمى، لكنّني لست كذلك!». ما قصدت قوله هو: «إنهم يعتقدون أنني جاهلٌ وعاجز، وأنني لا أعرف أين أنا، وربّما أقوم بفعلِ شيءٍ سخيفٍ وخطيرٍ لنفسي أو لهم. لكن في الحقيقة قد أكون بنفس درجة أمان عابرٍ عاديٍّ مُبصرٍ لهذا المكان».

إذا نظرنا إلى الوراء الآن، أعتقد أن هذه كانت المرة الأولى التي شعرت فيها بالهدوء والثقة كشخصٍ أعمى في عالم المكفوفين، حيث يمكنني التحرّك والتنّقل بشكلٍ معقول وبأمانٍ وسهولة. الآن وبعد عيد ميلادٍ لا بأس بهِ، أشعر بوضوح أكثر من أي وقتٍ آخر؛ أنّ التجربة الأسترالية في الصيف الماضي كانت نقطة تحوّل، إن لم تكن نقطة انكسارٍ، في فترة حزني على فقدان البصر. ما زلت أحيانًا أعاني من إحساسٍ حادٍ وشديدٍ بالِفقد والخسارة، لا سيّما في وجود الأطفال، لكنني بشكلٍ عام أصبحت أكثر هدوءًا. أصبحت الحياة محتملة، فأنا مسيطرٌ بشكلٍ أو بآخر على حالتي وعملي ومشاعري. أعلم وعليّ أن

أقول إن العديد من هذه المشاعر سوف تعاودني، وأنني سأدخل في مشـاعر الحـزن مرارًا وتكـرارًا. ومع ذلك، فلقـد انتهت فترة الحزن الرئيسية.

لقد استغرق الوصول إلى هذه النقطة أربع سنواتٍ ونصف. في البرنامج الإذاعي: «إن تاتش» في ذلك اليوم، كانت إحداهن تتحـدّث عن فترة حزنهـا على فقدان البصـر. بضحكةٍ اعتذارية، أشارت إلى أن الأمر استغرق أسبوعين كاملين. لا زلت مندهشًا مـن قدرة بعـض الناس على التكيّف بهذه السـرعة. بالنسـبة لي، كان الأمـر بمثابة موت طويل وبطيء ومُتلكّئ.

٣ فبراير

يبـدو أننـي بخير ما دمت آخُذ بزمـام المبادرة. مُنِح الأطفال مجموعـةَ ألعاب بناءٍ وتركيب في عيـد الميلاد. كانت الصواميل والمسـامير كبيـرة مثـل أصابـع الكبـار. كان طـول شـرائح البناء البلاستيكية تتفاوت بين ثمانية إلى ثمانية عشر بوصة. لقد كانت شـيئًا أوليّـا طفوليًـا، من السـهل جدًا علـى الأعمـى التعامل معه مقارنـةً بألعاب الليجو الصغيرة جدًا والمعقدة.

قبل بضعة أسابيع، قضيت أنا وتوماس وقتًا رائعًا في اللعب بهـذه الألعـاب والتركيبـات صبـاح يوم السـبت. صنعنا مسدسًـا

فضائيًّا ثم كرسيًّا مرتفعًا ومتحرّكًا بعجلات للدبّ تيدي. لقد كان إلى حدٍّ بعيد أفضل وقت لعب أمضيته معه على الإطلاق.

كنت أفعل شيئًا، وكنا نفعله معًا. في معظم الأوقات، أكون مجرّد حاضرٍ فقط أثناء فعل أي شيء. حتى عندما نقوم ببعض الأشياء معًا، غالبًا ما يكون الأمر فرديًا وتلقائيًّا، مثل الأكل، وهو ما نفعله في نفس الوقت، ولكن بشكل منفصل. كانت المتعة متبادلة في البناء باستخدام مجموعة ألعاب التركيب.

كان اليوم مختلفًا نوعًا ما. جاء صديقٌ قديمٌ ومحبوبٌ للعائلة بهدايا عيد الميلاد المتأخّرة. كانت الهدايا عبارة عن مجموعة من الأنابيب البلاستيكية الصغيرة التي تحتوي نوعًا من المطّاط الرّغوي والذي يتحوّل إلى أشكالٍ حيوانية عند وضعه في الماء الدافئ. أَحَبَّ الأطفال اللعبة. كانت صيحات الفرح تتوالى من الحمّام كلما تشكّل وخرج حيوانٌ جديد.

بعد ذلك، كان هناك دميةٌ على هيئةِ مهرّج. كان عليك تعليق حلقاتٍ وأساور مختلفة على يديه وقدميه.

في صباح اليوم التالي استيقظت وكنت لا أزال أشعر بالنّعاس. جاء طفلٌ صغيرٌ ليلعب مع توماس وليزي. هذا الموقف دائمًا صعب إلى حدٍّ ما؛ لأنّني لا أعرف بالضبط ما

يفعلونـه. أفتقـد ردود الفعـل والتفاعـلات. مـن الصّعـب للغاية معرفة ما يفعله الشخص الذي لا يصرخ. وضعت شريط كاسيت وذهبـت إلـى غرفـةِ الطعـام للاسـتماع إلـى مكبّـرات الصّـوت الإضافية. كان عليّ أن أقفَ وأتكّئ على الحائط لأبقى مستيقظًا. مـرّت موجـاتٌ مـن النوم علـيّ وفـي النهاية صعدت لأسـتلقي. أطفأتُ نفسـي لمدة ثلاثة أرباع السّاعة تقريبًا.

اتّجهـت بعد ذلـك لتناول طعام الغداء، لكـن توماس طلب منـي أن ألعـب بالمهـرّج المحمـول. كان لـدي شـعور أن ذلـك سـيكون صعبًا للغاية، لكنني أردت بشـدّةٍ المحاولة. سمحت له أن يقودني إلى غرفة المعيشـة وعندما جلسـت وضَعَ المُهرّج في يـدي. كان عبـارة عـن كتلـة من الأشـكال والخيـوط. بعد بعض الاستكشـاف والاسـتطلاع، وجـدت مـا يجـب أن يكـون قبعـة المهـرّج. بـدا وكأنه يقف علـى إحدى رجليه، بينمـا رجله الثانية فـي الهـواء وكأنّـه يركـض، وذلـك مـا أكّـده توماس بعـد ذلك. حملـت المهـرّج في وضعٍ مسـتقيم بينمـا بدأ توماس فـي تزيينه بأجزائه وقطَعِه الصغيرة.

خـلال هـذا الوقت، خلجـاتٌ أكثر مـن كونهـا موجات من النعـاس والنـوم بدأت تنفخُ في دماغي. شـعرت بأنني أبتعدُ أكثر

فأكثر. عند دخولها الغرفة، شعرَتْ مارلين بالقلق عليّ عندما رأتني، وحثّتني على الذهاب إلى المكتب. على مضَضٍ، أخذت بنصيحتها، وذهبت بقلبٍ مثقل. كنت منسحبًا، سواء كان ذلك إلى الداخل أو إلى الخارج، لكنه كان أسلوبي الوحيد للدفاع.

حتى أثناء المشي إلى العمل شعرت بالدوار، وبمجرد أن جلست على كرسي مكتبي المريح، نمتُ وكأنني مُخدّرٌ لمدّة استمرّت ثلاث ساعاتٍ تقريبًا. بعد ذلك، استيقظت وما أن بدأت في تنظيم أشرطة الكاسيت الخاصة بي على المكتب لبدء العمل حتّى اتّصلت مارلين.

كان الأمر أشبه بالتخدير. أثناء اللعب بالمهرّج، شعرت بالشعور الذي تشعر به عند حقنك بالمخدّر قبل العملية. تبدأ في الشعور بالنوم يزحف عليك. ما شعرت به يمكنُ مقاومته بالطّبع، وإلّا كنت سأقَع. مع ذلك، كان ذلك أقرب تشبيه.

لابدّ وأنّ ذلك نوعٌ من الحماية ضد وضعٍ لا يُطاق. أسمع الأطفال وكل شخص آخر يصرخون بفرح وحبور ويتحدّثون، ويبدو الأمر كما لو أن المعرفة التي لديّ تسخر من المعرفة التي لا أملكها، في حين أن أثرَ هذا التباين في النفس يجعلني أرغب في الاستغناء عن أي معرفةٍ مستقبلية.

كانـت زيـارة صديقة قديمة بالتأكيد عامـلاً آخر. لعبت بكل سـعادةٍ مع الأطفال. أشارت إلى الألعاب واهتمّت بها، وفتحت الصناديـق الجديـدة بـكل هـدوء، وجلسـت تنظـر فـي كتيـب الإرشادات. أشـعرتني وهي تشغّل الألعاب وتلعب مع الأطفال بالصعوبـات التـي أعانـي منها عنـد اللعب معهـم، والافتقار إلى البراعـةِ فـي معرفـة التفاصيـل مـا أفسـدَ دوري وأهميّتـي بينهـم. لطالما كان لدي حبٌّ خاص للتفاصيل الدقيقة لسلوك الأطفال.

الغريـب أنني لـن أصف ردّة فعلي على أنهـا كانت عاطفية. وبالمثـل، كمـا تعلّمـت بالفعل، فـإن الاكتئاب المرتبـط بالعمى ليـس شـعورًا. فـي الحالة التـي أصِفها، لا أشـعر بالحـزن فعلاً، وبالتأكيد ليس لدي أي شـعور بالمرارة. عندما أفكر في علاقتي مـع إيموجين عندما كانت في الثانيـة أو الثالثة من العمر، وكيف اعتدنـا علـى اللعب معًا لسـاعات، وأقارن ذلـك بعاداتي الحالية فـي اللعب مـع توماس وليزي، يتكوّن لديّ شـعور. من الصّعب تحديـد ماهية هذه الشـعور. هل من الممكن أن تكون المشـاعر مسـتحوذةً علـيّ بشـكلٍ غريـبٍ أو قريـبٍ جدًّا، بحيـث لا يمكن للمرء توصيف حالته أو إطلاق اسمٍ عليها؟ هل من الممكن أننا نذكر فقط مشاعرنا المعتدلة؟ هل المشاعر، كما الضوء، تخطف بصرَنـا وبصيرتنـا عندما تكون شـديدةً للغاية؟ أفضـل ما يمكنني

فعله هو أن أقول إنّه شعورٌ قارِصٌ ولاذعٌ بالخسارة. هناك أيضًا شعور بالاشتياق إلى علاقة والحصول على تجربةٍ، وربما بعض الذّعر من فكرة أن كلَّ هذا يمرُّ الآن في داخلي وأن تلك السنوات الذهبية من لعِب الأطفال لا يمكنُ استردادها أبدًا.

ثم يبدو لي أنني فقدت إيموجين، اِبنتي من زواجي السابق، بطريقةٍ ما وها أنا أفقد هذين الطفلين الآخريين بطريقةٍ مختلفة.

ومع ذلك، في هذه الحالة، لا أشعر بالبكاء على الإطلاق، ولست على درايةٍ بشعور الغضب أو الشفقة على الذات أو أي شعورٍ يثير الشفقة. إنه بالأحرى كما لو أن النيّة حلّت محل الشعور. النية هي الانسحاب. لم تعد الحياة العاطفية تُمارس كمحتوى (بمعنى محتوى محدّد من الغضب والحزن وما إلى ذلك)، ولكن كنوعٍ من الشعور بالخدَرِ. ألجأ إلى النوم، أو النوم يلجأ إليّ ويسكن داخلي.

بمجرد أن أكون في الخارج وبحضور الأطفال؛ أكون في وضعٍ يسمح لي بالاستسلام لهذه المشاعر وأشعرُ بنوعٍ من الاِستيحاش، ولكن بشكلٍ أساسي نوع من العجز، وعدم القدرة على التفكير أو التصرف، ارتباك أو انجراف بعيد، جنبًا إلى جنب مع شعورٍ بالراحة الجسَدية بينما يأخذني النوم.

يبدو أن ذلك يستغرق في العادة عدّة ساعات، أشعر بتحسّن في بعض الأحيان بعد أن يستحمّ الأطفال وينامو. قد أكون في المكتب، ولم أفكّر في العودة إلى المنزل بعد، لكنّني أتحسّن بطريقةٍ ما كما لو أن همًّا رُفع عنّي. في بعض الأحيان تأتي نقطة التحوّل في وقت مُبكّر، عندما أعلم أنّ الروتين المعتاد في المساء قد حان؛ الاستحمام والتغيير وطقوس النوم. أشارك في هذه الطقوس كثيرًا وبنجاحٍ كبير. يبدو الأمر كما لو أنني أعلم أن وقت اللعب قد انتهى الآن، وقد بدأ تسلسلٌ جديد يمكنني التعامل معه.

٤ فبراير

أثناء محاولتي العمل في عطلة نهاية الأسبوع، كنت مكتئبًا في المكتب وأخذتني نومة ثقيلة، كما لو كنتُ مخدّرًا. حلمت حلمًا واضح المعالم عن المكتب. كانت الغرفة مليئة بالضوء. لاحظت أنّني لم أغلق باب المكتب. كانت الناس تمشي ذهابًا وإياباً في الممر، ربّما رأوني في المكتب نائمًا على الكرسي. كل هذا كان في الحلم. ربّما كنتُ نصف مستيقظ؟ كان هناك خزانة ملابسٍ يخرج منها الضوء. شعرت بالضوء وبحثت عن المفتاح. كان ضوءًا شديدَ السّطوع لدرجة أن كل التفاصيل في

خزانـة الملابس كانـت واضحة. ظهرت الملابـس المعلقة على الخطّافـات بتفاصيل رائعة مقابـل الجدار الكريمي اللون. عندما حدّقـت فـي الغرفة، بـدت الإضاءة غيـر مكتملة ولفتَـت انتباهي إلـى تفاصيـل لم ألاحظهـا من قبل. مـا هذا؟ باب. بـابٌ داخليّ ربما يقود إلى المكتب التالي. باب خشـبيّ مطليٌّ ومشغولٌ على الطـراز القديـم، بتصفيحـةٍ منقوشـة مسـتطيلة الشـكل ومقبـض دائـري من النـوع المحلـيّ. كان البـاب بلون الشـوكولاتة، غنيٌّ باللون البنّي مقابل لون الجدار الكريمي. نظرت إلى ذلك الباب بانبهار، وتسـاءلت كيف يمكن أن يكون هناك وأنا أشـعرُ وأعتقدُ أنّنـي أعـرف كل زاويـةٍ وركنٍ في هـذه الغرفة، كيـف لم ألاحظ ذلك من قبل؟ ومن ثم اسـتيقظت.

عند الاسـتيقاظ، بدا لي حلمًا غريبًا ومؤثرًا. لكن لم أستطع معرفـة السـبب. ربّمـا يتعلـق الأمـر بالخصوصيـة، وفقـدان الخصوصيـة ومـا يتبعهـا، بمـا فـي ذلـك الثلاثـة أبـواب، أحدُها مفتـوح، والآخـر نصـفُ مفتـوح؛ يمكـن لنصفـي فقـط الدخول (باب خزانة الملابس)، والباب السرّي. يعكس الحلمُ العلاقات بيـنِ كلّ شـيءٍ فـي الداخل وكيفيـة ارتباطها بالعالـم. كما يصِفُ مختلـف أنواع المشـاعر، مـن المنغّصات حتـى الممكنات التي يفرضهـا العمى، ويرسـم الطريـق للتعاطي والتواصـل مع العالم

الخارجي. ثمّة أملٌ غريبٌ في الباب الغامض والمغلق بإحكام والذي لم يُكتَشَف من قبل، ثمّة مكانٌ مألوف لم تعرفه من قبل. إذا نظرت عن كثبٍ في أكثر المواقف الحميمية، لابد وأن هناك باب آخر لم تطرقه.

٥ فبراير

أمضى كليف إنمان، بعد تعرّضه لحادث سير، ستة أشهر في المستشفى وستة أشهر أخرى أو نحو ذلك وهو يخضع للعلاج الطبيعي. يمكنه الآن المشي مرةً أخرى وقيادة سيّارته، لكنه يفتقد الشعور بالحرارة أو البرودة في جسده من تحت رقبته إلا في إصبع أو إصبعين. أخبرني مؤخّرًا أنه لا يمكنه معرفة ما إذا كان يشعر بالسخونة إلا إذا بدأ يتصبب عرقاً، وكذلك الأمر، لا يمكنه معرفة ما إذا كان يشعر بالبرودة إلا إذا لاحظ ارتعاش جسده. أشرت إلى أنّه في بعض الأحيان تكون راحة يده متعرّقة أو رطبة عندما يكون متوترًا، فكيف يمكنه معرفة ما إذا كانت توتّرًا أم سخونة؟ ردّ كليف بأن نفسيته تخبره عندما يكون متوترًا، لكن نفسيّته لا تخبره عندما يكون جسده ساخنًا. ومع ذلك، اتّفق معي في أنه قد تكون هناك أوقات يلاحظ فيها المرء أن راحتيه تتعرّقان، ويخطر في باله: «لا بُدّ

وأنّني متوتّر!». في مثل هذه الحالة، حيث تلفت الأعراض الانتباه إلى الحالة، قد لا يعرف ما تشير إليه تلك الأعراض.

سألت كليف ما إذا كان يشعر أنّه لم يعُد يعيش في ذلك الجزء من جسده الواقع تحت رقبته. وافقني وأضاف بأنّه غالبًا ما يشعر بشعورٍ غريب جدًا، بأنه منفصِلٌ عن جسده.

حالة كليف على العكس مني. بصفتي شخصًا أعمى، أميل إلى الانطواء داخل جسدي، وأكون واعيًا به في المقام الأول ومعزولًا عن العالم. من ناحيةٍ أخرى، كليف مقطوع عن جسده، ولديه حواسّ كاملة، ويعرف تمامًا ما يريد لجسَده أن يفعله في العالم، لكن جسده لن يفعل ذلك. يقوم جسَدي بعمل جيّد تمامًا فيما يخصُّ ما أريده أن يفعل في العالم، لكنه يفتقد العالم الذي يمكنه أن يفعل فيه ما أريد. في المراحل الأولى من علاجه الطبيعي، لم يكن قادراً على المشي لكنه كان يعرف بالضبط أين يريد أن يمشي. يمكنني المشي بشكلٍ مثالي، لكنّي لا أعرف أين أمشي. ليس لدي عالم أمشي فيه. لم يكن لديه جسد يمشي معه.

١٦ فبراير

يعبّر العديد من المبصرين عن قلقهم بشأن طريقة تعاملي مع الثلج. صحيحٌ أن الثلج يخلق مشكلةً كبيرة للمكفوفين. هنالك مقولة مأثورة: الثلجُ ضباب الأعمى.

يواجـه معظـم الأشـخاص المبصريـن بعـض الصعوبـة في إدراك طبيعـة مشـكلتي. إنهـم يميلـون إلى افتراض أنني سـوف: «أنزِلـقُ وأتزحلـقُ». بعبـارةٍ أخـرى، ينسـبون إلـيّ ذات الصعوبة التـي يواجهونهـا مـع الثلج، على افتـراض أنه إذا كانـوا ينزلقون ويتزحلقـون؛ فلابدَّ وأنني أنزلق وأتزحلق أكثر.

مشـكلتي ليسـت عدم الثبـات، ولكن التنقـل. لا يعني ذلك أننـي لا أعرف أين أضع قدمي، لكنـي غير متأكد من وجهتي. ما أعانيـه فـي الثلـج هـو فقـدان المعرفة؛ حيـث يتم طمـس جميع النقاط والعلامات المألوفة عندي، والدرجات المختلفة والقوام المتنـوّع للعشْـب، والحصى، والأسـفلت، والخرسـانة. إذا كان الثلـج عميقًا بما يكفـي لتغطية الحواجز وحِفـاف الرّصيف، فأنا أواجه مشـكلة حقيقية؛ لأنني لا أسـتطيع تحديد مربّعٍ سكنيّ عن الـذي يليـه، أو الطريق عن ممرّ المشـاة. أشـرح للنـاس أن لدي حـذاءً جيـدًا وصلبًـا، ولـم أنزلق من قبـل وأنّني ثابـتٌ تمامًا على قدمـي. وأوضـح لهـم أن المشـكلة تكمـن فـي أنني لا أسـتطيع تحديد طريقي.

يجـدُ المبصـرون صعوبـةً فـي إدراك أن الجسـدَ ذاته أصبح بالنسـبة للشـخص الأعمـى عضـوَ إحسـاس. بصـرف النظر عن العصا البيضاء والأصوات في البيئة، فإن معرفة الجسـم بمحيطه

لا تتجاوز أبعاده الخاصة. هذا واقعٌ غريبٌ عن الجسد، يصعب على المبصرين استيعابه.

٢٥ فبراير

اليوم لم أستطِع أن أتذكر إلى أي جهةٍ يشير الرقم العربي ثلاثة. كان عليّ أن أرسمه بإصبعي في الهواء - واحد، اثنان، ثلاثة -. الآن أتذكر. يشير إلى اليسار. إذا كان يشير إلى اليمين، فهو يشبه إلى حدٍّ ما الحرف E. كانت مارلين معي، وتفاجأت عندما اكتشفت أن مثل هذه الصورة المتأصّلة بعمقٍ يمكن أن تضيع ولو جزئيًا.

كان علي أيضًا أن أسألها ما إذا كانت الحاشية: «border» التي تكون على حافة مفرش المائدة تُكتَبُ «border» أو «boarder».

أعتقد أنني كنت في حيرة من أمري أيضًا بشأن اللوحة: «board» التي توجد حولها حدود: «border». يوضّح هذا إلى أيّ مدى تعتمد قدرة التهجئة على الصور المرئية.

٨ مارس

عندما كنت مُبصرًا، غالبًا ما كنت أتناول مشروبي وآكل الساندويتش على البار في مطعم الموظفين. حتى لو ذهبت

بمفـردي، فنـادراً مـا أبقـى وحـدي لفتـرةٍ طويلـة. كنت سـألتقي بشخصٍ أعرفه، أو اعتقدت أنّني أعرفه، أو تظاهرت بأني أعرفه. سـتحصل هنـاك إيماءةٌ ظريفة، وابتسـامةٌ عابرة، وسـأجَد نفسـي أتحدّث مع شخصٍ ما.

كل هذا تغيّر. عليّ أن أنتظر حتى يقترب مني شخصٌ ما، أو علـيّ أن أتعرّف على صوتِ شـخصٍ أعرفـه. في البار المزدحم، هذا ليس بالأمر السهل. علاوةً على ذلك، فإن الأشخاص الذين يمكُـن تمييز أصواتهم بما يكفي لأتعرّف عليهم هم الأشـخاص الذين أعرفهم جيّدًا بالفعل، وليسـوا مجرّد معارف عابرين كنت التقيـت بهـم فـي الأيام السّـابقة. لـم يعـد بإمكاني تقديم نفسـي للغرباء، لقد سلب العمى مني كل الخطوات التمهيديّة للتعارف، إعرابات الشّـكر الصغيرة، أسئلة المجاملة والتحايا العرضية.

في هذه الأيام، غالبًا ما أذهب إلى البار، وأقف هناك أشرب كأسـي، وأتساءل ما إذا كان سـيتحدّث إليّ أيُّ شخصٍ. في كثيرٍ مـن الأحيـان، لا أحـد يفعـل. الغريـب في الأمـر أننـي وبمجرّد مغادرتي، وبعد ثمان أو عشر خطواتٍ من البار إلى باب الغرفة، يقترب مني فجأةً أكثر من شـخص، ويمدّ يدَه إليّ، وبصوتٍ قلقٍ يسـألني مـا إذا كنـت بخيـر. غالبًـا مـا أجـد بيـن هـذه الأصوات أشـخاصًا يعرفونني. ربمـا لم يلاحظونـي عند البـار. ربّما كانوا

منشغلين في محادثاتهم الخاصة. ربّما ظنّوا أنني أريد أن أشربَ بمفردي. المفارقة في ذلك هي أنني الآن محاصر بعروض المساعدة التي لست بحاجةٍ إليها، بينما للتو كنت سأقبل بكل سرورٍ بأيّ عرضٍ لمحادثةٍ اجتماعيةٍ، إلا أنني تُركت لوحدي.

تتمثل إحدى مشكلات الجلوس على بار مطعم الموظفين في عدم معرفة الأشخاص الجالسين لأسماء بعضهم البعض في أغلب الأحيان. يمكن للمرء غالبًا الذهاب إلى هناك، والالتقاء بمجموعة من الأشخاص الذين يعرفهم أو رآهم من قبل في الحرم الجامعي، ولكن لا يعرف اسمَ أيّ واحدٍ منهم. بالنسبة لي، معرفة الأسماء هي وسيلة التنّقل الاجتماعي. أنتقل على أكواع الناس وأسمائهم.

أضِف إلى ذلك، من عشرِ محادثاتٍ أجريها على البار عندما كنت مُبصرًا، كنت المبادر في سبعٍ أو ثماني محادثات. وبالتالي، فإن التغيير الذي فُرِض على شخصيّتي كان أكثر حدّة مما لو كنت شخصًا خجولًا ومحبًّا للانعزال. ما الذي يجب فعله حيال ذلك؟ يجب أن أتوصّل إلى نتيجةٍ محزنة مفادها أنه لاِ جدوى من الذهاب إلى البار لتناول مشروبٍ عابر، عليّ أن أذهب دائمًا برفقة أحد. عليّ أن أتأكد بالتواصل مع أصدقائي مسبقًا من أنني سألتقي شخصًا يتوقعني. أعرف ما سيحدث بعد

ذلك؛ سأتّصل بهم، لكن أحدًا لن يذهب. لم لا؟ لأن العادة أن لا تتّصل بهذه الطريقة، ولكن عليك أن تذهب إلى البار وتتناول مشروبك على اعتبار أنّك لا تتوقع أحدًا. الأمر الآخر هو أن الناس تعتقد أنني بحاجةٍ إلى مساعدةٍ في الوصول إلى البار، بل أنني أحصلُ على عروضٍ للحضور إلى غرفتي ومرافقتي. من الصعب جدًا إخبار الناس أن التنّقل الجسدي ليست مشكلة، لكن التنّقل والتواصل الاجتماعي هو المشكلة.

١٠ مارس

اتّخذت جهودي لفهم تأثير العمى على حياتي منعطفًا جديدًا. حظيت بالأمس بيومٍ سعيد للغاية مع العائلة. كانت إيموجين هنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، بعد الإفطار لعب جميع الأطفال معي لعبة لودو[١]. وصلَ بعض الزوار في الصباح، ومكثوا معنا لتناول طعام الغداء. بعد الظهر أخذنا أنا ومارلين الأطفال في السيارة إلى ساحة اللعب. دفعتهم في المراجيح ودوّرت لهم العجلة الكبيرة. عند عودتي إلى المنزل في الساعة الرابعة، أدركت أنني متوتّر نوعًا ما. بعد ساعة وبحلول وقت

(١) لودو Ludo وهي لعبة لوحية إستراتيجية لشخصين أو أربعة أشخاص، يلعب كل لاعب بأربعة قطع يحركها باستخدام النرد.

الاستحمام، زاد توتّري، وأثناء تناول وجبة المساء، عند السادسة والنصف تقريبًا، شعرتُ أنني لا أقوى على السيطرة على توتّري. اقترحت مارلين، التي لاحظت انسحابي، أن أحاول تسلية نفسي ببعض الأعمال في الطابق العلوي. لم أشعر بالنعاس، لكن بحلول السابعة والنصف كنت قد نمت، بقيت نائمًا لثلاث ساعات. كان المنزل صامتاً والأطفال في الفراش، شعرت بتحسّنٍ كبير. ما الخطأ الذي حدث في ذلك اليوم؟ لماذا أصبحت متوتّرًا بعد هذا الوقت السعيد؟

لا يرتبط التوتّر بالضرورة بالاكتئاب، على الرغم من أنه يمكن أن يحدث بسبب الاكتئاب. إنه يؤدي إلى غياب الشعور وعجز الحركة، ويستحيل إلى حالةٍ من الجمود. يستغرق الأمر أيضًا وقتًا أطول للخروج من الحالة عندما تكون مرتبطةً بالاكتئاب.

يبدو أن ما حدث بالأمس كان مستقلا عن السعادة والاكتئاب. كان حالةً معرفيةً أكثر من أي شيءٍ آخر.

دور النوم وأهميّته مختلفة أيضًا. عندما يرتبط التوتّر بالاكتئاب، تغلبني الرغبة، وربما الحاجة، إلى النوم. في هذه المناسبة لم أشعر بالنّعاس أثناء النهار، وعندما ذهبت إلى مكتبتي حوالي الساعة السابعة مساءً، كان ذلك بنيّة العمل وليس

النوم. وجدت أنني لا أستطيع العمل؛ لأنني كنت بحاجةٍ إلى عنصر من المعلومات كان متاحًا فقط في مكتبي. لم أتمكن من الاستمرار في استخدام الميكرو كاسيت، وفي النهاية، استلقيت وأخذَني النوم؛ لأن الأشياء التي يمكنني القيام بها قد نفدت. النومُ بديلٌ مقبول جدًا للعمل، لكنّه لم يغلبني هذه المرّة ولم أستسلم له.

على الرّغم من أن أفضل سياسةٍ لدي هي أخذ زمام المبادرة لدرء مشاعر السلبية والتفاهة التي تسبب الاكتئاب، إلا أنه لا يزال هناك نوع غريب من الإرهاق المعرفي أو النفسي الذي يغلب عليّ رغم السعادة. ماذا يمكن أن يكون؟

قد تكون الضوضاء عاملاً. من الطبيعي أنني أصبحت حساسًا للضوضاء. من المؤكّد أنه كان يومًا صاخبًا. كان هناك صبيّان يرقصان الديسكو في الطابق العلوي، وصبيّان آخران يستمتعان بلعبة: «هي مان[1]» المثيرة في مكتبتي. كان الراديو في الطابق السفلي، ومجموعة من الأطفال الصغار يلعبون على امتداد المكان. كانت الألعاب متناثرة في أرجاء المنزل، على الرغم من الجهود الجبارة التي بذلها الكبار في ترتيب المكان. لم أستطع اتخاذ أي خطوةٍ مالم أقم بمسْح الأرض التي أمامي

---

(١) هي مان he-man بطلٌ خارقٌ خيالي وشخصية كرتونية.

وكأننـي أقـوم بأحد الطقـوس الدينية. كل ذلـك يجعلني وكأنني محاصـرٌ ومصـابٌ ويُشْـعِرني بالبُعـد والإقصاء؛ فـلا أقوى على الـردّ بالرّغم من أن ما حولي يناديني.

فـي العمـل، يمكنني التحكّم في مثـل هكذا قصف وإصابة، علـى الأقـل إلى حدٍّ ما، من خـلال خلْقُ يومٍ يمكـن التنبّؤ به. أنا مـن يتحكّم في الصنبـور، إذا جاز التعبيـر، ويمكنني زيادة تدفّقه أو تقليلـه، كمـا أريد. يمكنني إنهـاء المقابلة. حتى لو كنت عالقًا فـي نـدوةٍ أو لجنـةٍ، فأنـا علـى علمٍ من أنها سـتنتهي فـي غضون سـاعةٍ أو نحو ذلك. في المنزل الأمر مختلف.

أي شـخصٍ بالغ عادي سيشـعر مثلي إلى حدٍّ ما، خاصّة إذا كان فـي ظروفٍ مماثلة. لا يمكن السـيطرة على الأطفال. لكنني أستطيع أن أقول، إن تجربتي ليست على هذا النحو قبل أن أفقد بصري. الأمر مختلفٌ تمامًا الآن. الإحسـاس بالارتداد والخدَر يكبُـر، وهنـاك شـعورٌ غريبٌ بـأن المـرء أصبح غيـر حقيقي أكثر فأكثر.

هل أصبحت حيوانًا ليليًّا؟ عندما يُجبر مثل هذا الكائن على البقـاء مسـتيقظًا والاختلاط طوال اليوم، تحت الضوء السـاطع، مـع حيوانـات النهار، تصبح حواسُّـه مُطاردة، ويشـتاق إلى ملاذٍ

صامتٍ وساكنٍ حيث يمكنه التّعافي. في حالتي، تنكسر هذه الاستعارة؛ لأنه لا يوجد وقتٌ معيّن لليّل، كما لا يوجد وقتٌ للنهار.

هل هناك ما هو أكثر من الاستعارة؟ هل صرت كائنًا ليليًّا؟ ألست أكثر قُربًا من الأحلام؟ ألا يجعلني العمى قرين الظلمة؟ إذا كانت الشمس هي رمز الوعي، فإن القمر المصدر السّحري لحياتنا الأعمق. لستُ مقصيًّا فقط عن الشمس الحقيقية، ولكني أصبحتُ أقل تسامحًا مع الوعي ما لم يتم غمْره في كثير من الأحيان مع نقيضه من القوى الغامضة.

٨

مازلت أبحث

ربيع ١٩٨٥

١١ مارس

أدهشتني الرواقية في العديد من السير الذاتية للمكفوفين التي قرأتها. ومن الأمثلة البارزة على ذلك السيرة الذاتية للبطل (مصاب الحرب) الكولونيل السير مايكل أنسيل[١]، صاحب كتاب: «تابع بإصرار[٢]» الصادر عن دار بيتر ديفيز، لندن، ١٩٧٣. فقد السير مايكل أنسيل بصرَه بسبب سوءِ فهم مؤسف حدث أثناء الانسحاب المرتبك لقوة المشاة البريطانية وقبل الهجوم الألماني عام ١٩٤٠. كان هو ورفاقه يحتمون في حظيرةٍ عندما هاجمهم مجموعة من الجنود البريطانيين الذين

---

(١) العقيد السير مايكل أنسيل Michael Ansell (١٩٠٥-١٩٩٤) ضابط انجليزي ولاعب بولو وخيال.

(2) Soldier On (London, Peter Davies, 1973)

اعتقـدوا أنهـم ألمـان. يتحدّث باقـي الكتاب عن إنجـازات هذا الرجـل الرائع في الفروسـية، خاصة في مسـابقات قفز الحواجز البريطانيـة، وكذلـك عملـه فـي تأسـيس عـرض حصـان العـام، وكمـدرب لفريق الفروسـية البريطانـي للألعـاب الأولمبية. فقد أنسـيل زوجته الأولى بسـبب السـرطان، وفقد زوجتـه الثانية في حادث سير مأساوي، ورغم كل هذه المآسي استمر سرد القصة في الكتاب بطريقة واقعية تمامًا. لا يوجد أثر للشفقة على الذات أو حتـى لتحليل الذات في الكتاب كله.

لا يمكننـي كتابـة كتـاب رواقـي أو كتـاب واقعـي؛ علي أن أكتـب بطريقتي الخاصة، في محاولـةٍ لفهم ما يحدث لي. يجب أن يشـمل هـذا بعض الجهـد لفهم العمـى ذاته، وكذلـك العمى الـذي أعانيـه. فـي السـعي إلـى الفهم، سـعيٌ إلـى المعنـى. هذا التصريـح جـزءٌ من إيمانـي. أنا ملتـزمٌ بالفعل بمفهـوم أن الحياة الموحّـدة أعلى قيمة من الحياة المجزّأة، والمعنى الكامل أفضل مـن المعنى الجزئـي. بطبيعة الحـال، فإن السّـعي وراء المدلول النهائـي والتكامـل الكلّـي لـن ينتهي أبدًا. لـنْ يكونَ هنـاكَ منتجٌ نِهائـيٌ أبـدا. ومـع ذلـك، فـإن البحث والسـعي لا يزال يسـتحق العنـاء. سـأكون أكثـر عقلانيـة إذا تمكنـت مـن قبـول وتضميـن وملائمـة المزيد والمزيد من تجربتي.

عندما أتحدّث عن السعي للفهم، أفكر في الإيمان بحثًا عن الفهم. لهذا السبب، بالنسبة لي، لا يمكن أن يكون هناك استسلامٌ رواقي أمام مصيرٍ غيبي، مهما بدا الأمر شجاعًا، دون أعضّ على أسناني لا يمكنني القبول بمصيرٍ لا معنى له.

هذا هو المعنى الذي، في رأيي، لن يكون تصرّفًا مسيحيًا لو قبلت العمى على أساسه، أو حاولت الاستمرار كما لو أن شيئًا لم يحدث، أو تحدّيته بدافع الشجاعة؛ على الرغم من أنني لا أستطيع إلا أن أعبّر عن خالص احترامي لهؤلاء النبلاء المكفوفين الذين استجابوا بهذه الطرق. رغبتي في التماسك، هي رغبة اتّخذت الشّكل المسيحي، وهي تدفعني إلى سبر أغوار التجربة، والتمسّك بها، وتجريدها طبقةً تلوَ أخرى، للقبض على المعنى في داخلها وربطه بكل ما يتعلّق في الحياة اليومية.

لا يقترح هذا النهج أنني سأبحث عن أي معنى محدّد وخاص بالعمى ذاته كما لو أنّ: «لابد وأن العمى حصل لسببٍ ما»، أو كما لو كنت مهتمًا بالإجابة على السؤال: «لماذا حدث هذا لي؟»، بما أن المعنى الذي أسعى إليه سيكون متماسكًا، فسوف يكون جزءًا من المعنى الكلّي. العمى جزءٌ من حياتي، ويجب أن أحاول فهم خصائصه الخاصة، وأن أكون مخلصًا في

ذلك. ومع ذلك، يجب أن لا أنسى أبدًا أن العمى ليسَ سوى جزءٍ من التجربةِ الكلية. يجب أن تكون لديّ الشجاعة الكافية لأكون مخلصًا للمعنى الكلّي، معتبرًا ما حدث لي جانبًا من بين جوانب أخرى عديدة في حياتي. إذا أخذنا الفكر إلى أبعد من ذلك، فإن حياتي ليست سوى جزءٍ من كيان أكبر، وإذا كنت متماسكًا ومنسجمًا مع هذا الكل الأكبر، فسأكون منسجمًا ومستشعرًا بالكلّية بشكل أكبر. هذا جزء مما أفهمه كشراكة مع الله.

في محاولةٍ لموالفة حياة المرء حول المعنى، فإن أحد المخاطر التي يواجهها المرء هو اختزال المعنى. يميل المرءُ إلى إنشاء آلةٍ لصنع المعنى، مثل آلة صنع النقانق، بغض النظر عن نوع التجارب التي تسكبها في ناحيةٍ، تظهر النقانق أو المعاني في النهاية الأخرى. تُستعبد المفارقات، ويُحتفظ بالمتجانس والمنسجم فقط. النتيجة في النهاية هوّيةٌ قويّة لكنها ضيقة ومُختزلة.

ما أسعى إليه هو هوية قوية تقوم على الشمولية وليس على الإقصاء. يجب أن تصبح المسيحية عقيدةً مسكونيةً[1]، ليست طائفية ولا قبلية.

---

(١) المسكونية Ecumenism وتعني الدعوة إلى توحيد الكنائس، بحيث يكون هناك كنيسة مسيحية واحدة تجمع كل الطوائف.

هـذا يعني أنه لا يمكنني ببساطة قبول العمى، ويجب أن لا أرفضه أيضًا. عليّ أن أنسجم معه، عليّ أن أربط العمى بالبصَر، والوعي باللاوعي، والله بالشيطان، والحياة البشرية بالكون، وقوى الخلق بقوى الدمار. الرواقي يتسامح بشجاعة مع هذه التناقضات، لكن المسيحي يتفهّم ويسعى إلى تجاوز هذه الاختلافات وتوحيدها.

٢٥ مارس

لا يزال لدي شعور بأنني أرى. بالعين اليمنى، حديثة العمى، أعتقد أنه لا يزال لدي بعض الإحساس في بقعة الشبكية، وأعرف كيف أدير عيني من جانبٍ إلى آخر. غالبًا ما أفعل هذا تلقائيًا نحو المكان الذي يصدر منه الصوت. لذا، إلى حدٍّ ما، مازلت أعرف كيف أنظر. في الواقع، لا يزال لدي شعور بأنّني أحملق، وأحدق بإمعانٍ من خلال السواد، في حالة ظهر أو بدا شيء ما.

لست متأكدًا ما إذا كنت أشعرُ بذلك مع العين اليسرى، التي أصبحت عمياء تمامًا منذ ثلاثين عامًا تقريبًا. أحيانًا أحاول تجربة إغلاق إحدى العينين، ومحاولة تخيّل ما قد أفعله بالأخرى. عندما تكون كلتا العينين فاقدتين للبصر تمامًا، من

الصعب للغاية معرفة ما إذا كنت توجّه انتباهك لهذه العين عوضًا عن تلك. لقد ساعدتني قليلاً حقيقة أنني لا أزال أشعر ببعض الإحساس الداخلي بالضوء في العين اليمنى، بالرغم من أنّني لا أستطيع معرفة ما إذا كان هذا الشعور في عقلي أم في شبكية العين، وليس لدي الكثير من المعرفة لترجيح أيهما أكثر منطقية. من وقتٍ لآخر، في العين اليمنى، أو مع ما يبدو أنني أدركه وما أعتقد أنها العين اليمنى، تظهر منطقة دائرية من الضوء الوردي أو الضوء البرتقالي الفاتح على شكل مروحة. تتدحرج ببطءٍ على امتداد مجال الرؤية، ثم تصبح المنطقة المركزية مظلمة مرةً أخرى، ثم يتلاشى الضوء على حافة مجال الرؤية ويختفي. من المثير للاهتمام مشاهدة هذا. ربما بعينٍ عمياء منذ زمنٍ لابد وأن الرؤية اِنقطعت، لكن بعينٍ عمياء حديثًا لا يزال هناك محاولات للرؤية.

ربما تكون العين مطفأةً، ولكن الدماغ لا يزال يتلقى بعض الإشارات العصبية.

١ مايو

ما الذي يتوافق بصريًا مع الفرق بين الصوت والصمت؟ لا يمكن أن يكون الفرق بين الرؤية وإغلاق العينين؛ لأنه يمكنك

دائمًا فتح عينيك والنظر مرةً أخرى. لا يزال في قدرتك التقاط عنصر الإحساس مرةً أخرى، ولكن عندما يكون هناك صمت، لا تملك الأذن القدرة على التقاط الصوت مرةً أخرى. حتى عندما تكون عيناك مغمضتين، فأنت تعلم أن ما رأيته لا يزال موجودًا.

هل يرتبط الصوتُ بالصّمت كما يرتبط النهار بالليل؟ بالتأكيد لا؛ لأن الليل والنهار يمكن التنبؤ بهما، وحتى في الليل يمكن للمرء الرؤية وإن كانت محدودة. هل العلاقة بين الصوت والصمت من قبيل العلاقة بين الرؤية والعمى؟ هل العمى للنظر مثل الصمت للصوت؟ من الواضح أن هذا غير صحيح. العمى للنظر مثل الصمم للصوت. العمى حالةٌ داخلية. يعلم الأعمى أن العالم الخارجي لا يزال موجودًا ويمكن رؤيته. يفقد المرء ببساطة القدرة على رؤيته. أما في حالة الصّمت، فإن العالم الخارجي، عالم الصوت، لم يعد موجودًا. في حالة الصمت لا يزال المرء قادرًا على الاستماع، ولكن في حالة العمى يصعب القول إنه لا يزال قادرًا على النظر. نادرًا ما تنظر ولا ترى شيئًا، بينما كثيرًا ما تستمع ولا تسمع شيئًا، أو لا تسمع سوى القليل جدًا. كلّما نظرت، فإن النطاق الكامل لشبكيّة عينك دائمًا ما يكون مشغولًا بكل ما يمكن النظر إليه، ولكن عندما تستمع فإن

النطاق الكامل لسمعك لا يكون مشغولًا بكل ما يمكنك الاستماع إليه. في الظلام الدامس، يصبح البصر عديم الفائدة. لكن في الصمت التام، لن نقول إن قدرة السمع أصبحت عديمة الفائدة، وإنّما ليس هناك شيءٌ يمكن الاستماع إليه في الوقت الحالي.

يبدو إذن أنه لا يوجد موازٍ بصريّ دقيقٍ للفرق بين الصوت والصمت. الأصوات تأتي وتذهب بطريقة لا تحصل مع المشاهد المرئية. للأصوات ميزةٌ اعتباطيّة. لا يمتلك المرء الصوتَ أبدًا، لا يمتلكه بالطريقة التي يمتلك بها رؤية الأشياء. للعين الشريرة سُلْطةٌ على العالم، لكن لم يسمع أحدٌ من قبل عن أذنٍ شريرة. تمثّل القدرة على إغلاق العيون القوةَ التي يتمتّع بها المرءُ على الأشياء التي يراها، والقدرة على الاستبعاد. بينما السمع دائمًا ما يكون مُتقبِّلًا، سواء للصوت أو الصمت. يمكنك أن تُشيح بنظرك، لكن لا يمكنك أن تشيح بسمعك. يمكنك التظاهر بأنك لا تسمع، تمامًا كما تتظاهر أنك لا ترى، لكن لا يُمكنك أن تشيح بأذنيك عن الاستماع.

يمكن للصوت والصمت أن يحصلا دون استعداد، ويحصل الإحساس بهما داخليًا. بينما الأشياء المرئية يتم استشعارها بشكل موضوعي وماديّ.

وبالتالـي فـإن التفريـق بيـن الصوت/ الصمـت يعكس أحد الأشـكال القويّـة لكلّ ما هـو متعالٍ ويفوق قدرتنا. إنه يشـير إلى الشـيء الذي يأتي أو لا يأتي، يبدأ بشكلٍ غامض، وينتهي بشكلٍ غامـض، والـذي نحـن دائمًـا منفتحـون عليـه، ولكـن يجـب أن نتأمّله. لا بُدّ وأن هذا هو السبب في اعتبار محاولة استراق النظر إلى الله إنمّا بعكس محاولة الاستماع إليه. الصوت دائمًا متعالي.

٣ مايو

ربمـا تكون تجربة الدخول فجأة إلى منطقةٍ يغطّيها الضباب عنـد القيـادة على طـول الطريق السـريع موازيـةً لتجربة الصوت والصمـت. فيمـا يتعـدّى قدرتـك علـى التأثيـر فيـه أو التنبـؤ به؛ يختفـي العالـم المُـدرك فجـأةً، ليظهر مـرة أخرى علـى الجانب الآخـر. الفـرق هـو أن الضباب يعيـق الرؤية بينمـا الصمت ليس عائقًا أمام السمع. الصمت غياب. وبالتالي فإن الصوت يحتوي علـى غيـابٍ مدُمج، في حين أن البصر لا يحتوي شـيئًا مشـابهًا. الصـوت يقودنا دائمًا إلى حضرة العدم.

٧ مايو

بالأمس خرجت مع ابنتي الكبرى لتناول طعام الغداء. أثناء الوجبة، بدأت أشعر بأنني بعيدٌ ومهمّشٌ بشكل غريب. لم يوجّه

النادل لي أي ملاحظة. كل الحديث كان موجّهًا لإيموجين، وجدت أنه من الأسهل أن أمرّر طلباتي من خلالها إلى النادل. لم يكن عليّ السماح لذلك أن يحدُث؛ لأنه جعلني أشعر بأنني أكثر بُعدًا. كما أن حقيقة جلوسي مقابلًا لإيموجين وليس إلى جانبها أشعرتني بأنها لم تكن موجودة بالفعل، وقادتني بشكل أعمق إلى شعورٍ بالعزلة وغيبة الذهن. شعرت أن نوبة أو نوبتين من الذعر بدأت تسيطر على عقلي، وعندما وصلنا إلى المنزل، شعرتُ بالإرهاق التام.

لم أشعر بالنعاس، ولكن كان لدي رغبة في الاستلقاء تحت البطانية. أردت أن أشعر بالدفء والنسيان. شعرت براحةٍ شديدة. تساءلت كيف سيكون شعوري عند الاستلقاء تحت غطاء من الثلج. قرأت أن الأشخاص الذين وقعوا ضحيةً للعواصف الثلجية يجدون أنهم إذا استسلموا لإغراء الاستلقاء والراحة، فإنهم غالبًا ما يشعرون بالراحة تمامًا، لكنهم لا يستيقظون أبدًا. وجدت نفسي أتساءل كيف سيكون الحال إذا حدث هذا لي الآن.

عندما استيقظت بعد بضع ساعاتٍ من النوم، فكرت في أن ما كنت أعاني منه لم يكن كآبةً حقيقيَّة؛ لأنني شعرتُ بالسعادة، على الأقل جسديًا. شعرت بالاسترخاء. هل كان ذلك نوعًا من

الرغبة في الموت؟ هل يموت الناس في نومهم في مثل هذه الظروف؟ هل يمكن للحالة النفسية أن تتنازل ببساطةٍ عن الحياة؟ هل يمكن للروح ببساطةٍ أن تُغادر؟ هل ينتحر المرء لمجرّد الرغبة؟

تجارب مثل هذه علّمتني أن أعمق المشاعر تتجاوز كونها مشاعر. تترك المشاعر وراءها خدَرًا دون أن نُدرَك طبيعتها. أدرك الآن، بالنظر إلى الوراء، أنني كنت في قبضة حزنٍ عميق بسبب فقداني وافتقاري لعلاقتي الثريّة مع طفلةٍ محبوبةٍ للغاية، لكن في ذلك الوقت كان كل ما كنت أسعى وراءه هو الرغبة في الهروب.

٢٠ مايو

ذهبت إلى مطعم الموظفين لتناول طعام الغداء مع صديق. عندما مررنا عبر الأبواب إلى الردهة، كنت وسط مجموعة من الأشخاص الذين استقبلوني بصرخات: «الآن هذه مفاجأة لك. هل يمكنك معرفة من معنا اليوم؟». صوتٌ آخر اخترق الضوضاء قائلاً: «هل تعرف صوتي يا جون؟». لم أستطع معرفة عدد الأشخاص الموجودين، ربما كانوا أربعة أو خمسة، أو قد يصلون إلى سبعةٍ أو ثمانية أشخاص. من بين الأصوات

المختلفة، تعرّفت على شخصٍ أعرفه وقمتُ بتحيّته باسمه. شخصٌ آخر سألني إذا كنت أعرفه، فالتفتُّ نحوه، قلت ضاحكًا: «لا، أعتذر أيّها الرجل العجوز. أعتقد أنّه ليس لدي أي فكرة عن هوّيتك. على حدّ علمي، لم ألتقِ بك من قبل في حياتي. اِسمح لي، سأذهب إلى البار مع صديقي لتناول مشروب». شققتُ طريقي من بينهم. قوبل هذا الرد بضحكاتٍ اعتقدت أنها كانت نوعًا من المواساة لي.

استمرّ الصوت يناديني وبشكلٍ أكثر إلحاحًا: «لا، لا. هيا جون. أنت تعرفني. لابد وأنك تعرف صوتي. لقد ذهبنا عدّة مؤتمرات سويةً». مرةً أخرى، بابتسامةٍ، أجبت: «أنا آسف حقًا. لابدّ وأن تكون لطمة مروّعة للأنا في داخلك، لكنني أعتذر وأخبرك أنه إذا حَصل وأننا التقينا من قبل، فإن تأثيرك عليّ كان ضئيلًا. أنا متأكّدٌ أنه من المحزن للغاية عدم قدرتي على التعرّف عليك، ولكن هذا ما حصل. لم تترك أي أثرٍ في ذاكرتي. الآن، أيًا كانت هويّتك، وداعًا». استأنفت طريقي نحو البار. مرةً أخرى سمعت قهقهات وصيحات سخريةٍ في المجموعة. في هذه اللحظة، أمسك بي الشخصُ المعني أو شخصٌ آخر من كتفي قائلاً: «إنه فلان فلان». غيّرت سلوكي، وصافحته بحرارة واسترجعت معه الأيام القديمة، وختمت حديثي معربًا عن سعادتي بلقياه مرةً أخرى.

فـي مـكانٍ هادئ بعد ذلك، قلـت لرفيقي: «هـل تعتقد أنهم قصـدوا لعـب كل تلـك الألعـاب السـخيفة معـي، أم أنهـا كانت تلقائيـة فقط؟». «أوه لا» أجـاب صديقي: «لقد تم التخطيط لكل ذلـك. دخلت من الباب قبلك، وسـمعت أحدهـم يقول للآخر، دعونـا نرى ما إذا كان يمكنه التعرّف على صوتك».

تحـدث هـذه التجربة من وقتٍ لآخر. لسـتُ متأكـدًا أبدًا ما الذي يجب أن أفعله. يقوم الأشـخاص بذلك أحيانًا عبر الهاتف مـع بعضهم البعـض، لكنّ ذلك مختلف. كل طرفٍ معه سـمّاعة الهاتـف متسـاوٍ فيما يتعلق بالبصـر. لدي طرق مختلفـة للتعامل مـع هـذه المزحـة، وأعتقـد أن طريقـةَ الازدراء المرِحَـة ناجحَـة للغاية. لا أريد أن أجرح مشاعر أحدٍ أو أن أقول بطريقةٍ فجّةٍ لا، لا ألعـب ألعابًـا سـخيفة. إذا كنت تريد التحـدّث معي، عليك أن تخبرني من أنت؛ ذلك يبدو قاسـيًا جدًا. ماذا عليّ أن أفعل؟ هل أقِـفُ هناك، وأشـعر بمزيدٍ من الحماقة، أقترِحُ اسـمًا بعد اسـم، وينفـد صبر مـن يتحدّث إليّ وهو يقـول: «لا. لا. لا. حاول مرةً أخرى».

شـعرت اليـوم في بهـو مطعـم الموظفين وكأنني في وسـط لعبة: «دفعة الرجل الأعمى».

٧ يونيو

عندما أخذت ليزي إلى غرفة نومها الليلة الماضية كانت في مزاجٍ ضاحكٍ إلى حدٍّ ما. عندما وضعتها في سرير الأطفال قالت بصوت مغاير:

«لا يمكنك أن ترى! لا يمكنك أن ترى!».

«لماذا لا أستطيع أن أرى؟».

«لأنك رجلٌ أعمى».

سألتها: «ما هو الرجل الأعمى؟».

أجابت ضاحكةً: «إنه شخصٌ طويلٌ وقويّ ويتحول إلى رجل الموز[1]». تفوّهت بهذا التعبير الأخير بصيحةٍ مبتهجة.

هل كانت تستخفّ وتلعب؟ هل تعرف ما هو العمى أم لا؟ هل تربط العمى بسِماتي كأب؟ عادةً ما أتظاهر بأنني رجل الموز عندما أحملها على كتفي أسفل الدرج. أم أنها فقط تخبرني بأنّني عجوزٌ مغفّلٌ وأن كلينا يعرف جيدًا ما هو الرجل الأعمى؟

(1) Banana Man

٩

استيقاظ الأعمى

صيف ١٩٨٥

١٧ يونيو

قبل عدّة ليالٍ حضرت الاجتماع السنوي لجمعية المكفوفين. كانت هذه هي المرة الأولى التي أكون فيها في لقاء يَحضُره مكفوفون آخرون. في الواقع، بخلاف المحادثات بين الحين والآخر مع جون لوريمر[1]، خبير كتابة البرايل الأعمى المتميز والذي يعمل في هيئة التدريس في كلّيتنا، لم يكن لدي أي اتصال تقريبًا مع مكفوفين آخرين، على الرغم من مرور حوالي خمس سنواتٍ منذ أن فقدت بصري.

كان من المثير للفضول والغريب أن أجِدَ نفسي مع مجموعةٍ من المجتمع حيثُ العادات الصغيرة التي تُميّز استجابات المكفوفين مقبولةً تمامًا. بدأ الاجتماع بإعلان الحاضرين

(1) John Lorimer

وتقديمهم لأنفسهم. يحدث هذا أحيانًا في مجموعات المبصرين عندما يكون هناك نقاشٌ على وشك أن يُستهلّ، لكنّني لم أسمع عن مثل هذه البداية في اجتماع عمل. بعد اجتماعنا، وعلى هامش لقاءاتنا الاجتماعية، كان هناك لغط هائل. كان الناس ببساطة يصرخون بأسماء أولئك الذين يريدون التحدث معهم، وردًّا على ذلك، تقوم ببساطة بشقّ طريقك عبر الحشد باتجاه من كان يناديك.

أخبرني شيخان أو ثلاثة من المجموعة أن مُدّةَ التكيّف مع فقدان البصر قد تطول؛ متناسبةً بشكلٍ طردي مع العُمُر. بالنسبة لشخصٍ في عمري، يجب أن أعتبر أن خمسَ سنواتٍ فترةً قصيرة جدًا. لقد أكّدوا لي أن الأمر قد يستغرق مني عشرةَ أو خمسة عشر عامًا لأشعر بالتكيّيف الكامل.

٢١ يونيو

صادف وأن سألتني مارلين ما إذا كنت قد رأيت زميلًا معينًا خلال النهار. علمت لحظتها أنني تحدثت معه، ولكن شعرت أنني لا أعرف بالضبط ما إذا كنت التقيته بالفعل ذلك الوقت أم لا. هل كان حديثي معه وجهاً لوجه أم على الهاتف؟

إذا كنت استخدمت هاتف المكتب وليس سماعة الرأس

لإجـراء مكالمـة هاتفيـة، فـإن صوت المتصـل يمُـرّ بوضوح في الغرفة، بينما أكون جالسًا على مقعدي، هذا يشبه بالضبط وجود الشـخص معـي. أنـا وزميلـي لدينـا هاتـف مرتبـط بيـن غرفتينا، وغالبًـا مـا نتحدّث لبضع دقائق حول مشـكلةٍ مـا كل يوم. عندما كنـت شـخصًا مبصـرًا لا أتذكـر أنـه كان لـديّ مثـل هـذا التـردّد الغريب حول ما إذا كنت التقيت أحدهم بالفعل أم لا. لا بُدّ وأن ذلـك يعود لكوْن ذكريات الشـخص المبصر حـول ما قيل ترتبط دائمًـا بما كان يُشـاهده فـي ذلك الوقت؛ لذلـك ترتبط الكلمات إمّـا بتعابيـر المتحدّث وهيئته أو بالتحديـق في حركة المرور عبر النافـذة وأنـت تُجـري المكالمـة الهاتفيـة. إذا تـم تجريـد معالم الخلفية هذه، فسـيكون الفرقُ بين الحالة وجهاً لوجه والمحادثة الهاتفيـة أقـل. بالطّبـع، حتى بالنسـبة للمكفوفين، لا تـزال هناك اختلافات كبيرة، لكن حقيقة أنني شعرتُ بحالةِ عدم اليقين هذه تُظْهر أن الاختلاف أصبح هشًّا إلى حدٍّ ما. إذا كان المُبصِر شارد الذهن قليلاً، في نهاية يومٍ حافل، قد يتسـاءل للحظةٍ عن السياق الذي التقى فيه بشخصٍ ما لفترةٍ وجيزة، لكن من السهل أن تجِدَ الأعمـى وفـي كثيـرٍ مـن الأحيـان فـي حالـة عـدم اليقيـن هـذه. الشـخص المبصـر الأكثـر شـرودًا لن يخلـط بين التحـدّث على الهاتـف والتواجـد فـي حضـرةِ أحدهم. قد يتسـاءل فقـط ما إذا حدث ذلك أمس أو اليوم.

هـذه اللحظـة الصغيـرة من عـدم اليقيـن تخبرنـا الكثير عن العمى.

بعد توقّفي للحظات عند سـؤال مارلين، أوضحت لها أنّني كنـت أحـاول تذكّـر مـا إذا كنـا معًـا أم لا، تنهّـدَت وقالـت: «يـا عزيزي! كم هو غريب! حتى بعد كلّ هذه السنوات ما زلت أجد صعوبـةً في إدراك كيف تبدو تجربتك في العالـم».

٢٣ يونيو

يمكنـك أن تـرى الكثيـر مـن الأشـياء فـي وقتٍ واحـد، في الواقـع، فإن الحقـل البصري يتكون من المئـات، وربّما الآلاف، من المقاطع الصغيرة التي يتم تجميعها في مشهدٍ عمومي واحدٍ. اهتمامـك قد ينصـبّ على جزء محدّدٍ ومعيّن لا تتنافس عليه بقيّة الأجـزاء الموجـودة جنبًـا إلى جنـب حوله في المشـهد. بينما في الصـوت، يمكـن لجـزءٍ واحدٍ فـي المجـال الصوتي طمـس بقية الأجـزاء. أقـرب نظير بصري مـوازٍ هو تجربة التعـرّض المفاجئ لضوءٍ خاطف. يطمس الضوء الساطع بقية الأشياء حوله ويبتلعها. يحِـدث ذلـك بسـهولة أكبـر مع الصـوت. إنها سـمِةٌ من سـمات الأصـوات العاديـة، وليـس فقـط الاسـتثنائية، على الرغـم من أن الأصوات الاستثنائية تقضي بالتأكيد على كل الأصوات الأخرى.

عندما يقوم شخص ما بتشغيل صندوق الموسيقى في المقهى، فإن الصوت الصادر منه يطمس أصوات أصدقائي حرفيًا. يبدو الأمر كما لو أنني وحدي؛ يختفي أصدقائي فجأةً أو بالأحرى تختفي أصواتهم، ويبقى صندوق الموسيقى فقط. يلغي ضجيج الموسيقى كل ما تبقى من الواقع. يبدو الأمر كما لو كنتَ ترسم، وواصلت التلوين والدّهن بإضافة المزيد والمزيد من الألوان المائية حتى اختفت كل الفروق والملامح، وتبقّى لطخة رمادية متساوية.

يجب أن يكون هذا هو السبب في أنني أشعر بالوحدة في الحفلات الصاخبة، وخاصة المراقص. لا بُدّ وأن ينقر أحدُهم على كتفي لجذب انتباهي؛ يشبه الأمر أن تضع سماعات على الرأس ولا تستطيع نزعها.

٣ يوليو

سألتني مارلين عمّا فعلته خلال النهار، للحظةٍ لم أتذكر أين كنت في الصباح. كنت أتحدّث مع اثنين من زملائي، ولكن أين يا ترى؟ مرّت في ذهني صورة كلية نيومان حيث قضيت الصباح هناك.

لم تكن هذهِ تجربة شخصٍ مبصر، وإنما أقرب لتجربةِ

شـخصٍ شـارد الذهن ينسـى للحظـات ما قـام به خـلال النهار. علمت أنني كنت في مكان ما، وقمت بأشياء معيّنه مع أشخاصٍ معينيـن، ولكـن أيـن؟ لـم أتمكـن مـن ترتيـب المحادثـات التي أجريتهـا في سـياقها المناسـب. اختفتِ السّـمات والخلفية التي يمكن على أساسـها تحديد المكان. عادةً ما يتم تخزين ذكريات الأشخاص الذين تحدثت إليهم خلال اليوم في إطارات تتضمن الخلفيـة. تتذكّـر التحدّث إلى شـخصٍ كان جالسًـا على كرسـيٍّ بذراعيـن أمـام خزانة الكتب، أو متكئًا على حافّة نافذة يمكن من خلالهـا رؤيـة الحديقة ومـا إلى ذلـك. علمتُ أننـي تحدّثت مع أشـخاص فـي سـياقٍ غيـر عـادي؛ لأننـي لـم أتمكـن مـن ربـط محادثاتـي بالأحاسـيس المعتـادة والتي يمكن أن أشـعر بها وأنا جالسٌ على كرسـيٍّ مكتبي أو ملامسٌ لطاولة المكتب بمرفقي.

كان ذلك شـعورًا غريبًا بالفراغ، ومربـكًا للغاية. إنه يذكّرني بحادثـةٍ حصلـت ذلـك اليـوم؛ عندمـا لـم أسـتطع، وللحظـةٍ، أن أتذكّـر ما إذا كنت فـي حضرةِ مايكل عندما أجريت محادثةً معه. مـا يقولـه شـخص مـا يرتبـط عـادةً بمظهر وجهـه، وبشـكله وما يرتديه. الجسـم بدوره يرتبط بخلفيّة بصريّةٍ محدّدة.

لذلـك كنت فـي كلية نيومان. لكـن ماذا يعني ذلك بالنسـبة لـي؟ مـاذا يعني الوجود المـادّي للمبنى الخرسـاني للكلية؟ لقد

قمت بالتدريس من قبل مع هؤلاء الأشخاص فيما قالوا لي إنه: «كلية نيومان». ربّما أن ذلك حصلَ في أي مكانٍ آخر. لقد صعدنا ونزلنا السُّلّم وقطعنا الممرات كافّةً. جلسنا فيما وصف بأنه مكتب المدير. كل هذا، مع ذلك، ربّما حصلَ في أي مكانٍ آخر. تجربة المؤسسات والمعاهد للأعمى هي تجربةٌ مجردة إلى حدٍّ ما.

٤ يوليو

لقد مرّت الآن عدة أشهر منذ أن بدأت أحِسّ وأستنير بالمعرفةِ الحقيقية التي تتأتّى باللمس. في الأسابيع الأخيرة، بدأت في تجربة ممتعة تعكس المعرفة الحقيقية لتجربة اللمس. في ذلك اليوم كنت في منزل صديق تجمع زوجته نماذج ومنحوتات مجسّمة للبوم. وُضِعَ في يدي بومة حجرية صغيرة يبلغ ارتفاعها حوالي خمس بوصات. كانت جميلة وخشنة الملمس. وزنها معقول في كفّي. بومة منحوتة بالكامل في أفريقيا. أُعجِبت ببساطة التفاصيل، بدِفء ونعومة الخشب، والطريقة التي يبدو عليها كامل المُجسّم في كفي. أظُنُّ أنني أطوّر فنّ التحديق بيدي. أحب أن أتفحّص الأشياء في يدي، وأستوعب ملامح الجمال فيها. في أحد الأيام، في معرض متعدد الثقافات، أمسكت في يدي ما يشبه مسابح الخرز، كانت

ناعمةً ومصقولةً، وتفحّصت جرّةَ ماء من أمريكا الجنوبية، كانت مصنوعـةً مـن الخـزف، عند إغـلاق أو فتـح غطاء الجـرّة يصدُر صوتُ احتكاكٍ جميل ومميز، وعند النقر على البطن المسـتديرة للجرة الجوفاء تصدُر آلاف الأصداء الدقيقة والأصوات الرنّانة.

استمتعت بالتفريـق بيـن قـوام ونسيج المـواد المختلفـة. تستخدم إحدى صديقاتي المدرّسات كيسًا مخمليًا ثقيلًا لإخفاء الأشـياء عن أطفالها. أحببت ملمس القُماش عند تمرير أصابعي عليـه. ثمّـة تبايـن واضـح بيـن ملمس القمـاش وملمس السـوار المعدنـي الصلب الموضوع في الكيس.

استغرقني الأمر ما يقربُ من خمس سنوات لأستطيع تقدير تجـارب مـن هـذا القبيـل وهـذا يبعـث علـى الدهشـة. الـوزن والملمـس، الشـكل ودرجـة الحـرارة، الأصـوات التـي تصنعها الأشـياء، هذا كلّ ما أبحث عنه الآن.

١٤ يوليو

أثنـاء الإفطـار فـي ذلك اليـوم، ناديـت مارلين، التـي كانت منشـغلةً بمليـون شـيءٍ آخـر: «هـل حضـرّتِ الشـاي بعـد، يـا عزيزتي؟».

«نعـم»، أجابتني من المطبخ: «إنه على الطاولة أمامك».

تدخلت ليزي: «لماذا سـألت أمّي عن الشاي؟».

قال توماس: « لأنه كان عليه أن يسـأل أمي».

أضافـت ليـزي: «لأنّك لا تسـتطيع أن ترى وأسـتطيع أنا أن أرى».

اعتبـرت أن هـذا كان مثالًا جيدًا لقـدرة ليزي المتزايدة على تفسير سلوكي الغريب.

بينمـا كنـت أقف فـي الشـرفة الأمامية مع تومـاس، يبدو أنه كان ينظـر علـى السـيارة المتوقّفـة على الشـارع، سـأل توماس: «لماذا لا نوقف السـيارة في المنزل؟».

أجبته: «سـيكون علينا أن نرفعها ونصعد بها السلالـم».

سأل: «لماذا؟».

«هل حاولت رفعها من قبل؟».

«لا».

قلـت: «حسـنًا، إنها ثقيلـة جدًا على أية حـال». تابعت: «قد نحـاول ذلك. يمكنك أن ترفع من ناحيةٍ وسـأرفع أنا من الناحية الأخـرى». قـال بنبرةٍ جـادة وغير واثقة: «حسـنًا، سـيكون الأمر صعبًا. أنت أعمى ولسـت قويًا جدًا».

اقترحت: «يمكننا الحصول على مساعدة ليزي».

قال متأملًا: «إنها ليست قوية جدًا أيضًا».

سألته: «ماذا عن أمّك؟».

«حسنًا ...» بدا غير متأكد.

«دعنا نواجه الأمر» قلت بخفّة: «العائلة بأكملها ليست قوية جدًا».

بدا وأنّه لا يرغب بمتابعة هذا الحوار، وغيّرنا الموضوع.

١٥ يوليو

ذهبت يوم الجمعة إلى محطة نيو ستريت للقاء صديق. كنت أسير عبر الميدان عندما اقترب مني رجلٌ إيرلندي ثرثار ورافقني ثم ساعدني، وضعني في مكانٍ ظاهر يمكن لضيفتي أن تراني وهي تعبر ضمن القادمين. سألني إذا كنت أمانع الإجابة على بعض الأسئلة الشخصية. أخبرته عدم ممانعتي، وسألني إذا كان صحيحًا أنني أعمى. أكدت له ذلك، وبدون مزيد من اللغط، قال: «سوف يشفيك يسوع». أجبته بعبارات دينية مماثلة، أكدّت له أن لا داعي للقلق، فلقد شَفانِي يسوع بالفعل، منحني حضوره وإرشاده، وأنه على الرغم من أن بصري الخارجي

لطالما كان يذوي، إلا أنني آمل أن بصيرتي الداخلية تزداد قوةً يومًا بعد يوم. بعد ذلك، انتقل سياق الحديث إلى حياته، اكتشفت أنه كان من أنصار الخمسينية[1]، وتحدّثنا عن ذلك لبعض الوقت.

تم الإعلان عن وصول قطاري، وأخبرني صديقي أن لديه ابنة صغيرة أصيبت في حادث طريق وأنها في المستشفى، وكان عليه أن يذهب لرؤيتها، لكن لم يكن لديه مال ليهديها هدية. سألني مساعدته في شراء عنقود عنبٍ لها؟ أعطيته المبلغ المطلوب وافترقنا بعد الثناء على الرب والدعاء.

١٦ يوليو

أخبرتني مارلين أن صديقةً حسّاسة سألتها ما إذا كان العمى يساعدني على التركيز أكثر، وما إذا كان المسؤول عن الإبداع الذي تعتقد أنني أظهرته خلال الأشهر الستة الماضية أو نحو ذلك.

---

(١) الخمسينية Pentecostalism هي حركة مسيحية بروتستانتية ظهرت في أميركا في أواخر القرن التاسع عشر، تؤكد على ضرورة التجربة الشخصية والمباشرة مع الله. وترى أن جميع المسيحيين بحاجة لأن يعيشوا اختبارا فريدا لكي يصبحوا مسيحيين فعلًا، ويسمى هذا الاختبار بمعمودية الروح القدس.

قد يكون ذلك صحيحًا بشكلٍ أو بآخر. يشبه العمى المكنسة الكهربائية الضخمة التي تحطُّ فجأةً على حياتك، وتمتص كل شيء تقريبًا. ذكرياتك السابقة، اهتماماتك، إدراكك للوقت وكيف ستقضيه، المكان نفسه يختفي، وحتّى العالم من حولك، كل شيء يتم امتصاصه. يُفرّغ وعيك، ويُترك لك إعادة بنائه وترميمه، بما في ذلك ضرورة خلق إحساسٍ جديدٍ بالوقت، وفهمٍ جديدٍ لحيّز الجسد في الفضاء وما إلى ذلك. في هذه الحالة، من المحتمل أن يكون هناك مراجعة جذريّة للأولويات. أما بالنسبة لما يقال عنه أنه إبداع خاص بي خلال هذه الأشهر، فمن المهمّ أن نتذكر أنّه من عام ١٩٦٨ حتى حوالي عام ١٩٨٣ كنت مشغولًا تمامًا بواجباتي التدريسية والإشرافية مع الطلاب، ومع اللجنات الجامعية. كما أنّ حقيقةَ أنه منذ عام ١٩٨٣ تقريبًا، لم أسع لإعادة الانتخاب، وتخلّيت عن معظم لجان جامعتي بما في ذلك المجالس التنفيذية والأكاديمية والقضائية، ولجنة الأغراض التربوية والعديد من اللجان الصغرى وكل ذلك لا يقل أهميّةً عن إصابتي بالعمى. ربّما، لو تمّ إعفائي من هذه الواجبات والمهام وأنا مبصر، لكنت بذات درجة الإنتاجية والإبداع في البحث والنشر التي بلغتها في الأشهر القليلة الماضية.

من الصحيح أيضًا أنني أمضيت السنوات الثلاث أو الأربع الأولى بعد أن فقدت بصري في التكيّف مع عملي والتدريس بالجامعة. لم أشعر بالثقة حتى بداية العام الدراسي ١٩٨٤/ ١٩٨٥. قضيت وقتًا طويلًا في تدوين الملاحظات على الكاسيت لأتمكن من توفير المراجع لعملي، كل ذلك يمكن الآن تحويله إلى كتابةٍ أصلية.

مع أخذ كل هذه العوامل في الاعتبار، ما زلت أعتقد أن العمى يطهّر العالم من حولك. على المرء أن يعيد تشكيل حياته أو أن يقبل بخسارتها. كنت محظوظًا لأن لدي مثل هذه النواة الاجتماعية القوية في حياتي. كان لدي عمل، وحياة أسرية آمنة، ومؤسسة تقبلني وتساعدني، والعديد من الأصدقاء.

١٩ يوليو

يمكنني رصد تحرّك الأشياء حولي من خلال الأصوات التي تصدرها. تهدُر مكائن السيارات، تتطاير الأقدام وتطقطق، ولأوراق الأشجار حفيفها الخاص، لكن الطبيعة الصامتة لا تتحرك. إذن، بالنسبة إلي، الغيوم لا تتحرك، العالم خارج نافذة السيارة أو نافذة القطار لا يتحرك. لا يصدر الريف أي ضجيج أثناء عبور القطار فيه. التلال والحقول صامتة.

إذا كانت حركة الأشياء من حولـي تتجلى عبر صوتها، فإن حركـة جسـدي تتجلـى من خـلال حقيقـة شـعوري بالاهتزاز أو شـعوري بتأثير حركة السّـيارة أثناء الانحناء بسـرعةٍ عالية. كلّما تسـارعنا كلّمـا عـدتُّ إلـى الـوراء فـي مقعـدي، وكلّمـا تباطأت السرعة كلّما اندفعت إلى الأمام.

هذا يعني بالضرورة أن المعرفة التي لدي لحركات جسدي وحركات الأشـياء الأخرى ليست متماثلة. إيعاز الحركة يحصل مـن خلال الصـوت الخارجي والإحسـاس الداخلـي. ليس هذا هـو الحال بالنسـبة للمبصر، الذي يسـتطيع أن يقول ما إذا كانت الأشـياء الأخـرى تتحـرك ومـا إذا كان هو نفسـه يتحـرك بفضل ملَكة النظر وحاسّـة البصر. أنت تعرف متى يبدأ القطار بالتحرّك بالنظـر مـن النافـذة. بإمكانـك، كشـخصٍ مبصـر، رؤيـة العلاقة المتغيـرة بيـن جسـمك والعالـم. تشـير الطـرق المختلفـة التـي يسـتخدمها الأعمى لاستشـعار الحركـة إلى أن العلاقـة الطبيعية بين الجسـد والعالم قد انقطعت.

٢١ يوليو

عندمـا نكـون في الخارج، يرى الشـخص المبصر عالماً في متناول اليد. إنه يعلم أنه من خلال أداء قدرٍ معيّن من الجهد (أي

المشـي)، سـتتحوّل هـذه الطاقـة المبذولـة إلـى مـدى حقيقـيّ ومحسـوس. المقدار المحسوب من المشي سـيتحوّل إلى نقطة وصولٍ وتقريب حقيقي إلى الهدف؛ لذلك فإن مشـي المبصر له هدف؛ هدفه هو الوصول إلى نقطة معينة مُتصوّرة بالفعل. يتضح هـذا مـن حقيقة أن المبصرين يشـعرون بالإحبـاط عندما لا تبدو الأشـياء التي يسـيرون باتجاهها، مثل نقطةٌ معيّنـة في التلِّ، قريبة بمـا يكفي بعد بذل الكثير من الجهد.

مشـكلة المشـي للمكفوفيـن هـي أنه ليـس لديهـم عالم في متنـاول اليـدِ ويمكـن الوصـول إليـه، ولكـن فقـط منطقـة يمكنُ البلوغ إليها والشـعور بها لمجرّد ملامسـة القدمين على الأرض. الأعمى لا يعرف ما إذا كان هناك منعطفٌ على الطريق، أو ما إذا كان هنـاك مجموعة من التلال في طريقه. وبالتالي، فإن الأعمى يفتقر إلى الحافز لتكوين هدفٍ ملموس من شـأنه أن يَحوَّل شيئًا ما تم إدراكه إلى شـيءٍ محقّق بالفعل.

النتيجة هي أن الأعمى، عندما يمشـي، يصبح واعياً بشـكل أساسـي بجسـده. تحاصره حـركاتُ صعـودٍ وهبـوط وخطواتٌ تتوالـى واحدةً تلوَ الأخرى. هناك، بالطبع، متعةُ الشـعور بالريح تلامـس وجـه المـرء، متعة سـماع أصـوات الطيور، واستنشـاق مختلـف الروائـح، ولكن كل هـذا يمكن أن يكـون ثابتًا. إذا كان

الأعمى يسير في طريقٍ مألوف واستطاع استشعار كل هذه المؤثرات، فهذا أفضل بالتأكيد. بفضل الذاكرة، يمكنُ للأعمى معرفة أن قدرًا معينًا من الجهد سيوصله إلى نقطةٍ معيّنة، على سبيل المثال لو جلسنا على أحطاب الأشجار المتساقطة في ذلك المكان، حيث يوجد جسرٍ يمكننا الاعتماد عليه والاستماع إلى خرير النهر. نظرًا لأن الطريق مألوف، يمكن للأعمى تقدير الجهد الذي سيستغرقه للوصول إلى هذه النقطة أو تلك. الطريق الجديد، بلا أيّ معلومات، يصبح بلا معنى إلى حدٍّ ما بالنسبة للأعمى.

عندما أسير في شوارع المدينة، على امتداد طريق غريب، برفقة صديق، أميل إلى طرح أسئلةٍ متكرّرة مثل: «هل يمكنك رؤيته بعد؟ هل علينا تعدّي هذا المربع السّكني؟ كم من الوقت يتطلّب الوصول إلى هناك؟». يبدو أنني بحاجة إلى ضبط جهدي وحركتي للوصول إلى أهدافٍ معينة في نزهةٍ ستصبح لولا ذلك نزهةً مرهقةً. هناك القليل من التقدّم ألاحظه الآن. الأشياء التي تمر بجانبي لم تكن بعيدةً منذ لحظةٍ من السهل على الشخص الأعمى أن يشعر بأن الكثير من العمل يُبْذَل، ولكن القليل من التقدّم يتمّ إحرازه.

لا يمكنك الشعور بأنّك تعبرُ منطقةً ما ما لم يتخلّل الطريق

أنواعٌ مختلفة من الأرصفة، وروائح فريدة مثل: رائحة الخبز، أو أصوات موسيقي مرتبطةً بشوارع معيّنة؛ بخلاف ذلك يصعُب الشعور بأنّك عبرت طريقك.

٨ أغسطس

قبل بضع دقائق، نمتُ على كرسيّ الجلوس الخاص بي بعد ظهر يوم السبت في المكتب. حلمتُ أن زميلي مايكل طرَق على بابي ليخبرني أنه انتهى من عمله وينوي العودة إلى منزله. أغلق الباب وغادر. حدث شيءٌ لا يمكنُ تصديقه بعد ذلك. غُمِرت غرفتي بالضوء. حدّقت في الجدران حولي؛ حيث صفوف الكتب، وحافظات ملفات، وصناديق عليها علامات، ملوّنة بألوان زاهية، ومرتّبة ببساطةٍ مذهلة، ومُصنّفة بدِقّة بحسب الشكل واللون. لم أصدّق عيني. كانت الغرفة كلها متوهّجة بالأشياء. لم أجرؤ على الرّمش خشيةَ اختفاء الألوان من حولي. وقفت على قدمي وخشيت أن أستيقظ، أو أن أدرك أنني في حلمٍ لمجرّد تغيير مكاني. ترنّحت ناحية الباب، شعرتُ بمتعةٍ عجيبة عندما مددت يدي وأمسكت بمقبض الباب، كم كان رائعًا أن أكون قادرًا على القيام بذلك. عندما وصلت إلى الباب، نظرت إلى الغرفة، ورأيتها من منظورٍ مختلف. لقد كانت مكتبة

كل الأشـياء، منعشة وسـاطعة وطازجة كما لو أنّها للتو وُجدت. فـي الممرّ تعثّـرت وأنا أصيح: «مايك! مايـك!»، لكن صوتي لا يخـرج مـن حنجرتي. كما لو أنني أختنق. أدركت أنه على الرغم مـن أننـي كنت أحاول رفـع صوتي وندائـي، إلا أن ما يخرج من حنجرتـي لا يتجـاوز كوْنه همسًـا. كان الجو قاتمًـا ومغمومًا في الممـر، لكننـي مـا زلـت أرى. أسـرعتُ باتجـاه المصعـد، كنت أحـرّك يدي جنبًا إلى جنـب كما لو كنت ألوّح بعصاي. لا أعتقد أنني قد رفعت العصا من خطّافها بجانب الباب. قلت في نفسي: «ليسـت هنـاك حاجـة لفعـل ذلـك الآن. أسـتطيع أن أرى الآن. ولكـن مـا أصعب التخلّص مـن هذه العـادة المتمثّلة في تحريك يـدي مـن جنبٍ إلـى آخر». كنت أتسـاءل ما الذي حصـل لعيني حتى ترى كل هذه الأشياء.

اتجهّـت إلى البهو حيـث كان المصعد. وجدتُ مايكل، مع زوجتـه وعائلتـه، يدخلـون للتـو إلـى المصعـد. لا لقـد دخلـوا بالفعـل، وأُغلقـت الأبـواب. أسـرعت إليهـم وأبـواب المصعد مغلقة. شعرتُ لحظتها كما لو كنت على وشك الإغماء. طرقت علـى بـاب المصعـد ونافذتـه الصغيـرة وهـو ينزل. صحـتُ مرةً أخـرى أناديهـم؛ لكـن صوتـي لـم يكُـن أكثر مـن همـسٍ مكتومٍ أجشّ. اختفى المصعد، وقفت هناك وبدأت الرؤية تتلاشى. بدأ

الفـارق بيـن لون أبـواب المصعـد المعدنية الزرقـاء والدعامات البنيـة علـى كلا الجانبيـن يتلاشـى، وبدأت الألـوان كلّها تذوب وتختفـي. جـاء الضباب وحـلّ الظلام وكأنه طوفـان. عدتُ إلى وعيـي. وكنـت هنـاك، في مقعـدي، وأدركـت مصدومًـا أنه كان حلمـاً. داخـل ذلـك الحلـم، كنـتُ واعيًـا لعماي، كنتُ شـخصًا أعمـى يسـتعيد البصر ويفقده مـرة أخرى. الميـزة الغريبة هي أن استعادة البصر كان جزءًا من القصة التي حلمت بها، بينما فقدان البصر لـم يكُن جـزءًا من القصة. فـي الحلم لم أحلـم أنني أفقد بصـري. مـا حدَث ببسـاطةٍ هـو أنني اسـتيقظت. وقفـتُ بجانب أبـواب المصعـد المغلقة، لـم أحلم أنني أصبـتُ بالعمى. كل ما حـدَث أن الرؤيـة تضاءلـت واختفـت لمُجـرّد اسـتعادة وعيـي. توقـف الحلـم لأنّـي اسـتيقظت. الخـوف، فـي الحلـم، كان من التحـرّك خشـية فقـدان البصر، هـو ذاته الخوف مـن التحرّك عن كرسـي وانقطاع الحلم، وبالتالي الاستيقاظ مبكرًا.

كان التزامـن بيـن تجربـة الاسـتيقاظ وعـودة العمـى يثيـر اسـتغرابي. وقفـت بجانب أبـواب المصعـد، واللوحـة المضيئة الصغيـرة تشـير إلى نـزول مايـكل وعائلته في المصعد. شـعرت بشـعورٍ مختلـطٍ مـن الذعر واليـأس، أدركتُ أنني كنت أسـتيقظ وأفقـد بصـري. فتحت عيني وأظلم عقلي. في كل مرة أعود فيها للوعي أفقد بصري مرة أخرى.

لا أتذكـر أي حلـم تـركَ فـي داخلـي إحساسًـا حـادًا بصدمة الواقـع مثـل هـذا الحلم. هـذا يرجع جزئيًـا إلى الاسـتمرارية بين الحلـم والظروف الفعليـة التي غفوت فيها ونمت. كل شـيء بدا طبيعيًـا جـدًا، ومعقـولًا جـدًا، وكانـت هنـاك اسـتمرارية سلِسَـة للأحـداث. حقيقـةُ كل ذلـك تغلّبـت علـيّ تمامًـا، وتركت ذهني مخـدّرًا عند عودتي مـن واقع الحلم إلى الواقـع الفعلي. لم يكن الأمـر مجـرد الإدراك مـرةً أخرى أنّنـي أعمى، ولكن الإحسـاس الغريـب بالانتقال من حقيقةٍ إلى أخرى، ما أشـعرَني أن عقلي قد خـرج عن مسـاره. كانـت تلك سـاعة الحقيقة، كلّ شـيء يسـبح حولي. اسـتِبْدَل شـعوري برؤية بالأشـياء من حولي إلى الشـعور بجسـدي وملابسـي وأنـا أجلـس علـى كرسـيٍّ بذراعيـن، ألمس الحافة الناعمة للمكتب الذي كنت جالسًا عنده، وكل ما أعرفه لا يتجـاوز مداه أطراف أصابعي. كل شـيءٍ آخـر اختفى مرةً أخرى. شـعرت بالخـداع، غيـر متأكّـدٍ مـا إذا كان هـذا مجـرّد فاصل في الحلم، ولو جلست ساكنًا جدًا في مكاني، فقد يتلاشى من جديد.

١١ أغسطس

احتفـالاً بالذكـرى السـنوية الخامسـة للعمليـة الأخيرة التي أجريتهـا فـي عينـي، أريد أن أحـدّد المراحل التي مـرت بها هذه الرحلة.

أولاً: كانـت هنـاك فتـرة أمل اسـتمرت سـنة أو ثمانية عشـر شـهراً. انتهـت بتدهـور بصـري خـلال صيف عـام ١٩٨١، على الرغم من أنه حتّى أواخر صيف عام ١٩٨٢، عندما كنت لا أزال أرى بعـض الأضـواء والألـوان والأشـكال، ظـلّ وميـضُ الأمل ينبـض في قلبي من حينٍ لآخر.

ثانيـاً: كانـت هناك فتـرة التغلّب على المشـاكل. بدأت هذه المرحلـة فـي صيـف عـام ١٩٨١، عندما أصبح العمـل البصري مسـتحيلًا، واسـتمرّت حتى صيـف عام ١٩٨٤. ولـم يكن حتى عيـد الفصح عام ١٩٨٥، عندما بدأت أشـعر أنني لسـت بحاجة إلى المزيد من المعدّات. كان دافعي الرئيسـي إنشـاء نظام عملي مكتبي يناسبني خلال عامي ١٩٨٢ و١٩٨٣. خلال تلك الفترة، مثّل العمى تحديًا.

بدأت المرحلة الثالثة في وقتٍ ما في عام ١٩٨٣، وربّما في أواخر العام واستمرت لمدة عام تقريبًا. كانت الفترة التي مررت فيهـا باليـأس. تلـك هـي السـنوات التـي تخلّلـت نومـي أحـلامٌ مروّعـة، كنـت محرومًا حتى في حياة اليقظة؛ مدركًا أنني أسـقط أعمق وأعمق في العمى بشـكل لا يقاوم.

بـدأت الفترة الرابعـة والحالية منذ خريـف عام ١٩٨٤، أي منـذ فتـرة التعافـي مـن زيارتـي إلـى أسـتراليا، حيث شـعرت أن

العمـى غمرنـي تمامًا. بدأت فـي كتابة كتابي عـن التعليم الديني للكبـار في أكتوبر ١٩٨٤ وانتهيت منه في مارس ١٩٨٥.

لـم تعُد أوجاع العمى تلاحقني في معظم الوقت هذه الفترة. ثمّـة تغييـر غريب في حالةِ أو نوع النشـاط في عقلي. يبدو أنه قد انقلب على نفسه، وأوجد محفزات داخلية ملائمة. نظرًا لحرمانه من محفزات كثيرة في العالم الخارجي، فقد كان عليه أن يكتفي ويعيـد ترتيـب، وفـرز وظائفـه وأولوياتـه. أشـعر الآن بأنني أكثر صفـاءً وحماسـةً ومغامـرةً فكريـةً أكثـر مـن أي وقـتٍ مضى في حياتي. أجد نفسـي أكثـر تواصلًا، وأتذكر أكثر، أسـتطيع تكوين روابط أكثر في ذهني بين الأشـياء المختلفة التي قرأتها وتعلّمتها على مرّ السـنين. أحيانًا أعود إلى المنزل في المسـاء وأشـعر أن ذهنـي يكاد ينفجر بأفكار وآفاقٍ جديدة.

مـا زلت أجـد حاجة ماسّـة لهذا النـوع من القـوت اليومي. مـرور يـومٍ واحد بدون دراسـة أو تعلم لشـيءٍ جديـد، يمكن أن يعجّـل بإحسـاسٍ جديدٍ مـن الإلحـاح والمعاناة. ما زلت أشـعر وكأنني شـخص على جهاز غسـيل الكلى، يسعى وبشكل متزايد على البقاء على قيد الحياة.

١٠

أطفال مفقودون

خريف ١٩٨٥

١ سبتمبر

خـلال حفلة عيد ميلاد توماس الخامس، جاء طفلٌ وجلس علـى ركبتـي. في البدايـة، اعتقدت أنهـا كانت ليـزي، ولكن مع مرور الوقت، أصبحت غير متأكّدٍ أكثر فأكثر. وصلتُ إلى النقطة التـي كانت الطريقة الوحيدة التـي يمكنني التأكد من خلالها هي طـرح السـؤال: «مـا اسـمك؟»، لكنّي تـرددت عن هـذا في حال كانـت ليزي حقًا. سـتعرف بعد ذلك أنني لـم أتعرف عليها. كان هـذا بالأحرى موقفًا محيرًا وحتى موجعًا.

عندمـا يفتـح الطفـل هديـة عيد ميـلاد، فإن الجميع يشـارك الإعجـاب بهـا. إنـه لأمـر سـخيف بالنسـبة لـي أن أشـارك فـي صرخـات الإعجـاب هـذه؛ لأن الجميـع سـيعرف أننـي كنـت أتظاهـر. حاولت أن أُجلـس توماس على ركبتي حتى أتمكن من

الحصـول علـى فكـرة عـن ماهيّة الشـيء، لكن المشـكلة هي أن يـدي تعترض طريقه، وبدون أن ألمس لا أعرف. على أي حال، نـادرًا مـا يمكنـك بعد لحظـةٍ أو اثنتيـن من اللمس أن تشـهَق من المفاجـأة والبهجـة. المعرفـة عـن طريـق اللمس تسـتغرق وقتًا. علـى أي حـال، لن يبقـى الطفل على ركبتيك، لكنه سيسـتمر في الجـري للحصول على المزيد مـن الهدايا ولإظهارها للمعجبين الآخرين. من المسـتحيل أن لا تشعر بإحساس مُقشعر بالبُعد في مثل هذا الوقت.

بعـد أن ذهـب جميـع الأطفـال، جـاء تومـاس مسـرعًا مـع مجموعـةٍ جديدة مـن الألغاز الرياضية على شـكل أوراق لعب. أراد منـي أن ألعـب معـه. حاولـت أن أوضح له أنني لا أسـتطيع مسـاعدته كثيـرًا، لكنه أخرج مـن جيبه لعبة أخـرى. كانت عبارة عن علبة بلاستيكية شفافة، وهي إحدى تلك الألغاز حيث يتعيّن عليـك دحرجـة كرات فضية صغيـرة فيها حتى تسـتقر في ثقوب صغيرة. بشـعور المُتعَب، حاولـت أن أوضح أن هذه كانت أكثر صعوبة بالنسبة لي. غير مبالٍ، أخرج لعبة لوحية أخرى. فتحناها. أدركـت أن جميع العدادات فيها كانت متطابقة تمامًا. لابد وأنها كانـت بألوان مختلفـة لكنها جميعها تبدو متسـاوية، اقترحت أن تسـاعده أمـه لاحقـاً. حاولـت قدر الإمـكان التحمّـس لكل هذه

الهدايا، لكنه كان عملاً شـاقًا. نمت في تلك الليلة مرهقاً تماماً.

فـي الصبـاح اتخذت مبادرة جديدة. عندما اسـتيقظ توماس في حوالي السـاعة السـابعة صباحًـا، أخبرتـه أن يذهب ويحضر كل الهدايـا التـي حصـل عليها في عيـد ميلاده، ويضعهـا جميعًا علـى السـرير، وسـأمرّ معـه علـى كلّ واحـدة منهـا. كان سـعيدًا وأعجبـه ذلـك كثيـرًا. وضـع الهدايـا علـى السـرير، واحـدة تلو الأخـرى، في هدوء، تحسّسـت الهدايا وكونت فكـرة عنها. كان لـدي الوقـت لاستكشـاف كل عنصـرٍ بعنايـة، واكتشـاف كل مـا يمكننـي فعلـه حـول ذلك، ومـا إذا كان هناك أي طريقـةٍ يمكنني المشـاركة بهـا. بدون أي ضغط اجتماعـي للتعبير عن الإعجاب المبكـر، اسـتمعتُ بذلـك كثيرًا. إلـى حدٍّ ما، دخلـت معه أجواء عيد ميلاده.

٦ سبتمبر

مرتان أو ثلاث مرات هذا الأسـبوع سـرت مـع توماس إلى مدرسـته. ربمـا ينبغـي أن أقول إنه هو من سـار معي؛ لأنه أصبح جيد جدًا في إرشـادي. يسـير بالقرب من الطريق ممسـكًا بيدي، بينما أسـتخدم العصا، وألوّح بها أمامـي. إنه كبيرٌ بما يكفي الآن ويعـرف جيّـداً ممـر المشـاة، وعلـى أي حـال، ببقائـي قريبًا من

الجدران والأسوار، يمكنني إبقاؤه داخل ممر المشاة. لقد تعلم كيف يجذب يدي قليلاً نحوه عندما يرى أنني على وشك ملامسة سياج أو بوابة. ومع ذلك، فلا يمكن الثقة به كليًّا بشأن هذا الأمر؛ إن لم أكن متيقظًا طوال الوقت، فربّما أسير في المكان الخطأ لانشغاله بالنظر إلى شيءٍ آخر.

لقد توصلت أيضًا إلى طريقة مرضية جدًا لتوديعه عند بوابة المدرسة. بينما هو يركض في اتجاه ملعب المدرسة، يودّعني قائلاً: «وداعا». أردّ عليه: «وداعًا»، نتبادل هذه الوداعات ونردّدها حتى تصبح أصواتنا أكثر خفوتًا شيئًا فشيئًا وتختفي في ضوضاء ساحة المدرسة. بينما كنت أستدير وأرحل، بعد أن لوّحت له بأقصى ما يمكنني، سمعت وداعًا صغيرًا أخيرًا خافتًا: «إلى اللقاء». هذه اللعبة تتجنب الاختفاء المفاجئ والمثير للقلق وتلك هي تجربة الأعمى المعتادة عند توديعه شخصٍ ما. توفر نداءات الصدى مرحلة وسيطة للاختفاء التدريجي، وهذا يكاد يكون بمثابة رؤية شخص يلوّح للآخر حتى يغيب عن ناظريه.

ليزي مهتمة أيضًا بمرافقتي وإرشادي، ثمّة منافسة حسنة بينها وبين أخيها في ذلك. غالبًا ما يكون معي توماس من ناحيةٍ، وليزي من الناحية الأخرى. أستمتع بهذا كثيرًا، لكنه يجعل من

الصعب استخدام العصا. أنا بخير بشرط أن لا يقرر أحدهما السير في اتجاه الآخر. ليزي فخورة جدًا بمهاراتها، وتناشد مارلين: «انظري! أنا أقود أبي. أنا أرشد أبي. أنا أريه الطريق».

٧ سبتمبر

لطالما كانت لعبة اللودو الخاصة بالمكفوفين ميزة ثمينة. لعبت بسعادة مع الأطفال طوال اليوم حتى الرابعة بعد الظهر. بعد اللودو؛ لعبنا: «ريفيرسي[١]» على لوحٍ مصمم أيضًا للمكفوفين، ولكنه جيد أيضًا للأشخاص المبصرين، ثم استمعنا أنا وتوماس إلى بعض أشرطة ذا جون شو[٢]، شعرت بنتائج مرضية تمامًا. لعبنا بعد ذلك لعبة ورق تسمى: «جمبل سيل[٣]» وعددًا من ألعاب الطاولة الأخرى.

حتى عندما لا نلعب لعبةً مخصّصة للمكفوفين، لا يبدو أنني أجد الأمر مزعجًا كما كنت أجده من قبل. يبدو أنني أكثر

(١) لعبة ريفيرسي Reversi هي لعبة ألواح إستراتيجية يشارك فيها لاعبان يلعبان على لوح مقسم إلى ٨ × ٨ مربعات.

(٢) ذا جون شو The Goon Show هو برنامج كوميدي إذاعي بريطاني، تم إنتاجه وبثه في الأصل بواسطة BBC Home Service من ١٩٥١ إلى ١٩٦٠.

(3) Jumble Sales

سعادةً لمجرّد الجلوس والمشاركة، وإخباري بما يجب القيام به، ورمي النرد، والاستمرار في التعليق الحماسي قدر الإمكان، كل ذلك يجده الأطفال نوعًا مناسبًا تمامًا من المشاركة. الحقيقة هي أنه غالبًا ما يكون لدي القليل من المعلومات أو ليس لدي أي معلومات عن قواعد اللعبة، بل أحيانًا لست متأكدًا حتّى من اللعبة التي نلعبها.

٨ سبتمبر

يبلغ عمر جابرييل أقل من شهر، أجدُ نفسي مستمتعًا برفقته كثيرًا. أحب رائحته، والطريقة السريعة المميّزة التي يتنفس بها في ملابسه الصغيرة عندما أنادي اسمه. أحب شعوري برأسه يلتفّ لمجرّد دخول مارلين الغرفة، الطريقة التي يعود بها ويلتفت إليّ مرةً أخرى. أحب شعوري به نائمًا ويتنفّس بين ذراعي، التغّير في صوت ونمط تنفسه، الإمساك بيديه الصغيرتين، ووضع يدي على رأسه الدافئ. أحب أن أشعر ما إذا كان شعره يزيد وينمو، وأحب الإمساك بأنفه الصغير. أحب إمِساك إحدى قدميه الصغيرتين، الشعور بجسده وأنا أحمله على كتفٍ واحدة. كل هذه الأشياء لم يُفسدها ضعف بصري كما كان الحال مع توماس أو ليزي. غير أنني لا زلت أشعر

بشـيءٍ حزين عندما يقول أحدهـم: «إنه يبتسـم لك»، أو «يا له من طفـل ذكـيٍّ ونبيه!» خاصّـةً وأن مثل هذه الأفـكار لا تخطر على بالـي كثيرًا، أشـعرُ بمتعةٍ حقيقيةٍ وفورية مع هـذا الطفل الصغير. جابرييل اسمٌ على مُسمّى.

٣ أكتوبر

حلمت الليلة الماضية أنني كنتُ وعائلتي نتسـوق في سـوبر ماركـت أو متجـر كبير تم بناؤه فوق منحدر. ضربتْ موجةٌ هائلةٌ المتجـر، وفرّقـت بيننـا جميعًا. عدت مسـرعًا إلـى المتجر الذي غمرتـه الميـاه، أبحـث عـن الأطفـال. كان هنـاك حطـامٌ في كل مـكان، بـالات مـن القمـاش والبضائع مغمـورة بالمـاء، وجثثٌ متفرّقـة. كانـت مارليـن وجابرييـل وإيموجين بأمـان في الطرف العلـوي مـن المتجـر، بينمـا كانـا تومـاس وإليزابيـث فـي عـدادِ المفقودين. لقد كانا في الأسـفل، تحت المستوى الذي وصلت إليـه الميـاه. بحثـتُ عنهمـا فـي كل مكان ولـم أجد شـيئًا. تزايد اليـأس في داخلي. عدتُّ وأخبرتُ مارلين بأنه لا يوجد أي دليلٍ عنهم. كان الحزن يغمرنا واسـتمرّ الجميعُ يبحث في كل مكان، لكـن بـدا الأمر ميؤوسًـا منـه. لقـد اختفيا ببسـاطة. نصبنـا لوحةً صغيـرةً تخليـدًا لذكراهـم. كان هناك الكثير مـن النقاش حول ما يجب أن نقوله. هل نقول ببسـاطةٍ إن البحر أخذهما؟

وجدتُّ نفسي بعد ذلك على حافّة جرفٍ، ولا زلت أبحث عنهما. كان الجرفُ وعرًا وشديدَ الانحدار، يتكون من طبقاتٍ رقيقة أو صفائح صخرية رقيقة. يبدو أنها أصبحت أكثر رقّة بفعل الموجة، وبينما كنت أتسلق على الحافة، معلقاً فوق بحرٍ غاضب، انزلقت قطع ضخمة من الصخر الطيني من تحت قدمي وتحطّمت. نبّشت لموطئ قدمٍ لي، متسائلًا ما إذا كانت حافة المنحدر بأكملها على وشك السقوط والانهيار. أثناء محاولاتي للتشبّث، انزلقتْ من فوقي ألواحٌ ضخمة من الصخور، وانهار معها المزيد من الأنقاض والحطام. كان الناس من حولي يتسلقون إلى الأعلى كذلك. أخيرًا وبطريقة ما، تمكّنت من التشبّث إلى حيث يبدو وجه المنحدر أقل تأثرًا بالموجة والعاصفة وأكثر صلابة؛ لذا تمكّنت من الفرار، لكن لم يكن هناك أي إشارة إلى توماس أو ليزي.

بدا هذا الحلم طويلاً للغاية. استيقظت منه تدريجيًا. في الواقع، لست متأكدًا تمامًا من النقطة التي انتهى فيها الحلم وبدأ الخيال الكابوسي. لم يكن هناك خطّ انقسامٍ واضح بين الحلم والواقع، لقد غمر الحلم إحساسي باليقظة بشعورٍ من الرهبة.

في وقتٍ سابق من فصل الصيف، جرفت السيول والصخور

مجموعة من أطفال المدارس في كورنوال[1]. ترك هذا الحادث أثَـرًا عميقًـا في داخلي، كمـا ترك حلمٌ أخبرنـي عنه أحد زملائي مؤخـراً أثـرًا مشـابهًا؛ حيـث غرق أطفـالٌ أيضًا وسـط الصخور. أعتقـد أن الحلـم فـي مُجملـه يعبّـر عن الخسـارة فـي العلاقات الأُسَـرية التـي يسـببها العمـى. غـرق تومـاس وليـزي، اللذان لا يزالان يتعلمان ويفهمان العمى، ما جعلهما تحت مستوى سطح المـاء. ولـدت إيموجين قبل صدمة فقداني البصَر وولد جابرييل بعـد ذلك. يقترح الحلم أيضًا أن شـظايا حياتـي القديمة، حياتي الواعيـة، حياتـي المُبصـرة، تنزلـق وتنهـار فـي كل مـكان حولي ليبتلعهـا عالم العمى الذي لا يرحم.

١٣ أكتوبر

ذهبنا لاحتفال رسمي لأحد الوزراء. حضرت فرقة موسيقية اسـمها: «الأوز البـري[2]» من جلاسـكو للمشـاركة. على الأقلّ مرّتين، غنّى كورال يتكون من أكثر من عشرة مغنون شباب على السـلالم أغانـي التحريـر الأفريقية. وقفـت بالقـرب منهم وكان تومـاس يتحـرّك ويدنـدن مـع الإيقـاع، ويصفّـق بيديـه. كانـت

(1) Cornwall

(2) Wild Geese

الموسيقى ثريّة جدًّا. شعرت بالبهجة والسرور. صاح توماس في أذني وسط ضجيج التصفيق والغناءك «عن ماذا كانت هذه الأغاني؟». «إنهم يغنون للحريّة» أجبت. ضحك مبتهجًا وكذلك فعلت. في وقتٍ لاحقٍ من المساء قال لي شخصٌ ما: «جون، قد ترغب في معرفة أن كل هؤلاء الشباب تبدو هيئتهم بهيّةً ومشعّةً، وجوههم مبتسمة، يرتدون ألوانَ زاهية! بعضها باللون الأحمر والبرتقال، وآخرون يرتدون كما المهرّجين كاروهات مربّعة ملوّنة، الجميع في غاية السعادة!». كنت سعيدًا لحصولي على هذه المعلومات؛ ذلك أنني تصورّتهم يرتدون أقمشة مقلّمة مع بلوزات بيضاء مزيّنة. لا أفترض أنني سأكون قادرًا على تجنب تكوين بعض الصور العقلية، وبما أن هذا يجب أن يكون دائمًا واقعيًا قدر الإمكان، أسعَدُ دائمًا بالحصول على مزيد من المعلومات.

ما أثر عليّ هو الصوت أكثر من أي شيء آخر. لا أعتقد أن سعادتي بسماع الغناء يمكن أن تزيد لمجرّد قدرتي على الإبصار، أو من خلال وصف ما كنت سأراه. لا أعتقد أن شعوري بالغِبطة كان ينقصه العنصر البصري الغائب. شعرت بشيءٍ من الضيق لاعتقاد البعض أن هناك ما ينقص أو يُقلّل استمتاعي بالمشهد بمجمله.

كلّما تعمّق المرء أكثر فأكثر في العمى، فإن الأشياء التي تم اعتبارها ذات يوم أمرًا مفروغًا منه، والتي أثارت الحزن لاختفائها، والتي حاول المرء بشتى الطرق تعويضها، في لحظةٍ ما وبطريقةٍ ما تقِلُّ أهميّتها، لم يعد شكل الناس أو ما تبدو عليه المدن ذات أهميّة. لا يمكن للمرء أن يتحقق من دقة تلك التقارير المنقولة، فهي تفتقد المعنى الشخصي وتبتعد عما يمكُن الاتصال به. تصبح غير ذات صلة في سلوك المرء. يعيش المرء لحظتها في اهتمامات وقيَم الآخرين، ويقيم في عالم آخر.

أعتقد أنني بدأت في استيعاب ما يبدو عليه العمى.

٢٨ أكتوبر

دُعيت أنا ومارلين إلى حفل زفاف صديق. كان ذلك في كنيسة قروية تم اختيارها لرونقها وشكلها الجميل. بينما كنا نغادر المبنى، قالت لي والدة العريس: «يا للأسف أنك لا تستطيع رؤية الكنيسة! إنها حقًّا جميلة جدًّا. إنها كنيسة صغيرة حلوة. إنه لأمرٌ مؤسف أنك لا تستطيع رؤيتها». ابتسمت مجاملًا وخرجنا. كانت الأجراس تدق. اقترب منّا شخصٌ آخر، مُثنيًا على جمال الحفل. مرةً أخرى، قالت والدة العريس: «لكن من

المؤسف أن جون لم يستطع رؤية الكنيسة!». بعد التقاط الصور على خلفية الكنيسة الصغيرة الجميلة، وجدت نفسي مرةً أخرى مع والدة العريس، هذه المرة مع مارلين. للمرة الثالثة، كرّرت ذات الملاحظات: «يا للأسف، لم يستطع جون رؤية الكنيسة الجميلة». ضحكت أنا ومارلين وقمتُ بتغيير الموضوع.

هذا يجعلني أتحدّث عن جانبٍ نفسيٍّ في المبصرين. شعرَت مضيفتنا اللطيفة، التي اختارت الكنيسة لأنها جميلة، بالإحباط قليلاً لأنها لم تكن قادرة على أن تكون مضيفةً جيدةً. لم تُحقّق الهدف المنشود بالنسبة لي على الأقل. اختير الموقع للمتعة البصرية في المقام الأول. لم أحصل على تلك المتعة؛ لذلك، كان الأمر مؤسفًا. المؤسف، لأكون دقيقًا هنا، لم يكن أنني لم أتمكن من رؤية الكنيسة فقط، ولكن كل المجهود الذي بذلته لأكون في ذلك المكان لم يحقّق النتيجة المطلوبة. كان من المؤسف القيام بكل هذا العمل ووضع كل تلك الخطط من أجل لا شيء.

هذا يدفعني لحديثٍ آخر؛ وهو أنني غير قابلٍ للتنميط أو ولا أقبل وضعي في القالب الذي يلائم الأشخاص المبصرين. لا يُمْتعني ما يمتع المبصرين. ولا يُعجبني ما يعجبهم، وكل ذلك يبعث على الأسف.

عندما أكون في مثل هكذا مكان، لا أشعر بالحزن أو القلق؛ لأن هناك أشياء لا أستطيع رؤيتها. انتباهي ومشاعري مشغولان بما يؤثّر فيهما فقط ويناسبهما فقط.

في هذه الحالة، كانت الأجراس. كان بإمكاني الوقوف هناك، والاستماع إلى تلك الأجراس، لفترةٍ طويلة. كان الهواء مليئًا بالاهتزازات. بدا وكأنّ رأسي يرنّ. بدت الأرض ترتجف، وكان الهواء ثقيلًا ونابضًا بتردّد الصدى. حاولت أن أحسب عدد الأنماط المختلفة التي ترِن، ولكن دون جدوى، لأحدّد عدد الأجراس التي يجب أن تكون في البرج. اعتقدت أنني أصبحت خبيرًا بما يكفي في هذا الشيء الجميل. حاولت أن أصِفَ أنماط الصوت لنفسي، أن أقارنها في عقلي بأجراسٍ أخرى سمعتها مؤخرًا. مرارًا وتكرارًا، كانت الدقات الهابطة تدوي، على خلفيةٍ من الثرثرة والحديث، تقطع الهواء الخريفي البارد، تعبّر عن الأشياء بطريقةٍ غريبةٍ وجادة. غمرتني الفرحة، وكررت مرارًا وتكرارًا في قلبي: «نعم، أستمع إليكِ أيتها الأجراس، أستمع إليك».

ربما لم أكن لأتصرّف بهذه الطريقة لو كنت أعرف المكان من قبل. عندما أعود إلى مكان مألوف، مثل: كنيسة كينجز كولج

فـي كامبريدج، غالبًا ما أشـعر بالخسـارة الرهيبة. ومع ذلك، في مـكانٍ جديـد، لا أبالي كثيـرًا بما قد يبدو عليـه. أعتبر أن المكان غيـر متوفـر لي، وأركز علـى تلك الأجـزاء التي يمكـن أن تصِلَ إلي. في الواقع، يزعجني إعطائي معلومات عن مظهر أي شيءٍ، مـا لـم أطلـب ذلك علـى وجـه التحديد. فـي كثير مـن الأحيان، أسـأل، لمجرّد شـعوري بالفضول. قد تكون هناك تفاصيل معينة أريـد أن أعرفهـا. أؤمن أن لا قيمة للجهل. في تلك المناسـبات، أطلب من صديقٍ مبصرٍ شيئًا من التفاصيل. المبادرة، ومع ذلك، يجب أن تكون لي.

لا أعـرف مـا إذا كان المبصرون قد لاحظـوا الأجراس. في أفضل الأحوال، لابد وأن ذلك مجرّد عنصر إضافي من الأجواء، يضـاف إلـى أوراق الخريف والبـرج النورمانـي[١] حيث يجتمع الجميع بملابسـهم الجميلة. بالنسـبة لي، كان الهواء الذي كنت أتنفسه على شكل جرس.

---

(١) البرج النورماني Norman tower، يستخدم المصطلح لوصف العمارة التي طورها النورمان في مختلف الأراضي التي خضعت لسيطرتهم أو نفوذهم في القرنين الحادي عشـر والثاني عشر، حيث أدخل النورمان أعـدادًا كبيـرة مـن القـلاع والتحصينـات وفـي الوقـت نفسـه الأديـرة والكنائس والكاتدرائيات، بأسلوب يتسم بالأقواس المدورة المعتادة.

١٥ نوفمبر

جلست على طاولة غرفة الطعام في ذلك اليوم وشعرت بالحرارة تسقط على وجهي. تتبّعت مصدرها بتحريك وجهي ويدي، وأخيراً حدّدت المصباح الكهربائي الذي كان يتدلى من السقف فوقي. لا أستطيع أن أتذكر أنني مررت بهذه التجربة من قبل. منذ ذلك الحين وأنا منتبه لمثل هذه الظاهرة، وجدت أنه يمكنني في كثير من الأحيان معرفة ما إذا كان الضوء في الغرفة مضاءً أم لا من خلال الوقوف تحته ووجهي مرفوع. أصبحتُ أكثر حساسيةً لأشعة الشمس المتساقطة على وجهي. في الواقع يبدو أن بشرتي بأكملها أصبحت أكثر حساسية لتغيرات الضغط، ودرجة الحرارة، والرياح، والشمس.

١٨ نوفمبر

في ذلك اليوم حضرت اجتماعًا مع حوالي عشرين زميلًا. بدت المتحدثة وكأنها شخصٌ طيبُ القلب بشكل مميّز، حسّاسة للغاية لاحتياجات الشخص الكفيف. ذكرتني في حديثها من خلال توضيح بعض الأشياء. بينما كانت تتحدّث عن شيءٍ ما، كانت تقول: «الآن لن تعرف هذا يا جون، لكنه كذا وكذا»، أو «جون، قد ترغب في معرفة أن هذا اللون كذا ...»، أو «من أجل

التوضيح، جون، أنا أمسك بكذا ...»، أو «إنه يحزنني كثيرًا أن أقول إنه لا يمكنك رؤية هذا العلم الجميل، جون، لكنه كذا وكذا». كنت أومِئ برأسي بأدبٍ جم إلى كل هذا، محاولًا أن أبدو ذكيًا ومقدّرًا.

لا شك أن الأشخاص الذين يقدرونني يأسفون أنهم لا يستطيعون إشراكي في الأشياء التي يحبونها. ومع ذلك، يجب مواجهة الحقائق؛ نظرًا لأنني لست قابلاً أو قادرًا على مشاركتهم، يبدو أنه من غير المجدي لفت الانتباه إليّ بهذه الطريقة، بالرثاء والحديث عن الحزن. كل هذا له تأثير يشعرني بأنني غريب. مثلما أنا مهتم بما يُقال، يأتي تذكير يطعنني في الجنب، مرارًا وتكرارًا: أنت خارج هذا؛ أنت لست واحدًا منا. هل من الممكن أن يكون هذا مقصودًا؟ هل من الممكن أن يكون هذا دفاعًا لشخصٍ مبصر، واختبارًا لقوته البصريّة مقابل قوتي؟ ذلك درسٌ عن كيفية النجاح في تثبيط عزيمة الأعمى؟

٢٢ ديسمبر

هل كان للعمى مقصد؟ هل كان من المفترض أن أصاب بالعمى؟ كثيرا ما يسألني الناس أسئلة مثل هذه.

حصلَ العمى الذي أعانيه كنتيجة لآلاف الحوادث العرضية

الصغيـرة. لم يكُن «مسـارًا»، ولـم أكن أسـير نحـو العمى بطريقة مُخطّطة. إذا نظرنا إلى الوراء، أستطيع أن أرى سلسلة الأحداث، ويبدو أنها تشبه إلى حدٍّ ما المسار، ولكن أي شيءٍ لا يتبع مسارًا يمكن رسـم مسـارات له بمجرد عبوره. عندمـا تنظر إلى الأمام، لا يوجـد طريق وإنما عدد لا حصر له من الاحتمالات.

تعنـي كلمـة: «العناية الإلهيـة» «التطلع إلى الأمام»، وتشـير تقليديًـا إلـى فكـرة أن الله يقـودك على طـول الطريـق. أعتقد أننا يجب أن ننظر إلى هذا المبدأ كدليل يُستنبطُ من الماضي، يجبُ أن ننظـر إلـى الـوراء؛ لأنـه فقـط عندما ننظـر إلى الـوراء، يصبح للحـدَث العرَضـي معنـى. يتبلور المعنـى بعد الحـدث. هذا هو السـبب في أن السـؤال: «لماذا حدث هذا؟» هو بالأحرى سؤال مضلّل. لقد حدث ذلك لأنني ولدت في القرن العشرين، وليس في القرن التاسع عشر. إذا كنت قد ولدت قبل مئة عام، فلا شك أنني كنت سأفقد بصري في سن مبكّرة؛ ولو كنت قد ولدت بعد قـرن مـن الآن، فلا شـك مـن أنّني سـأتمكّن من عـلاج بصري. بعبـارةٍ أخرى، يمكننـي أن أضَع ألف احتمال آخر يمكن أن يبرّر ويوضّـح كيـف وقع ذلك الحدث في حياة هـذا الفرد. ولكن إذا كان المـرء يسـأل عـن: «لمـاذا؟»؛ عن السـبب العـام، كما لو أن العمى نفسـه كان قدري وأنا لا أؤمن بذلك.

كل حـدَثٍ مـن الأحـداث سـبق الحـدث الكبيـر هو حدث عرضـي، ولـم يكن للتسلسـل بأكملـه ليحدث لـولا اجتماع كل هذه الأحداث العرضية، بشـكلٍ أو بآخر.

الإيمـانُ عمـل إبداعي. من خلال الإيمـان نحوّل الأحداث العرضيـة فـي حياتنـا إلـى إشـاراتٍ لمصيرنـا. السـعادةُ حـدَثٌ عرضـي، ولكـن المعنى يتضّح عندما نعيدُ تصـوّر الصدفة وتولدُ الصور الجديدة.

ومـع ذلـك، هـذا ليـس إنجـازًا، أو علـى الأقل لـم يحصل كنتيجـةٍ لمجهـود. للصـور طاقـة خاصّـة، وتصبـح الحيـاة ذات مغـزى حيـن تجتمـع هـذه الصـور، وتصنـع المحتـوى العرَضي للحياة. السعادة ليست أهم شيءٍ في الحياة، بل المعنى. السعادة هـي نتيجةٌ لسلسةٍ من الأحداث التي تبعث علـى غبطتنا. العمى لا يسـعدني. لـم أختـره، ولم ينزلـه أحدٌ على عاتقـي. ومع ذلك كحـدثٍ عرضي يمكن أن يصبح ذا مغزى.

١١

الهدية

شتاء ١٩٨٥ / ربيع ١٩٨٦

٢٨ ديسمبر

ليلـة الجمعـة الماضية، بينما كنت أضعه في الفراش، شـرع توماس في مناقشـة طويلـة ومفصّلة حـول العمى الـذي أعانيه. كانت فكرته الافتتاحية: «هل سـتكون أعمى دائمًا؟».

«نعم دائمًا».

«متـى حـدث ذلك؟ هل كان ذلك عندمـا كنتُ طفلاً صغيراً أو رضيعًا؟».

«لا. كان ذلك قبل ولادتك، قبل ولادتك مباشـرة».

«كيـف حصـل ذلك؟ هـل كانت لديـك عينٌ جيـدة يمكنك الرؤيـة بهـا وعيـنٌ سـيّئة لا يمكنـك الرؤية بها، ثم سـاءت عينك الجيدة؟ أم كانت كلتا عينيك سـليمتين أم ماذا؟».

«كان لـديّ عيـن جيـدة يمكنني الرؤيـة بها، ولكنها سـاءت تدريجيًّا».

«ألم يستطِع الأطباء إيقاف ذلك؟».

«حاول الأطباء ذلك».

«ماذا كانت المشـكلة فيها؟ لماذا ساءت؟».

ثـم شـرحت لـه عـن انفصـال الشـبكية. أخبرته عن شـبكية العيـن ومـا هـي وكيف تعمـل. وصفت كيـف يمكـن أن تنفصل الشـبكية عن مؤخّرة العين أو حتى تتمزّق وما أثر ذلك.

«لمـاذا تتمـزّق؟ مـا الـذي يجعلهـا تنفصل مـن مكانها؟ ألا يمكنهم إعادتها مرّةً أخرى؟».

وصفـت لـهُ العديـد مـن العمليات التـي أجريتهـا، وأخبرته ببعـض التقنيـات المسـتخدمة فـي محاولـة اسـتبدال أجـزاء من الشبكية ومنع المزيد من الانفصال. وصفت كيف ساءت الأمور تدريجيًـا، وكيف ظهرت مضاعفات أخرى.

«ألا يمكنهـم فعل المزيد في النهاية؟ ماذا قالوا؟».

قلت له: «حسـنًا، لقد قالوا، نحن آسـفون جدًّا يا سـيد هال، نأسـف أنّه لا يوجد الكثير مما يمكننا القيام به الآن».

قال: «كان ذلك حظًا سيئًا».

وافقته، ثم قال: «لماذا لم يساعدك الله؟».

«الله يساعدني بعدّة طرق».

«كيف؟».

«حسنًا، إنه يمدّني بالقوة والشجاعة».

«لكنه لم يساعدك في استعادة عينيك».

«لا، لكنه يساعدني في الكثير من الأشياء الأخرى، وقد ساعدني في الكثير من الأشياء».

في هذه المرحلة شعرت أن لديه ما يكفي ليفكّر فيه، وأنا كذلك؛ ذهبت لتناول العشاء، وذهب للنوْم. يجب وضع هذه المناقشة في سياق مفهوم توماس اللاهوتي الحالي، لاهوت القوة السماوية، بناءً على ما يمكن أن يفعله الأبطال الخارقون مثل: هي مان، وسوبرمان. يُنظر إلى الله على أنه هي مان وسوبرمان، مدمجان في كيانٍ واحدٍ، ولكنه أقوى من كليهما. كان فيلم سوبرمان قد عُرِض على التلفزيون في اليوم السابق فقط، وشاهده الأطفال باهتمامٍ كبير. سوبرمان هو المنقذ والمخلّص والمحرّر الذي يظهر قوّةً مذهلة وقدرة على تدبير

الأمـور نيابـة عن أصدقائه وزملائه في الوطـن. على النقيض من ذلك، تبـدو نتيجة وجود الله حليفًا للمرء مخيبةً للآمال.

ومع ذلك، فقد أعجبت بطبيعة استجوابه واهتمامه بتفاصيل الجراحـة وطب العيون. لقد أدهشـني تعليقه البالـغ الغريب بأنه كان حظًا سيئًا.

٢٩ ديسمبر

أعتبر أيام عيد الميلاد صعبة؛ لأنها وقت الأشـياء المحبوبة والهدايـا. ليـس مـن السـهل على الأعمى أن يشـارك في كشـف وفتح أغلفة الهدايا. كما يسـتغرق الأعمى وقتًا أطول لتعلّم حب مثل هذه الهدايا.

مـا هي الأشـياء المحبوبة فـي حياتي؟ كنت أحـبّ الكتب. أحـب التعامـل مـع مختاراتـي الصغيـرة من كتـب القـرن الثامن عشـر، أحبُّ ملاحظة الحروف العتيقة، وإلقاء نظرةٍ خاطفةٍ على النقـوش الخشـبيّة أو الصـور المحفـورة، والتأمـل فـي الكتابـة اليدوية القديمة التي غالبًا ما توجد داخل الأغلفة. عندما أحصل عِلـى كتـابٍ جديـدٍ هذه الأيـام، فأنـا بالتأكيد أحبُّ أن أشـعر به. أحـبُّ أن أحصـلَ على قدرٍ معيّنٍ مـن المعلومات من أي كتاب، وسـأكون على الأرجح قادرًا على تحديد ذلك الكتاب بعينه في

المرّة القادمة التي ألمسه فيها على أرففي. أستمتع دائمًا برائحة أي كتاب جديد وبتصفّحه. لا أعتقد، بأيّ حالٍ من الأحوال، أنني أستطيع أن أقول بصدقٍ أن الكتاب أصبح شيئًا محبوبًا.

هل انتقل حبّ الكتب إلى حب الأشرطة؟ بالكاد! لا أحد يحب الكاسيت كما يحب الناس الكتب. يفتقر الكاسيت إلى التفرّد والمباشرة. للكاسيت شخصية محدودة أو معدومة حتى تضعه على جهاز التسجيل. ثم يتحدّث إليك، لكن أي كتابٍ جديد يتحدث إليك بمجرد أن تلتقطه. حبّ الكتاب لا يتطلب وساطةً من آلة.

كنت أحب أغلفة تسجيلات الكراموفون[1]. اعتدت أن أُعجب بالعمل الفني على الغلاف، بالطريقة التي يقترح بها جو الموسيقى بذكاء من خلال الرسم التوضيحي. اليوم، الغلاف هو مجرد غطاء، مجرد حماية للقرص وشيء يمكن وضع بطاقة برايل عليه. بصرف النظر عن هذا، لا يمكن تمييز أغلفة التسجيلات بعضها عن بعض.

وماذا عن البشَر؟ حتى البشَر يصعب التمييز بينهم؟ ألم أتساءل ما إذا كانت ليزي على ركبتي؟ ألم أفشل في التعرف

---

(١) gramophone الكراموفون أو الحاكي.

على مارلين عندما نادت في الشارع قبل أيام؟ كيف يُمكن اعتبار الشخص شيئًا محبوبًا في حياتي؟ ولعل هذا من أسباب الملل عند الأعمى أو على الأقل عند هذا الشخص الأعمى. هل عليّ أن أتخذ خطوات أكثر عملية لملء حياتي بأشياء يمكُن أن أحبها، أشياء يكمن حبُّها في الشعور بها؟

من نواحٍ عديدة، يعيش الأعمى في عالم مُجرّدٍ من الأشياء بشكلٍ غريب. يحصلُ الشخص المبصر الذي يسير في وسط المدينة على انطباعاتٍ عن مئات الأشياء، منسّقةً في نوافذ المتاجر وأرففها لتثير فضوله. بينما يسير الشخص الأعمى في ذات الطريق بتصوّرٍ محدودٍ أو منعدمٍ لأيٍّ من هذه الأشياء الجذابة. ليس هناك أشياء كثيرة تأخذُه من داخله إلى خضمّ الحياة.

٣ مارس

استيقظت هذا الصباح وأنا أشعر بالانتعاش لأنني قضيت ليلةً مفعمة بالأحلام. كنت داخل سلسلة طويلة من المغامرات المثيرة، وكلها بألوان زاهية باهرة. استيقظت وأنا أشعر بنوعٍ من الصفاء والتجديد. لقد تجدّد ذهني تمامًا، كما لو أنني كنت في عطلة، كنت في أماكن مفتوحة، أشعرتني بحرّية العيش في عالمٍ بصري.

كان الحلم الذي لا يُنسى على شكل مسلسل. كانت إحدى تلك التجارب غير العادية حيث يستيقظ المرء عدّة مرات، وكل مرّة يستمرّ الحلم وكأنّه سلسلةٌ من الحلقات. كنّا في البحر، والجزء الرئيسي الوحيد الذي أتذكره بوضوح، يظهر طاقمنا وهو يُبحر في سفينةٍ عبر محيطٍ هائج. كنا داخل المنصّة الزجاجية، والأمواج العاتية تتكسّر على السقف الزجاجي، لتسقط المياه فيما يشبه الكُوَّة. كنا خائفين من أن تغرق السفينة إذا انكسرت هذه النافذة العلوية. كانت كمية الماء هائلة بما يكفي لجعْل المكان يهتز ويرتجف. كنا نمدُّ أذرعنا لتثبيت الهيكل ومنع انهياره بقوة الماء. لم يسقط السقف ووصلنا بنجاحٍ عبر العاصفة إلى الميناء. استيقظت بشعورٍ مبهجٍ من الانتعاش، سعيدًا بخوض كل هذه التجارب الرائعة.

يعيش المبصرون في العالم. بينما الأعمى يعيش في وعيه.

ولا مفر من هذا الوعي، أو ربّما ثمّة فرار مسموح به فقط في الأحلام. ذلك هو الفرار السعيد.

٢١ مارس

صباح البارحة كنت جاثيًا على الأرض لمساعدة ليزي في ارتداء ملابسها. عندما انتهت، أوقفتها أمامي وقلت: «الآن!

دعونـا نلقي نظرةً عليك». أمسـكت بوجههـا برفق بين يدي بينما كانت تقف هناك، وابتسـمت لها ابتسامةً كبيرة.

بقينـا هكـذا للحظة ثم قالت: «أبي، كيف يمكنك أن تبتسـم بيني وبينك عندما أبتسـم وعندما تبتسم أنت لأنك أعمى؟».

ضحكـت وقلت: «ماذا تقصدين يا عزيزتـي؟ كيف يمكنني ماذا؟».

بتردّدٍ شـديد، تعثّرت في كل كلمة، ثم قالت «كيف يمكنك أن تبتسم – لا – كيف يمكنني أن أبتسم بيني وبينك – لا – بيني وبينك، ابتسامة؛ لأنك أعمى؟».

«تقصدين كيف لي أن أعرف متى أبتسـم لك؟».

قالت: «نعم، وأنت أعمى».

قلت: «هذا صحيح يا عزيزتي، المكفوفون غالبًا لا يعرفون متـى يبتسـمون للنـاس، وغالبًا لا أعرف متى أبتسـم لـك، أليس كذلك؟».

وافقتني.

«لكننـي علمـت اليوم أنكِ كنـت تبتسـمين، عزيزتي؛ لأنكِ كنـتِ تقفيـن هناك، وكنت أبتسـم إليك، وأعتقد أنّـك ربما كنتِ تبتسـمين في وجهي. أليس كذلك؟».

أجابت مسرورةً «بلى!».

إذن، هـذه الطفلـة الصغيـرة، بعـد أن احتفلـت للتـو بعيـد ميلادهـا الرابـع، قـادرة علـى التعبيـر عن الانكسـار الذي يسـبّبه العمى في لغة الابتسـامات. لاحظْـتُ التمييز الدقيق الذي ذكرته ضمنيًـا بيـن الابتسـام لشـخصٍ مـا والابتسـام بيـن مجموعةٍ من النـاس. لا أسـتطيع أن أصِـفَ مشـاعري بعد أن فكّـرت مليًّا في حقيقـة أنهـا قامـت بتجـارب كثيـرة للابتسـام فـي وجهـي، لكن الابتسـامة المتبادلة بيني وبينها لم تكن نادرة فحسـب، بل كانت لغـزًا. لقد تحمَّلت خسـارةً فادحـةً وحصلت على مكسـبٍ رائعٍ في نفس الوقت.

٢٠ أبريل

كان تومـاس وليـزي جالسـين علـى ركبتي. كنـت أخبرهمـا قصـة. بـدأ توماس يدقّ عينـي اليمنى بإصبعه. سـأل: «إذا فعلت هكذا، هل سيعود بصرك؟».

قلت: «لا، لا شـيء سيجعل بصري يعود».

قال: «أبدًا؟ حتى عندما تموت، هل سيعود؟ هل سيجعله الله يعود إليك بعد ذلك؟».

«حسنًا، أتوقّع أنّه، بطريقةٍ ما، سأكون عندها مع الله، وسأعرف كل شيء، أليس كذلك؟».

ثم انضمّت ليزي وهي تهتف: «إنه ليس لطيفًا جدًا، أليس كذلك؟». كرّرت الجملة مرةً أخرى بإصرار: «إنّه ليس لطيفًا جدًا، أليس كذلك؟».

سألتها: «ماذا؟».

«كونك أعمى». صرخت: «دائمًا!».

قلت إن الأمر لم يكن لطيفًا للغاية، لكن هناك أشياء أسوأ.

أصرّت بانفعالٍ: «لكنه ليس لطيفًا جدًّا!».

كرّرتُ مرةً أخرى فكرةَ أن هناك أشياء أسوأ، لكن يبدو أنها لم تسمعني.

بانفعالٍ قالت: «إنها مثل النزول إلى الأسفل والأسفل إلى أسفل إلى أسفل عميقًا جدًّا جدًّا جدًّا جدًّا حيث لا يمكنك الخروج أبدًا، كما في القلعة».

كانت تشير إلى رحلةٍ قمنا بها إلى أنقاض قلعة لودلو[١]

---

(١) قلعة لودلو Ludlow Castle تقع في ويلز في المملكة المتحدة. بُنيت القلعة في القرون الوسطى وتقع في بلدة لودلو في مقاطعة شروبشاير.

حيث أدهشها عمق البئر المظلمة. كنّا قد أسقطنا الحجارة في البئر وأنصتنا إليها تسقط. انسحبت ليزي بعيدًا عن الحافة، وقالت وهي ترتعد: «لا أحب تلك القلعة. لا أحب ذلك المكان. لا أحب تلك الأقبية، والتي تنزل إلى الأسفل والأسفل. لا أريد أبدًا العودة إلى قلعةٍ كهذه مرّة أخرى».

أعتقد أنها الآن قد نسِيَت البئر التي جعلتها تذكر القلعة، لكنني تأثرت كثيرًا بنظرتها الثاقبة في العمى، وإدراكها الغريزي لفظاعة تراجع الضوء، وتجربة السقوط إلى الأسفل أكثر فأكثر. أعجبت من نفورها ورفضها لوجود خسارة لا يمكن تعويضها، والإحساس بأنك محاصر هناك وإلى الأبد.

٢١ أبريل

في الأسابيع الفائتة، خطر في ذهني فكرة أن العمى يمكن أن يكون هدية. لا أستطيع أن أتذكّر تمامًا من أين خطرت لي هذه الفكرة. ربّما كان ذلك من خلال الاستماع إلى برنامج عن التأمل حيث كان التعبير المستخدم هو: «هدية الصمت».

أقاوم هذه الفكرة؛ لأنه إذا كان العمى هدية، فعليّ أن أقبلها. لقد قلت لنفسي إنني سأتعلم العيش مع العمى، لكنني لن أقبل ذلك أبدًا.

ومـع ذلك، أجد الفكرة تعود إلي باسـتمرار، وتثير فضولي. هل يمكن أن يكون هناك طريقة ما يكون فيها العمى هدية مظلمة ومتناقضـة؟ هل يمكـن أن يقدّم العمى أسـلوب حياة أو نوع من التطهيـر أو حُسـن التدبير؟ هل هـو حقًا نوع مـن التطهير المؤلـم المشـابه للمـوت؟ هـل أتوقع أنني سـأدخل مرحلـةً جديدة أكثر تركيزًا من الحياة بسـبب هذه الهبة؟

قام الفيلسـوف فيليز برينتانو[1] بالكثير من أعماله الإبداعية بعد أن فقد بصره، وأرجَعَ ذلك إلى إصابته بالعمى. هل عليّ أن أعتبـر أنني لسـت شـخصًا معاقًا بعيـبٍ، ولكنني ممكّـنٌ بمقدرةٍ وطاقة؟

إذا كان العمى هدية، فهو ليس هديةً أتمنى أن يحصل عليها أي أحدٍ، وليسـت هدية أريد أن أحصل عليها. إنها شـيء أودّ أن أعيـده، وأجد أنـه لا يمكنني قبوله. الهدية التـي ليس لك الخيار فـي تلقّيهـا من عدمـه، هي نوعٌ غريـب من الهدايا. أظـن أنني لا أدين بأي امتنان لشـيءٍ يُوهَب إلي ولا يسعني إلا قبوله.

٣ مايو

فـي ليلة السـبت، شـاهدت أنـا ومايـكل عرضًا للمسـرحية

---

(1) Feliz Brentano

الموسيقيّة كيروسيل لرودجرز وهامرشتاين[1]، قدّمه التلاميذ في مدرسة ثانوية كاثوليكية مستقلة في إدمونتون، ألبرتا. خلال الفاصل الزمني، قرأ مايكل لي ملصقًا تم عرضه على إحدى لوحات الإعلانات، يقول: «ربما الشيء الذي يجب أن نتعلمه من المسيحية هو: أنه في مقابل هذه الهدية ليس لدينا ما نقدّمه».

وجدت هذه الفكرة غريبة. الشعار موجّهٌ إلى الأشخاص الذين يعتقدون أنه يتعيّن عليهم سداد شيءٍ مقابل تلقي الهدية. كان القصد إخبارهم أن هذا لن يكون ضروريًا. فقط لأنها هدية؛ لا ينبغي أن يكون هناك شكّ أو سؤال أو سداد.

في حالتي، كان التأثير عكس ذلك. لم يخطر ببالي أبدًا أنني بقبول الهدية، يجب عليّ أن أردّها بشيءٍ ما. كنت أعتبر أنه من المسلّم بهِ عدم توقّع الحصول على هديةٍ في المقابل. جعلني الملصق أتساءل ما إذا كان هذا الافتراض مُبرّرًا. بالطبع، لا تتطلب الهدية دفع قيمة مقابلها، لكن استلام الهدية يضع المرء في علاقةٍ مع مانحها، ما يجعل تبادل الهدايا مهذبًا وملائمًا.

ولكن ما هي الهدية التي يمكن أن تكون مناسبة لردِّ هدية

(1) Carousel by Rodgers and Hammerstein

العمـى؟ مـاذا يمكننـي أن أعطـي، مـاذا أريـد أن أعطـي، والذي يمكـن أن يضاهي الظلمـة المضجرة والطبيعـة المدمّرة للعمى؟ باعتبـار أن الهديـة هـي العمى، ربما لا أكون دقيقًـا تماما. العمى هـو التغليفة أو الوسـيط. الهديّة تكمن فـي العُمق، على الجانب الآخر من العمى.

١٠ مايو

إذا كان العمـى هديّـة، فالمـوت هديّة. مـاذا يمكن أن نعطي في مقابل موتنا؟ أيًا يكُن ذلك الذي نسـتطيع أن نعطيه في انتظار تلك الهدية النهائية؛ والتي لن تُبقي لنا شـيئًا لنعطيه.

ولكـن إذا كان العمى هدية والموت هدية فماذا نخاف؟ إذا كانـت الحياة هي الموت، فإن الموت هو الحياة. إذا كان الظلام هـو النور، فإن النور هو الظلام. الحياة الواعية واللاواعية شـيءٌ واحد. ليس لدينا شـيء، ومع ذلك لدينا كل شيء.

١٢

أمسِكُ بطرَف الخيط

صيف ١٩٨٦

١٤ مايو

أثناء الإفطار صباح أمس سألتْ ليزي فجأة: «لديك عينان، فلماذا لا تستطيع أن ترى؟».

«عيناي لا تعملان».

«عليك إذن أن تصلي إلى الله».

أجبتها بتردّد: «حسنًا، قد يكون لدى الله أفكاره الخاصة حول كل هذا. إنه ليس هناك لرعايتنا فقط، كما تعلمين. الله لديه مشاكله الخاصة».

ردّد توماس: «نعم»، ثم أضاف «الله لديه مشاكله الخاصة».

أضفت: «نحن هنا لمساعدته، إنه ليس موجودًا لمساعدتنا فقط».

في السـرير هذا الصباح احتضنتني بحنان وهمَسـت بهدوء: «هـل يمكنك أن ترى قليلًا فقط؟».

قلت: «لا، ولا حتى قليلًا».

قالت: «أوه».

١٧ يونيو

أدرك الآن أنـه ليـس عليـك أن تكـون مُبصِرًا لتعليـم الطفل القـراءة، على الرغم من أن هذه المشـكلة سـبّبت لـي الكثير من الضيـق والإرهـاق في السـنوات الأولـى من العمـى، عندما كان توماس صغيرًا.

منـذ حوالـي أسـبوع، أصبحـت آخـذ ليـزي معي إلـى غرفة دراسـتي قبـل الإفطـار. لديهـا عـدة مجموعـات مـن البطاقـات التعليميـة التـي تتعلّم عليها، وعدد من الكتب التي سـتتمكّن من قراءتها؛ عندما تتمكن من التعرّف على جميع البطاقات. تجلس دائمًـا فـي حضني، بينما أُمرّر لها كل بطاقة، واحدةً تلوَ الأخرى. إذا تمكّنـت أن تخبرنـي ما هي البطاقـة، أضعها على الطاولة. إن لـم تكـن متأكّدة، أطلـب منهـا أن تتهجاها لـي. غالبًا مـا يمكنها القيـام بذلـك، ويمكنها علـى الأقل إخباري بعـدد الأحرف التي

تحتـوي عليهـا الكلمة. عادةً ما يمكنها أن تخبرني بما يكفي وأن أعرف على الكلمة. إذا كان هناك أيّ شك، أو إذا تعثرنا، أُحضِرُ مجموعةً من الأحرف الأبجدية المنحوتة على الخشب وأمرّرها بيننـا حتـى تتعـرّف علـى الحـرف الأول للكلمـة، ثم الـذي يليه وهكذا. من الأسـهل بالنسـبة لها أن تطلب من أحد أفراد الأسرة الأكبر سـنًا المسـاعدة في التعرّف الكلمة، وكثيرًا ما تفعل ذلك. نرتّب الكلمات في أنماطٍ مختلفةٍ لتشـكيل جُمَلٍ سـخيفة. تحب ليزي ذلك، ونضحك كثيرًا كلّ مرة. أطلب منها أن تأخذ إصبعي وتشـير إلـى كل كلمةٍ موضوعة على الطاولـة، ثم تقرؤها لي مرةً أخـرى بينمـا أسـتبدلها فـي الصنـدوق. كلّ يـومٍ، تَقِـلّ وتنقـص الكلمـات التـي وجدت صعوبةً في اسـتخدامها، والتـي جمعتها فـي كومـةٍ خاصّة. مع مرور الأيـام، أصبحت عـدد المرّات التي نطلـب فيها مسـاعدةً من شـخص آخر أقل. أخيرًا، نُخـرِج كتابًا، وبحمـاسٍ كبيـرٍ نبـدأ فـي قراءتـه. أحد الأشـياء الجيـدة في هذه الطريقـة، هو أن الطفل يقوم وحده بعملية التعرّف والتفكير. كما يجب عليها أن تسـاعدني، وبذلك تقِلّ أهميتي ودوري كشخصٍ بالـغٍ مطلعٍ إلى الحدِّ الأدنى. بالإضافة إلى أنني أصبحت الرفيق والمشـجّع، الشخص الذي يلعب معها.

٢٢ يونيو

حلمـتُ حلمين منفصلين. تضمّن كل واحدٍ منهما استعادةً للبصر، ووجودًا لإحدى بناتي.

حلمـت أنني كنت في مكتبي. كانت إيموجين تساعدني، وتكتب على طاولةٍ بعيدة. بدأ الأمر بحقيقة أنني كنت أرى الضوء. زاد الضوء، وتحول إلى نوعٍ من الضباب المتوهّج، الذي استحال إلى تفاصيل مغبّشةٍ، ثم إلى تفاصيل أكثر وضوحًا. ظهرت الألوان تدريجياً، واستطعت أن أُبصر. كان بإمكاني رؤية وجه إيموجين، على الجانب الآخر من المكتب الكبير، حيث كانت تعمل على الآلة الكاتبة. كنت مذهولًا وجلست هناك لبعض الوقت دون أن أنبسَ ببنت شفة أو أتحرّك. نهضت بعد ذلك وأخبرتها بما حدث. لم تتفاجأْ، لكنها واصلت العمل، قائلةً كم هو لطيف أن تستعيد بصرك. ذهبت إلى غرفةٍ مجاورة، وفتحت بعض خزائن الملفات، وأخرجت بعض المجلات، وألقيت نظرة على الصور للتأكّد من أنني أستطيع رؤيتها حقًا. كان الأمر رائعًا، حقيقة أنني أستطيع أن أرى. وهكذا انتهى الحلم.

تبعَه الحلم الثاني على الفوْر. كنت ألعب مع ليزي وهي

على ركبتي. فجأةً وفي ذهول، أدرَكْتُ أنني ألمحُ حدود رأسها، ثم تفاصيل وجهها، ثمّ رأيتها بشكل واضح وكامل. أول ما لاحظته كان عينيها. كانت بنيةً وكبيرة. لم تكن تنظر إلي، لكنها كانت ترشُق النظر بعينيها هنا وهناك. لاحظت مندهشًا الحركات الصغيرة التي تقوم بها العينان باستمرار. بدا لي أمرٌ لا يصدق. ثم لاحظت أن هذا كان يحدث فقط في إحدى عينيها. كانت العين الأخرى ثابتة. في تلك اللحظة، لفَتُّ انتباهها. حدّقت في عينها السليمة والتي كانت تتّسع بانبهار؛ لأنها أدركت أنني كنت أنظر إليها. حضنّا وتشبّثنا ببعض. ثم قلت لها: «ماذا حدث لعينك الأخرى، ليزي؟».

أجابت: «لا أستطيع أن أرى بتلك العين، يا أبي».

«لم أكن أعرف. متى حدَث ذلك؟ لم اسمع بذلك من قبل. لماذا لم تخبريني؟».

قالت: «أمي عرفت. أمي تعرف. ستخبرك أمي».

ذهبت إلى مارلين، سألتها: «ماذا حدث لعين ليزي الأخرى؟».

قالت: «أوه، لقد حدث هذا منذ وقت طويل».

في الحلم، تغلّب عليّ شعور القلق الشديد لمجرّد ملاحظة عين ليزي الأخرى. لذلك استيقظت.

استيقظت ببطءٍ شديد، وأنا أحاول استيعاب أنه كان حلماً، ثم تذكّرت أيضًا، أنني حلمت قبله حلمًا كانت فيه إيموجين.

٤ يوليو

في مؤتمرٍ عُقِد مؤخرًا كنت أنتظر في البهو لاستقبال المتحدّث الزائر البارز وزوجته. سمعت خشخشةَ حصى الطريق بمجرّد وصول السيارات المرافقة، همَسَ لي أحدُهم أن السيارة الرسمية كانت تتبعهم. اصطف اثنان أو ثلاثة منا لتشكيل احتفاءٍ ترحيبي، وبعد لحظةٍ كان ضيفنا يصافحني. تابع المضيف: «وهذه هي السيدة ...». مددت يدي مرةً أخرى، وهذه المرّة وعند رفع يدي، لمست شيئًا مشوّكًا نوعًا ما. ضحك الجميع، وشعرت بالإحراج حين أُخبرت أنني لمست ذقن زائرنا وهو ينحني. كان ينحني لمساعدة زوجته. بدت أقصر منه بكثير. ارتبكت، حاولت مرة أخرى. «لا»، قالت بصوتٍ دافئ وودود: «أنا هنا!»؛ صحّحت مستوى ذراعي إلى المنتصف تقريبًا، كانت تجلس على كرسيّ متحرّك. لم يكن الوداع أفضل بكثير. ارتبكت قليلاً حول مكان وجود ضيفنا. معتقدًا بأنني

كنت أصافحه بيدي، شكرته على قدومه، فقط لأجد أنني في الحقيقة أودّع أحد زملائي المقرّبين، الذي أمسك بيدي ناحية إلى زائرنا. افترقنا كما التقينا، بانبساطٍ وسوء فهمٍ متبادل.

٢٦ يوليو

حلمتُ الليلة الماضية أنني كنت أتحدّث في مؤتمرٍ كبير، في قاعةِ المدينة. لفترةٍ من الوقت، كنت على المسرح. كان هناك عددٌ من زملائي. كانت تفاصيل القاعة واضحة. تم تجهيز الممرّات الواسعة بطاولات لمجموعات المناقشة. قضيت بعض الوقت جالسًا على كراسي المسرح، وبعضه الآخر على المنصة. كان عليّ أن أكون حريصًا جدًا في الصعود والنزول على الدرَج، وفي تحديد موقع الكرسي. تلقيت مساعدة الزملاء عند انتقالي من نقطةٍ إلى أخرى في القاعة، لا يبدو أنني كنت أحملُ عصاي.

عند النظر إلى المرّات التي أجد فيها نفسي بصفتي أعمى مؤخّرًا في الأحلام، من الضروري التمييز بين الصورة البصرية في الحلم، وكيف يرسمني الحلم. الحلم هو الذي يراني، وما يراه الحلم (بدرجاتٍ متفاوتةٍ من الغموض) هو أنّني أعمى.

حقيقة أن الحلم يراني (أعمى)، وأن كل شيءٍ في الحلم

يـراه الحالـم، وذلـك لا يعنـي عدم الاعتـراف بأنني الـذي يظهر كجـزءٍ من محتوى الحلم، أعمى. لسـت أنا مـن يرى القاعة، بل الحالم. أرى أنني أجد صعوبةً في الصعود والنزول على الدرَج. لا أرى الخطـوات لكـن الحُلُم يراها ويرى أنني لا أراها. الحالم النائـم، المبصـر، يرى بأن الشـخص المسـتيقظ والـذي يحلم به كان أعمـى. هـذا لا يعني أن عقلي الباطن لا يعترف بعماي؛ لأن المرء يحلم دائمًا بما يعرفه، أو ما يشـعر به، أو يتصوّره. تختلف وجهـةُ نظر الحلم عـن وجهة نظر الشـخص الواعي؛ لأن الحلم يعبّر عن معرفته بانطباعات رمزية، وشـبيهة بالصور، ومقتطفات مـن الذكريـات. عندمـا أقف علـى المنصة فـي الحيـاة الواقعية، أعلم أن هناك صفوفًا من الكراسـي بها ممرات وأشـخاص. هذه المعرفة مجرّدة؛ بمعنى أن هذه الأفكار موجودة في شكل جُمَل. لا أتخيل ذلك بشكل خاص، إلا إذا أشار أحدُهم أن هناك، على سـبيل المثال، سـتائر حمراء كبيـرة معلّقة على جانبي المسـرح، وفي هذه الحالة تتسـلّلُ بشـكلٍ خاطفٍ الصورة بشـكل لا يُقاوم إلـى العقـل الواعي. ومع ذلك، فإن تسلسـل الجُمَـل في الحلم، والمدّ السّـريع للأفكار المُعبّر عنهـا في اللغة، والذي يملأ وقت اليقظـة إلـى حـدٍّ مـا، يُثبّـت كسلسـلةٍ مـن الصـور، والأحداث، والمشـاعر التـي يتـم فيها تجربـة ما هو معروف بشـكلٍ مباشـر،

وليس من خلال تجريدات اللغة. ربما تشاهد مقطع فيديو يُظهِر مؤتمرًا للمكفوفين، لكن هل يمكنك أن تعرف، من خلال النظر إلى الفيلم وحده، ما إذا كان المُصوّر أيضًا أعمى؟

لا أرى كيف يمكن للحالم أن يكُفّ عن الرؤية ويكتفي بمجرّد المعرفة. ربما يكون من المهم أنني لا أتذكر أنني حلمت بوجوه الناس لفترة طويلة.

في حلم المؤتمر بقاعةِ المدينة، كنت أشعر بالناس، بألوان بدلاتهم وملابسهم. كان لدي انطباع عام عن وجودهم هناك، بأجسادهم، بصريًا، ولكن بدون وجوههم، على الرغم من أنني كنت أعرف من هم. كيف يعرف الحالم من هم هؤلاء الناس؟ لم يكن الحلم سمعيًا بشكل خاص؛ لذلك لم يكن التعرّف عليهم عن طريق الصوت. يمتلك الحالم طرقًا للتعرّف على الأشخاص دون معرفة شكل وجوههم. هل سيأتي اليوم الذي يكتشف فيه الحالم طرقًا لمعرفة أن الناس متفرقون في المكان، هنا وهناك، دون تمثيلهم جسديًا، ككُتَلٍ ملوّنه وحاضرة؟

٢٧ يوليو

منذ أبريل، كنت أعيش بفكرة أن العمى يجب أن يُنظر إليه على أنه هدية، بطريقةٍ غريبة. منذ ذلك الحين، لاحظت العديد

من الأمثلة على هذه الفكرة في الأسطورة والفولكلور والدين.

حفل عمريت[١] هو طقس القبول في خالصة[٢] السيخ، جماعة السيخ العاكفة. وعاء عمريت مليء بالمياه الحلوة. يشرب المبتدئ بعضاً منه، ويرش بعضه على شعره ولحيته، ومن ثم يدهن به وجهه. يشاهد الحفل خمسة من أعضاء الخالصة، كل منهم مسلح بسيفٍ احتفالي طويل. الحفل إحياء لذكرى حادثة عام ١٦٩٩ عندما تأسست الخالصة، حيث عرَضَ أول خمسة من التلاميذ المخلصين أنفسهم للتضحية على يد جورو جوبيند سينغ[٣]، ولم يتذوقوا حلاوة ماء عمريت إلا من خلال تلك المحنة الرهيبة.

هذا المزيج من السيف والحلاوة في حفلٍ واحد هو سِمَة مميّزة لفكرة الهديّة الرهيبة. تعبّر العديد من الأديان عن هذا، وبطرقٍ مختلفة. كما عثرت مؤخرًا على كتاب لشيلدون فانوكين[٤] بعنوان: «رحمة شديدة»، وكان يعبّر بشكل أو بآخر عن ذات الثيمة.

---

(1) Amrit ceremony

(٢) خالصة Khalsa، وتعني النقاء.

(3) Guru Gobind Singh

(4) Sheldon Vanauken

٢٢ أغسطس

في البداية، وجدت مباني دير إيونا[١] مربكة للغاية. أحبطتني متاهات (كما بدت لي) من الممرات والسلالم والأعمدة والشرفات لدرجة أنني بالكاد استجمعت إرادتي لمغادرة غرفة النوم. وجدت أنه من المستحيل فهمَ مخطّط المكان؛ لأنه في كل مرةٍ أُخرج فيها قدَمًا من باب الغرفة، يمدُّ أناسٌ طيّبون يدَ العون والمساعدة لدرجة أنها لم تُتَح لي الفرصةَ لبذل أي مجهود.

بعد يومين أو ثلاثة أيام من ذلك، غيّرت تكتيكاتي، وخرجت في وقتٍ متأخر من الليل والجميع نيام، أو خلال وقت هادئ من اليوم عندما يكون الجميع قد خرجوا. ثم استكشفت بنفسي.

تعلّمت الطرق المؤدية إلى قاعة الطعام والمكتبة. في كل مرةٍ خرجت فيها، كنت أملأ بعض الأماكن الفارغة على الخريطة التي كنت أتصوّرها في ذهني. ذات ليلةٍ اكتشفت بابًا خشبيًا

(١) دير إيونا Iona Abbey، هو دير يقع في جزيرة إيونا، قبالة جزيرة مل على الساحل الغربي لإسكتلندا، وهو أحد أقدم المراكز الدينية المسيحية في أوروبا الغربية.

كبيرًا جدًا. بفتحه، أدركت على الفور أنني كنت في مساحة شاسعة. من المبكّر أن أكون قد خرجت، لكن برودة الهواء وحركته توحي بوجود مساحةٍ هائلةٍ أمامي. يجب أن لا أضيع. وصلت بعد ذلك إلى أعلى الدرَج الحجَري. في كل مرة أنزل فيها بضع خطوات، أعيد تصوّر طريق العودة إلى الباب في ذهني، وأتأكّد أنني أستطيع الخروج مرة أخرى. بدا السُّلم وكأنه لا ينتهي، على الرغم من أنني أظنُّ أنه لم يكن أكثر من عشرين أو ثلاثين دَرجة. في الأسفل، كانت الأرضية حجرية وشاسعة. اكتفيت بما استكشفته في تلك الليلة.

كنت أعود كل ليلة لاستكشاف المزيد. من عمودٍ إلى آخر، كنت أحسب خطواتي، وأتذكر الزوايا، وأعود دائمًا إلى أسفل الدرج.

بعد عدّة ليال، اكتشفت المذبح الرئيسي. كنتُ قد أُخبِرتُ به من قبل، وتعرفت عليه بسهولة من الوصف. كان كتلةً واحدةً من الرخام. وجدت زاوية واحدة، ومرّرتُ أصابعي على طول الحافة، لم أستطِع الوصول إلى الزاوية الأخرى. مررت يدي على المقدمة واندهشت لحجمها. كانت هناك أحرفٍ صلبة وبارزة منحوتة، لكنني لم أبذل أي جهدٍ لقراءتها. أعلى المذبح

كان ناعمًا كالحرير، لكن إلى أي مدى يمتد إلى الخلف؟ مددت ذراعي من فوق لكني لم أستطع الوصول إلى الخلف. كان ذلك لا يصدق. لابد وأن ينتهي في مكان ما. دفعت نفسي إلى الأعلى، ورجلي تتدلى من الأمام، وتمكّنت من الوصول إلى الخلف. فعلت ذلك مرارًا وتكرارًا، وقست المساحة بجسدي، حتى بدأت أخيرًا في تكوين فكرةٍ عن أبعاده. كانت أكبر مني وأكبر بكثير. كانت هناك عدة أماكن على السطح المصقول تم تمييزها بمسافات بادئة طويلة غير منتظمة، وليست شقوق، بل عيوب من نوع ما. هل يمكن وأنه سقطَ؟ شعرت هذه العلامات وكأنها نتيجة لضربةٍ ما. كان التباين بين الثلمات الخشنة وبقية المساحة الضخمة المصقولة غير عاديّ. لابد وأن ذلك عمل الصنّاع، دقّوا هذا الشيء، وصقلوه إلى طبقة ملساء تقريبًا، ومغبرّة قليلاً، والتي أصبحت زلقة عندما لعقتها. كانت هناك أيضًا بعض السحجات، شيءٌ أكثر بدائية، يبدو أنها من الصخرة الأساسية.

حاشية

لقد حاولت أن أقول الحقيقة حول ما يجب أن يبقى تجربةً رائعةً لأي إنسان يعبر فيها. هل اقتربت من فهم العمى؟ لا يزال

هناك الكثير لا أعرفه، لكن القناعة تعمّقت في داخلي بأن العمى عالم متناقض؛ لأنه مستقلّ وغير مستقلّ. إنه مستقل بمعنى أنه عالم أصيل ويدور في فلكه الخاص به. على نحو متزايد، لا أفكر في نفسي على أنّني شخص أعمى، لكنني مفتقر إلى شيءٍ ما، وأنظر إلى نفسي ببساطة بصفتي رائي بكامل الجسد. الشّخص الأعمى هو ببساطةٍ شخص تكمن الوظيفة المتخصّصة للبصر على كامل جسده، ليس هناك عضو محدّد يتخصص في ذلك. أن تكون رائيًا بكامل الجسد، أن تكون في إحدى الحالات البشرية الأشد تركيزًا. إنها حالة، مثل حالة الشباب والشيخوخة، أو الذكر والأنثى، إنها إحدى الأنظمة البشرية. من الصعب، بسبب الأنظمة القبلية البشرية وضيق الأفق، بالنسبة لنا التواصل عبر حدود الدول. النظام البشري الواحد يجدُ صعوبة في فهم الآخر. ترتّب الأنظمة نفسها في تراتبيةٍ اعتمادًا على السلطة والمكانة، بعضها في القمة، والبعض الآخر في القاع، والبعض في الوسط، والبعض الآخر مستبعد. حاول هذا الكتاب أن يصِفَ تجربة شخص عبرَ الحدود، لكنه يريد المحافظة على الشراكة.

كما أن العمى غير مستقِلّ. في مكان ما على طول الخط، في نهاية الطريق، هناك شخص بعينين سليمتين. شِئنا أم أبينا

الأعمى ضعيف. العمى عالمٌ صغير، أصيلٌ ومتكامل، ومع ذلك فهـو محـاطٌ بعالمٍ أكبـر، عالـم المبصرين ومحتجـز داخله. كيف يفهـم الصغيـر الكبير بدون الشـعور بالغيرة، وكيـف يفهم الكبير الصغير بدون شفَقة؟

الخاتمة

مارلين هال، أكتوبر ٢٠١٦

كيف كانت الحياة مع رجل أعمى؟ كيف تعتقدين أن الحياة كانت ستختلف لو لم يفقد جون بصَره؟ ألستِ محظوظةً نوعًا ما لأنه لم يرك تتقدمين في العمر؟

لقد مرّ أكثر من عام على وفاة جون. في السوبر ماركت، مررت بجانب تويجلتز[1] والويسكي المفضل لديه وشعرت بحرقةٍ تصعَد في صدري، بعد أن أسقطتهم من قائمة التسوّق الخاصة بي. دفعت جهاز الكمبيوتر والماسح الضوئي الخاص به إلى حافة المكتب الذي أستخدمه الآن لي. أحيانًا ألتقط واحدة أو أكثر من الأشياء التي يحبّها مبعثرةً على حافة النوافذ أو على رفّ الموقد، وأتذكّر كيف كان يداعب أسطحها ويعانقها؛ الخشب المصقول، أو الزجاج المحفور، أو الحجر، أو الأحفورة. على الرفوف من حولي، كل شيءٍ بطريقة برايل مرتّب بعناية، الأقراص المضغوطة والأسطوانات التي تغذي

---

(١) تويجلتس Twiglets نوع من الأكلات الخفيفة المصنوعة من القمح.

شغفَه بالموسيقى، بجانب الصناديق السوداء التي تخزّن مئات الساعات من تسجيلات الكاسيت لملاحظاته الصوتية عن الكتب المقروءة، والكتب المُراد كتابتها، والمحاضرات، والرسائل، والتأملات. بالإضافة إلى سجِلٍّ رقميٍّ هائل والذي حلَّ محل التقنية القديمة في السنوات الأخيرة. صوتُه في كل مكان، وبالكاد أتحمّله.

يصِف السؤال الذي قرأته للتو نقطة تحوّل في حياتي تشبه وقوعي في الحب. هذا الكتاب ليس من السهل قراءته بالنسبة لي. لكنه رحلة لم أكن أتوقع تحوّلاتها وطرقاتها الغريبة. اجتمعنا أنا وجون في عام ١٩٧٥. في أغسطس ١٩٨٠، وُلد طفلنا الأول، توم، بعد أسبوعين بالضبط من العملية الأخيرة في عينه. عمل استشاريّان على عيْنه في ذلك اليوم، لكن شبكية العين تضررت بشدّة من الجراحة السابقة، وكانت الندبات عميقة، لدرجة أنّهما قالا: «لم يتبقَ شيءٌ يمكن العمل عليه». في غضون أسابيع قليلة، انتقل جون من كونه أكاديميًا عاملاً، يصِل بسهولة إلى الكتب، وملاحظات المحاضرات، وجميع الأشياء المعتادة، إلى كوْنه أعمى. بعد ذلك بعامين، اختفى تمامًا إحساسه بالضوء. وجد نفسه في وضعٍ غير معتاد، حتى بالنسبة للمكفوفين المسجلين، أصبح في ظلامٍ تامّ ودائم.

ولـدت إيموجيـن عام ١٩٧٣، وكانت طفلـةَ جون المبصر. كان توم طفلَ الصوَرِ المغبّشـة، ليـزي وجبرائيل وجوش، ولدوا جميعًـا بعـد عـام ١٩٨١، كانـوا أطفـال جـون الأعمـى. وسـط الصدمـة والإحباطـات العديدة لفقدان بصره في تلك السـنوات الأولى، لم يجلب له ألمًا شخصيًا أكثر من رغبته أن يصبح الأب الـذي يريـد. كانت السـنوات الأولـى لإيموجيـن مفعمـةً وغنيّةً بمشـاعر الأب المثالي، وهذا ما جعله يشـعر بالفرق؛ حيث جُرِّد مـن بعـض تلـك المشـاعر عنـد قـدوم تـوم وليـزي. لم يسـتطع التحديـق فـي طفلنـا الجديـد بدهشـةٍ وابتهاج، لـم يلاحظ آلاف التغييـرات الصغيـرة في السـلوك والشـخصية، ولم يسـتمتع بثقةٍ لخطواتهـم الأولـى، مـع العلم أنـه كان يسـتطيع أن يتدخل على الفوْر لمنعهم من التعرّض للأذى. أصبح المرَحُ البسيط واللعب اليومي مع أطفالنا شـيئًا يجب التفكير فيه والعمل عليه.

فـي الكتاب، يصف جون يوم عيد ميلاد، أفترض إما ٨٣ أو ٨٤، لـم ينسـه أي منّـا علـى الإطلاق. وسـط دوامـة الأصدقاء، والأطفـال الصغـار المتحمّسـين، ووسـط التشـويش والفوضـى والضوضـاء، جلـس جـون فـي صمتٍ شـبه تـام. تعاظم شـعور الغربـة والألـم الداخلي لدرجـة جعلتني أحثّه علـى الذهاب إلى المكتـب -كان الحرم الجامعي على بعْدُ عشـر دقائق فقط سـيرًا

علـى الأقدام- على الرغم من أنه سـيكون مهجورًا تمامًا، وربما بـاردًا. لـم أقل ذلك لأيّ شـعورٍ بالضغينة. كان هنـاك الكثير من الناس حوله، يحاولون مسـاعدته لتعدّي الموقف، لكن الأطفال كانـوا مُتعِبيـن بالفعـل. كلانا يعرف أنـه عليه أن يجـد مكانًا آمنًا، حيـث يمكنـه التعامـل مع ما يحيـط به بشـروطه الخاصة، عوضًا عـن محاولـة الدخول، بشـكل غير ملائـم، في حيـاة المبصرين. كانت هذه المرة الأولى من بين مراتٍ أخرى مشـابهة. بعد ذلك بوقتٍ طويل، أدركت أنّه بحِثّي له على الابتعاد يصبح قادرًا على العودة، ويستعيد نَفْسه ويستعيدني.

لكن نوعية تلك الأيام الأولى الكابوسيّة اليائسة من العمى، والتي وُصِفت في هذا الكتاب لم تدُم عبر السنين ولـم تُلقِ بظلالٍ قاتمـة علـى بقيّـة حياتنا. لقـد تخبّطنـا وتأقلمنا كمـا يفعل الآباء، وكنـا سـعداء للغايـة في معظـم الأوقـات. كان لدى جـون طاقة اسـتثنائية، كان منفتحًـا يتمتـع بحـسٍّ كبيـر من المـرَح وفي نفس الوقـت متوقّـدًا بانتبـاه المعلّـم الماهـر، وقـد عبّـرَ وأظهـر هـذه الصفـات بقـوةٍ في علاقاته مـع المقرّبين منه. فـي الغالب لم نُعِر فقدانـه البصـر اهتمامًـا كبيـرًا؛ لقـد انغمسـنا كثيـرًا فـي الحيـاة، والتفكيـر، والمشـكلات، والمتعـة. فـي أوقـاتٍ أخـرى شـعرنا بالفخـر إلـى حدٍّ مـا لطريقة تكيّيفـهِ المبتكـرة. إذا ابتعدت لبضع

دقائق عندما نكون في الخارج، أو في حديقةٍ، أو على الشـاطئ، كان يربـط خيطًـا حـول كاحـل الطفـل الرضيـع حتـى لا يزحف بعيدًا، كان خائفًا جدًّا من فقدان أحد الأطفال! كما كان من أشد المعجبيـن بكـرة القـدم وقـام بتجربة كـرات الجلجلة لمسـاعدة الأطفـال علـى تطويـر مهاراتهـم المُبَكِّرة. (يتذكر توم أنه سـجل هدفًا رائعًا في شِباكه خلال ركلات الترجيح في عطلة عائلية في فرنسـا). كتـب بطريقـة برايـل ببراعـة علـى الكتـب المصـورة ملاحظـاتٍ قصيـرةٍ علـى كل صفحـةٍ حتـى يتمكـن مـن قراءتها بصـوت عالٍ. كان يبتهج عندما يقوم بهذه الاسـتراتيجيات، لكنه كان لا يـزال يحسـد أصدقـاءه المكفوفيـن الأكثـر ثقـة، خاصّـة أولئـك الذيـن لـم يرهم مـن قبل، وصَـف أحدهـم لعبه للكريكت وكـرة القدم في الشـارع مع الأطفال الآخريـن منذ صِغره، وآخر تحدّث عن ركوبه الدراجة حول قريته برفقة شقيقه، دون اهتمام أو شـعورٍ بخسـارة العالـم الخارجي. بالنسـبة لجـون، الذي فقد بصـرَه فـي الخامسـة والأربعيـن، كانـت هـذه مهـارات لا يمكن تصوّرها.

كان تأثير فقدان بصَره على حياتنا اليوميّة هائلاً. كان الرجل الذي وقعت في غرامه شـخصًا عمليًا يسـتمتع بالأعمال المنزلية مثـل الطهـي والديكور وتنسـيق الحدائق. كنّا نعمـل بدوامٍ كامل

ونعتبر أن مشاركةَ هذه الأشياء أمرٌ مفروغ منه. يمكن للأشخاص المكفوفين أن يصبحوا خبراء في أي مهارةٍ بشرية يمكن تخيّلها، ولكن من واقع خبرتي، فإن الأمر يستغرق وقتًا طويلاً لإعادةِ تعلم مهارة والتخصّص فيها وتلك بالضرورة نتيجة حتمية للمعاناة من إعاقة كبيرة. استثمر جون معظم وقته في عمله، ليس فقط لأن ذلك يُفْرحه ويُسعده، ولكن لأنه شعرَ أن النجاح في وظيفته كان أفضل ما يفرّغ فيه طاقاته. كان ذلك يعني أن معظم المهام اليومية لإدارة المنزل تقع على عاتقي؛ فكّر في مجموعة أكياس التسوق المكدّسة بعشوائيّة على الحائط والتي لن يقلق بشأن محتوياتها أبدًا. وكم مرة أكّد له الأطفال بشكل غير دقيق أنهم سيضعون ألعابهم بعيدًا أو سيأكلون تلك الخضار التي رُميت في سلة المهملات.

كان جون يتألّم عند الإشارة إلى أنّه تحدّث عن نفسه فقط (عندما وصف تجربته)، وليس عن غيره من المكفوفين، وأشعُرُ بالشيء نفسه تجاه تجربتي كرفيقة. أشعر أحيانًا أن الناس على وشك السؤال، لكنهم لا يحبّون ذلك تمامًا، **ألم تضحي بالكثير مما أردتِ فعله بسبب إصابة جون بالعمى؟** إنني على درايةٍ بالحياة غير العادية التي يعيشها مقدمو الرعاية مع أحبائهم في كل مكان، وعادةً بمغالبة تتجاوز قدرتنا، لكن في الواقع لم أفكّر

مطلقًا في نفسـي كمقدّمة رعاية. تسـبّبت الصدفة الغريبة للعملية الجراحية في عين جون الأخيرة وولادة طفلنا الأول في حدوث ترنّحٍ مفاجئ وانعطافة في حياتنا، جعل خياراتٍ معيّنة في الحياة أسـهل. كان مـن المسـتحيل بالنسـبة لـي التفكير فـي العودة إلى العمـل. لـم أفكّـر في ذلك قط. كنـت في أواخر العشـرينات من عمـري، وقضيـت اثني عشـر عامًـا في الغالـب مشـغولةً بالعائلة والأطفـال بالإضافة إلـى التدريس بدوامٍ جزئـي، باعتباره عملي الوحيـد المدفـوع الأجـر. لقـد كان وقتًـا مُرْضيًـا. اسـتمتعت بالأطفـال الصغـار وكنـت مشـغولةً فـي تكوين صداقـاتٍ نوعية وعميقة في تلك المجموعة العريضة من الأشخاص المنغمسين بالمثـل في تربية أبنائهم. في وقتٍ لاحق، أمضيت عشـرين عامًا أو نحـو ذلـك فـي التعليـم الابتدائـي وقـرب نهايـة حيـاة جـون أصبحـت مديرةً لمدرسـة في جنوب برمنغهام، وهو أمرٌ أشـعرنا بالفخر إلى حدٍّ ما. شـعرت مع جون بشـراكة متكافئة، كان يهتم بـي واهتـمّ به. لـم تؤدّ الإعاقة إلى أي خلل فـي ميزان القوى من كلا الجانبين.

ربمـا كان أكبـر تأثيـر لفقدانه البصر هو الخـروج والتجوّل. لقـد كان شـخصًا فضوليًا بشـكلٍ كبيـر محبًا للتفاصيـل، ومتطلبًا للحقائق الفكرية التي كادت أن ترهقني أحيانًا. اعتبرنا سـابقًا أنه

من المسلّم به الإشادة بالملاحظات المتبادلة للأشياء الجديدة التي غالبًا ما تشكل الخلفية الساحرة للعلاقات الإنسانية («انظر إلى ذلك»، «رائع، هذا رائع» وما إلى ذلك). أصبح كل هذا يتم من خلالي ويجب أتوسّط فيه أنا، رفيقته المبصرة. ما هي تفاصيل المبنى؟ حجمه، حقبته، ملامحه المعمارية، موقعه؟ بمرور الوقت أصبح اهتمامنا بالعناصر المرئية أقل، واهتمامنا في دورها وأهميتها أكثر، اهتمامنا في مؤشرات الأشياء مثل المعنى والغرض والشخصية. كان على الكلمات أن تنقل المعلومات اللانهائية التي تتدفق عادةً عن طريق البصر وهذا جهدٌ كبير على الشخص الكفيف وكذلك رفيقه. قد يكون المشي معه في أحد شوارع المدينة، أو قضاء عطلة، أو مشاهدة مسرحية مدرسية أمرًا صعبًا. غالبًا ما كنت أشعر بأنني فشلت في تحقيق المطلوب ليس فقط للمناظر الطبيعية أو في نقل الحدَث الذي أحاول وصْفه، ولكن لفهم جون أيضًا. لكنه كان يتسامح مع الأوصاف الخرقاء من رفاقه المبصرين وسرعان ما ينقل المحادثة إلى مواضيع ليست ذات أهمية. روح الدعابة وخفّة الروح كانت حاضرةً معه وهذا يعني أن تواجدنا سويّةً كان دائمًا ممتعًا، كنا نُمسك ببعضنا أثناء سيرنا، أو في يوم شتوي، كنت أضع يدي في جيبه.

على الطرق المألوفة، كان بإمكان جون المشي بأريحية دون مساعدة عصاه (لم يكن لديه كلب؛ لأنه كان يعاني حساسيةً من الكلاب)، لكنه غالبًا ما كان يفضّل المشي مع رفيقٍ مبصر.

قد تجِدُ طالبةٌ جديدةٌ نفسها متوتّرة عندما يأخذ بمرفقها فجأةً ويطويها تحت مرفقه، حتى يتمكّن من التحرّك دون عناء من غرفة المحاضرة إلى البار. إذا شعرَت بالدهشة في البداية، فإنها سرعان ما تجد نفسها منغمسةً في محادثةٍ عميقة أو مزاحٍ مرح. تلقيّت العديد من الرسائل المؤثرة بعد وفاة جون تصِف مثل هذه المواقف. وبالنسبة لأطفالنا كان هناك تقاسم للمسؤولية وهم يسيرون مع والدهم. لقد تعلموا في وقتٍ مبكر جدًا التعرف على الحافلة المناسبة، وقراءة اللوحات في المطارات، وتحديد الجداوِل الزمنية.

لم يحدّد العمى جون. قد يكون من الصعب تخيّل ذلك، بعد أن قرأت عن سنوات فيها من اليأس الكثير في هذا الكتاب، لكنه في النهاية كان يمزح ويعتبر العمى: «مجرّد هوايةٍ». في السنوات اللاحقة كان يكتب من حينٍ لآخر عن الآثار المترتّبة والمستمرة، كان يوافق أحيانًا على إلقاء محاضرات عن العمى لكنه في الغالب لم يفعل ذلك؛ بسبب ضيق الوقت. كان لديه

صديق أو صديقان حميمان وكفيفان أيضًا. ومع ذلك، فقد عاش الغالبيـة العظمـى من حياته مـع أولئك من عالـم المبصرين بكل انشغالاته التي لا هوادة فيها.

كان لـدى جـون قـدرةٌ غير عاديـة على العمل. كان مدرسًـا يتمتّع بخبرةٍ تزيد عن خمسـة وخمسـين عامًا، وأكاديميًا ناجحًا، ومفكـرًا رائدًا فـي التعليم الديني، وأخيراً لاهوتيًّـا محترمًا، لكنه حمـل تعليمه بكلّ خفّةٍ ودائمًا ما كان يضع نفسـه كمتعلّم وليس كخبير. سأل أحد الزملاء، قبل وقتٍ قصير من وفاة جون: «لماذا يبـدو أن لـدى جـون كل الوقـت فـي العالـم، وينتهـي دائمًـا في الوقت المحدّد، وقد قرأ أكثر من أي شـخصٍ آخر، وكتب أكثر، ولا يبـدو أنّـه منزعجٌ مما عليـه القيام به، يا لها مـن بصيرةٍ مميّزةٍ لديه؟».

الجـواب مباشـرٌ إلى حدٍّ ما: العيش بـدون بصَر جعلَ جون يقوم بأشـياء أقلّ وبشـكلٍ أفضل. لم يعد قادرًا على القيام بمهامٍ متعدّدة. لم يعُد الإسراع في المهام أو «حصد الوقت»، على حد تعبيره، ممكنًا في جسَـدٍ يرى باللمس. التمعّن أخذ مكانه عوضًا عِن السرعة. كتبت إيموجين بعد وفاته عن ترتيبه وتنظيمه «على عكـس الأشـخاص المبصريـن، لـم يُصَـبْ بالذعـر مـن حجـم الفوضـى، ولكنه كان يجثو على يديه وركبتيه ويلتقط أوّل شـيء

يأتـي فـي يديـه، ما هـذا؟ أيـن مكانـه؟ كان ذلـك درسٌ مُهمٌّ في الحياة. لا تشـغل بالك بالصورة الأكبر، وإنّما قسّـم التحدّي إلى قطعٍ صغيرةٍ الحجم».

هـذه القدرة على التركيز كانت محسوسـة بطرقٍ أخرى. لو كنتَ مع جون ستشـعر أن كل انتباهه مركّزٌ عليك، هذا ما وصفه د. هــ. لورانـس[1] بأنـه: «الرجل فـي كماله، يحضـر بالكامل». غالبًـا مـا كان الناس يثقون به بسـهولة لمجـرد الاجتماع به. كان يسـتمع باهتمـام، ويَرجِـع ذلك جزئيًـا لعدم رؤيته للغة الجسـد، كان عليـه أن يعمـل بجديـة أكبـرِ للإنصات والاسـتماع. لم تكن تشـتّت انتباهـه صينيـة المقهـى اللذيـذة التـي مرّت مـن أمامه أو كومة الفوضى المكدّسة في الزاوية.

كان الأصدقاء رائعين، مخلصين، كتومين. كان جون شخصًا يسـهل التحـدث إليـه، عن أي شـيء، وأعتقد في الغالـب أنه كان يُشـبع فضولهم. كانت هناك بعـض التعليقات، التي لم تكن عادةً مـن أي شـخص نعرفه جيّدًا، تتردّد بيـن وقتٍ وآخر: **كيف تعرف الملابـس التي سـترتديها؟ هل مـا زلت تأمل في اسـتعادة نظرك؟** والفكرة الرائعة بأن جون سـيكون سعيدًا لأنه لن يرى نتائج وآثار

(١) ديفيـد هربـرت لورانـس D. H. Lawrence كاتـب وشـاعر إنجليـزي (١٨٨٥-١٩٣٠)

الشيخوخة. سيكون من أحبهم كثيرًا مثل الفتيان والفتيات في قصيدة الجرة الإغريقية[1] لجون كيتس: «يهرولون إلى الأبد، شباب إلى الأبد». كانت الإجابات على هذه الأسئلة، والعديد من الأسئلة المماثلة الأخرى، بسيطة للغاية في العادة. لا تحتاج إلى التفكير كثيرًا في مطابقة القمصان والسراويل إذا كان هناك شخصٌ مبصر يمكنه المساعدة في ذلك، عندما تتلف العين وتنقطع مساراتها العصبية، فمن غير المنطقي أن تتمنى العلاج.

في البداية بقيت أنا ومن يحبهم كثيرًا ذكريات بصرية مشوّشة، ولكنها متحركة، وجد لاحقًا أنه لا يتذكرنا إلا من خلال التركيز على الصّور المألوفة، أخيرًا، بقيَت الألوان والأشجار وهيئة جسدِه وشكله، واختفينا بعيدًا. بحلول الوقت الذي نُشر فيه هذا الكتاب في الأصل عام ١٩٩٠، لم يعد جون يشير إلى أن شيئًا يشبه شيئًا آخر؛ أو ربما أنه تخلى عمْدًا عن هذا المفهوم، الذي اعتبره حنينًا معلّقًا على جزءٍ من حياةٍ قديمة أصبح غير أصيل. كان منغمسًا بعمقٍ في عالم شُكّلت فئاته وأقسامه الأساسية بشكلٍ مختلفٍ عن عالمي. كان من الصعب تقبّل ذلك، لكنني شعرت بضرورة تعلّم أن أكون غير مرئيةٍ، وأن أتركه يبتعد على طريقته، في هذا الجانب أو غيره، إلى عالمٍ لا

(1) Keats’ Grecian urn

أستطيع أن أجاريه. تدريجيًا تعلّمت قبول أنه إذا لم يعُد يهمّه شكلي وكيف أبدو، فليكن. إذا استطاع شخصٌ غريبٌ أن يعرف شيئًا عن أطفالنا في لقائهم الأول لم يعرفه عنهم من قبل، فليكن. بالطبع كانت هناك مناسبات متفرّقة عندما أحببت أن أذكّره بأنني لا أبدو سيئة الشّكل بالنسبة لعمري، أو أن أحدَ الأطفال أو غيرهم بدا رائعًا، وهو يرتدي ملابس حفل التخرج. لقد كان ممتنًا ولطيفًا، لكن في عالمنا لم تعد هذه التعليقات تحمل الكثير من المعنى.

شيءٌ ما فُقد، لكن بقي الكثير. ما كان مهمًا هو أن لا نتعلّق بطريقةٍ عديمة الجدوى بما كان مهمًا من قبل. لم نعد قادرين على تبادل الابتسامات المرِحة، والنظرات الفطنة، ولحظات الحنق، أو تحذيقة الحب العميقة. كان لدينا دقةَ وتعقيد أصواتنا فقط، ولمسات أجسادنا بلطفها ووقاحتها. هذه هي الحواس الأكثر تلميحًا، والتي بقيت. كانت عوالمنا قد تباعدت عن بعضها البعض، وكان عملنا اليومي هو تكوين كيانٍ جديدٍ له وحدته المستقلّة.

لقد تعلمت التحديق مباشرة للنظرات الغريبة في المطاعم، واستغربت كيف أن بعض الناس ما زال يستحوذ اهتمامهم رؤية

شخصٍ يمشي بعصا. لم أكن أُجيب عندما يسألني شخصٌ ما في حضوره عما يرغب فيه جون، كما يفعل كثيرًا. تبنيّت أسلوب اللامبالاة المدروسة عندما كنت أنتظره خارج مراحيض الرجال. كان مؤمّنًا ماليًا، واجتماعيًا، وفي جميع سياقات الحياة التي تهمنا، لم نشعر أبدًا بأننا متروكون وحدنا، وماذا يهم إذا ذهب للعمل مرتديًا جوارب غريبة؟

السؤال الأعمق الذي قامت عليه علاقتنا والذي تناوله جون أخيرًا في كتاباته كان: «هل يستطيع المكفوفون والمبصرون أن يفهموا بعضهم البعض؟ هل يستطيع الصغار فهم الكبار؟ هل يمكن للأغنياء أن يفهموا الفقراء؟» كان يعتقد أن إنسانيتنا تعتمد على قدرتنا على الاتحاد عبر عوالم مختلفة من التجربة. يشير وصف جون لمعنى أن تكون أعمى إلى إعادة ترتيبٍ أساسيةٍ للوعي كله. تُرَمّم مثل هذه التجربة الفجوات وتدعم الفرص الكبيرة لإنسانيتنا: الإعاقة والجنس[١] والفقر.

أعظم الهدايا التي شعر جون أنه حصل عليها من فقدان بصره؛ كانت تجربة التهميش وبالتالي شغفه بالعدالة. منح فقَدان البصر لرجلٍ أبيضٍ من الطبقة المتوسطة، ومتعلم بشكلٍ

---

(١) الجنس gender، بمعنى الجندر.

جيـد، ويعمـل فـي وظيفـة نخبويـة، تجربةً قاسـيةً للخـروج عن العالـم المعيـاري، أو بالأحرى وجد نفسـه يتجـوّل على حوافه. فـي السـنوات الإحدى عشـرة الأخيرة مـن حياتـه، أمضى جون وقتًـا طويـلاً في العمـل والتعليم حـول قضايا العدالة والسـلام. كان ناشـطًا ضـد الأسـلحة النوويـة، وخاصـةً برنامـج ترايدنـت النـووي، وحـروب الطائـرات بـدون طيـار. شـارك فـي التطـوّر المبكـر للكنيسـة الشـاملة[1]، وهي منظمة مسـكونية تسـعى إلى حثّ الكنيسـة للقيام بمسؤولياتها فيما يتعلق بالجنس، والإعاقة، والصحـة العقليـة، والعِرق. كان صريحًـا، مهاجمًـا لـكلٍّ مـن الكتـاب المقـدس وتقليد الكنيسـة حـول الإعاقة، وأعـاد العمل على العمى والإعاقة في علم اللاهوت. ودعا الكنيسـة للوقوف مع المهمّشين.

اعتقـد جـون أن التحـدي الرئيسـي لإنسـانيتنا هـو التحلّـي بالشجاعة والاعتراف بالاختلافات على حقيقتها، وعدم محاولة التقليـل منهـا. هذا ما أعطانـي إياه جون. الشـجاعة للعيش معه، في عوالم كانت مختلفة بشـكلٍ عميق في بعض النواحي، ولكن نمى منها الكثير والكثير.

---

(1) Inclusive Church

بعد ثلاثة أشهرٍ من عيد ميلاده الثمانين، مات جون. حدثت النهاية بشكلٍ سريع. كنا قد عُدنا لتوّنا من عطلة لمدة أسبوع مع إيموجين وعائلتها. كان جون في حالة معنوية عالية وحريصًا على العودة إلى العمل. استمتع بأمسيةٍ هادئةٍ، واستمع إلى الموسيقى في مكتبه وفي حوالي الساعة ١٠:٣٠ صعدَ إلى الفراش. بعد حوالي خمس دقائق سمعت صرخة مرّوعة وسقوط. هرعت إلى أسفل الدرج حيث كان فاقدًا للوعي.

بعد ذلك، في الطوارئ، تحدثنا عما حدث. لم يسقط أبدًا عندما كان وحيدًا في كل سنوات ضعف البصر، ربّما مرة أو مرتين فقط عندما كان برفقة شخصٍ مبصر فقد تركيزه. لم يستطع أن يتذكر حقًا كيف سقط، وأعتقد أنه ربّما يكون قد أصيب بالدوار للحظة.

نتج عن ذلك ثمانية كسور في ستة أضلاع. وكان التحدي السريري وقتها هو الحفاظ على تنفسّه على الرغم من الألم، وعدم الحركة لتجنّب الالتهاب الرئوي.

كلانا كان يعرف أن حياته في خطر. منذ طفولته المبكّرة كاِن يعاني من ربو خطير وبحلول الوقت الذي التقينا فيه، فقد الكثير من قدرته الرئوية التي تضاءلت بشدّة بالفعل. شاهدته مراتٍ عديدةٍ وهو يحاول الثبات بشكل موجع خلال نوبة هلَعٍ

مصاحبة للربو، كان يعدّ بهدوءٍ مع تصاعد الكحّة وتراجعها. تساءلت كيف يمكن أن يجد الهدوء لمواجهة مشاعر الرهبة من الأماكن المغلقة، والناجمة عن التأثير المزدوج للعمى والربو.

في أغسطس ٢٠١٢ تم تشخيص حالته بأنه مصاب بمرض الانسداد الرئوي المزمن[1] الذي لا يوجد علاج له. كنا نعلم أنه لن يعيش على الأرجح لسنواتٍ عديدة وأن أي صدمة أو عدوى أو مرض خطير من المحتمل جدًا أن يقتله؛ أو، الأسوأ من ذلك كله، أنه قد ينتهي به الأمر مدفوعًا على كرسي متحرك، ومرتبطًا بالأكسجين، ويموت ببطءٍ، غير قادر على العمل أو التدريس.

لم نتطرق إلى التشخيص، ولكن بطريقةٍ ما يمكنك أن تقول إننا كنا مستعدين. في الواقع، حاول جون أحيانًا وفي لحظةٍ هادئةٍ أن يشرح لصديق مقرّب سأل عن صحته وأخبره، أنه في الواقع مريض جدًا وقد لا يعيش لفترةٍ أطول في هذا العالم. كان الرد على ذلك إنكارًا مهذبًا لنوعٍ ما لأنه ظل حياً من الناحية الفكرية، مُفعمًا بالأفكار وملتزمًا، بصوتٍ قويٍّ جدًّا، وضحكةٍ كبيرةٍ، لدرجة أن أحداً لم يصدّق عمره، ناهيك عن حالته الصحية الحقيقية.

(1) Chronic Obstructive Pulmonary Disease

بعد أن بدا أنه استقرّ لمدة يومين، تدهورَت حالة جون فجأة في اليوم الثالث. والتهبت رئتاه، أسرَع من قدرة الأطباء على السيطرة، ثم انهارت أنظمته واحدًا تلوَ الآخر. حاول أطفالنا العودة إلى المستشفى، لكن في النهاية تمكن اثنان فقط من الوصول إليه. مات بين ذراعي، ممسكًا بليزي وقابضًا على يدِ جوشوا.

* * *

الكتابة عن الشخص الذي أحببته بعد وفاته تجربة غريبة. من بين مجموعة الذكريات الهائلة، عليك أن تقرّر أي الأجزاء يجب ذكرها وأيها يجب تجاوزها، مع العلم أنه لن يكون هناك إجابة صحيحة طوال الوقت. أحاول أن أنقل فقط ما كان عليه جون، الإنسان المتألّق، دون أن أجعله يبدو وكأنه قدّيس، لم يكن بالتأكيد ذلك العنيد المثير للسخط؛ بل الصريح الأسترالي الذي أخفق في فهمِ ضبط النفس لدى الإنجليز (لديّ). ومع ذلك، قبل كل شيء، أتذكر ما جاء مرةً بعد مرة في الرسائل والإهداءات التي تلقيّتها في العام الماضي. سواء من أولئك الِذين عرفوه طوال العمر أو التقوا به مرةً واحدةً فقط، يشهدون وبشكلٍ مذهل على روح الدعابة، والدفء، والتواضع، والاهتمام بالآخرين.

عند الاستماع إلى كل خطابات العرفان والتحية من الأطفال البالغين الخمسة عن والدهم في جنازته، صيف عام ٢٠١٥، تتدفّق مشاعر العطاء والحب والحزن الذي أشرع الباب للفقد؛ لأنه لم يبق أي شيء مهمّ ليُقال. تذكّر توم رحلةً عاصفةً في عطلةٍ عائليةٍ على متن قاربٍ في يوغوسلافيا، قبل أن تحدث الحرب: «كانت المياه تقذف بنا وتدحرجنا وتتدفّق في القارب، والسياح من حولنا يصرخون ويتقيؤون على جانبي المركب. لكن أبي أحبّ التجربة تمامًا. وضع ذراعه حول كتفي ولم أشعر بالخوف. كنّا نصيح ونضحك، ونصرخ: انطلق أسرع، انطلق أسرع!» تحدّث جوش عن الموسيقى وكيف جمعتهم معًا: «للسّاعات التي لا تُحصى التي قضيتها في الاستماع إليّ وأنا أتدرب على الترومبون، شكرًا لك. وصدقني، لقد أمضيت أيضًا ساعات طويلة أستمع إليك أثناء التدرب على البيانو، أنت ولي [مدرس البيانو] تعزفان دروس البيانو الصباحية، وأنا ألعب بـ(رجل الثّلج فرَسْتي[1]) على الأرض.» تذكّرت ليزي قصص النوم التي كان يحكيها: «قصص قصيرة عن كلب طرزان (بوتي بوت الصغير) وأخرى أسطورية مثل: (بيت أبي المرعب)، وهو

---

(١) رجل الثّلج فرَسْتي Frosty the Snowman، فيلم كرتون أنتج العام ١٩٦٩.

حدَثٌ سنوي للأطفال المحليين في عيد الهالوين.» وشكَرَتْه قبل كل شيء على «الشجاعة في التفكير النقدي وعدم القبول بالراحة والاستقرار على منظورٍ واحدٍ للعالم».

أترك الأمر لجابرييل، ابننا الأوسط وهو الآن أب، ليقول لنا الكلمة الأخيرة. بالنسبة لأولئك الذين عرفوا جون، أو الذين قابلوه في هذا الكتاب، أعتقد أن هذا يتحدث لنا جميعًا: «سأفكر في أبي في كل مرّة تمطر فيها».

تمهيد

أمسِكُ بطرَف الخيط[1]

أوليفر ساكس[2]

هناك العديد من السير الذاتية التي كتبها المكفوفون - روايات وسرديات مؤثّرة وملهمة في آنٍ واحدٍ - تُبْرز الآثار العاطفية والأخلاقية للعمى في الحياة، ونوعيّة الإرادة والفكاهة ورباطة الجأش اللازمة لتجاوز المحنة. هذا الكتاب ليس حكاية: ليس له بداية أو وسط أو نهاية واضحة؛ يفتقر إلى الادعاء الأدبي. إنه يتجنّب الشكل السردي نفسه وهو، في رأيي، تحفةٌ فنّية.

لم يُكتب: «أمسِكُ بطرَف الخيط» في جلسة كحكايةٍ أو سردية، ولكن كُتِب وسُجّل على فترات - في البداية يوميًا، ثم

(1) Touching the Rock: An Experience of Blindness, 1990 by Vintage

(٢) أوليفر ساكس Oliver Sacks طبيب أعصاب بريطاني، عالم طبيعة ومؤرخ وكاتب (١٩٣٣ - ٢٠١٥)

بشكل دوري - بعد أن فقد البروفيسور هال بصرَه تمامًا، في الأربعينيات من عمره. ما يقدمه هو ملاحظات مؤثّرة في طبيعتها ووضوحها، ملاحظات حول كل جانب من جوانب حياته وعالمه الداخلي الذي تحول وقتها وبشكل مُرعب. يصِفُ كيف يعبر الشارع. كيف يمكن للمرء أن يضيع بشكل مروّع وكلّي عندما يكون أعمى؛ كيف يجد المرء نفسه مُتجاهلاً أو مستصغرًا؛ كيف أن ذكريات وصور وجوه الناس، وجه المرء أيضًا، لم تعد مُحدّثة لافتقاد الرؤية الفعلية، تصبح متحجّرةً أولاً، ثم باهتةً ثم تختفي تمامًا؛ كيف تتغير العلاقات مع الأسرة؛ كيف تصبح مفاهيم: «المكان»، «الفضاء»، «هنا»، «هناك»، «الحضور»، «المظهر»، بكل درجاتها، مع التقدّم في المرض والعمى، خالية تمامًا من المعنى. لم يكن هناك أبدًا، على حد علمي، كتابٌ فيه قراءة دقيقة ورائعة (ومخيفة) لكيفية التلاشي التدريجي للعين الخارجية، ليس ذلك فحسب، بل التلاشي «للعين الداخلية» أيضًا؛ الخسارة المطّردة للذاكرة البصرية، والصوَر البصرية، والتواؤم البصري، والمفاهيم البصرية (في وقتٍ ما، كان لا يتذكر ما إذا كان الرقم ٣ يُشير إلى الخلف أم إلى الأمام)؛ في رحلته المستمّرة والتي استغرقت خمس سنوات وأخذته إلى الحالة التي أسماها: «العمى العميق».

الملاحظـات كانت دقيقة، وبنفس القدر عميقة: أمعَنَ النّظر فـي كل شـيء، واستكشـفه إلـى أقصـى حـدوده، كل تجربـةٍ في الكتـاب سـلكت طريقًـا، وأثمـرت حصـادًا كاملًا مـن المعاني. نظـرات هـال الثاقبـة، وجمـال لغته، تجعـل هذا الكتاب شـعرًا؛ عمـق تأمّلاتـه يحولهـا إلـى فلسـفة أو فينومينولوجيـا. لـو كان فتجنشـتاين[1] أعمى، لكتَبَ مثـل هذا الكتاب، معبرًا عن أعماق فينومينولوجيـا الإدراك المتغيـرة علـى الـدوام. وبالفعـل، فـإن اسـتخدامه للاسكتشـات القصيـرة والملاحظات المُبهـرة عنها، يجعل: «أمسِكُ بطرَف الخيط» مشابهًا وبشكل غريب للتحقيقات الفلسفية.

كتب هال في مقدمته:

> العلاقـة بيـن الحلم واليقظة وطبيعـة الوعي بحد ذاته هـو أحدُ الثيمـات المتكرّرة فـي الكتاب. تشـمل الثيمات الأخـرى الإدراك المتغيّـر للطبيعـة، التحـوّل فـي فهـم ما يعنيـه الفـرد، ومشـكلة تفهّـم واسـتيعاب هـذه الخسـارة الفادحة. ... ثمّة أجزاء متناثرة في ثنايا الكتاب ... [و] إذا

(١) لودفيغ فتجنشـتاين Wittgenstein، فيلسوف نمسـاوي إنجليزي، يعدّ من أبرز فلاسفة اللغة والمنطق (١٨٨٩ - ١٩٥١)

كان هناك تكرار؛ فذلك لأن ذات المشاكل والتجارب صالت وجالت، وجرى تأويلها من جوانب عدّة.

وكتب فتجنشتاين في مقدمته:

كان هذا بالطّبع مرتبطًا بطبيعة التحقيق ومعناه. وهذا يحتّم علينا السّفر عبر حقولٍ رحبةٍ من الأفكار المتقاطعة في كل اتجاه. إن ... الملاحظات الواردة في هذا الكتاب هي، كما كانت، اسكتشات لبَسْطات الطبيعة، أُجريت في سياق هذا الترحال المستغرق والطويل. اقتربت من نفس النقاط أو تقريبًا نفس النقاط من اتجاهات مختلفة، وكونّت على أساسها اسكتشات جديدة ... وبالتالي فإن هذا الكتاب هو في الحقيقة مجرد ألبوم.

كل هذا ينطبق، بالضّبط، على: «أمسِكُ بطرَف الخيط». فهو يقدّم في نهاية المطاف، صورةً أو ألبومًا، بأقصى قدرٍ من الشمولية، لمشاهد الطبيعة للعمى العميق ويرسمها من مئة نقطةٍ مختلفة؛ إنه يُظهر لنا، أخيرًا، عالم العمى، وبطريقةٍ لا يمكن القيام بها بأسلوبٍ صريح، متتابع، ومباشر.

ليس كل شيءٍ مُظلم. مع اختفاء البصر في الداخل والخارج، ثمّة أنماطُ إدراكٍ أخرى تصبح أكثر كثافة وأهميّة،

وخاصة تلك المتعلّقة بالسّمع واللمس. هنالك مقارنة مستمّرة في ثنايا الكتاب، لطبيعة الرؤية والسمع، والتباين الرئيسي بين التجربة البصرية والسمعية. ومع ذلك، يبدو أن المطر أحيانًا (والريح) يوصل بين التجربتين، أحد أجمل المقاطع التي وصفت هذا:

المطر وسيلة لإبراز ملامح الأشياء؛ يُلقي بغطاء مُلوّن على الأشياء التي لم تكن مرئيّة من قبل؛ عوضًا عن عالمٍ متقطّع ومُشتّت، فإن المطر المتساقط المُطّرد يخلق ديمومةً للتجربة الصوتية ... عادةً، عندما أفتح الباب الأمامي، هناك أصوات متكسّرة ومتفرّقة تنتشر عبر العدم. أعلم أنّه عندما أقوم بالخطوة التالية سألقى المسار أمامي، وأن حذائي على اليمين سيقابل العشب ... أعلم أن كل هذه الأشياء موجودة، ولكنني أعرفها بالذاكرة ... يقدّم المطر وفرةَ الموقف بأكمله دفعةً واحدةً، ليس بالتذكّر أو التوقّع، ولكن بالواقع في هذه اللحظة. يعطي المطر إحساسًا بالمنظور والعلاقات القائمة بين جزءٍ من العالم وآخر ... أشعر كما لو أن العالم المحجوب حتى ألمسه قد كشفَ نفسَه لي فجأة.

كطبيب أعصابٍ مهتمّ بشدة بتأثيرات العجز والحرمان الحِسّي، وقدرة التعويض بالحواس الأخرى، أجِدُ نفسي منجذبًا بالتفاصيل والأصالة الواضحة لمثل هذه الأوصاف. على الرغم من وجود العديد من الأعمال المكتوبة عن العمى، لم يستكشف أيٌّ منها، على حد علمي، آثاره الداخلية بالطريقة التي كتب عنها هال.

من المعروف أنه إذا كان هناك تلفٌ في الأجزاء البصرية من الدماغ، القشرة البصرية، فقد يسبب فقدانًا ليس فقط للصور البصرية والذاكرة البصرية، ولكن لجميع المفاهيم البصرية، وقد يعطّل التفكير البصري، وبالتالي: «الهوية البصرية». قد يصبح الشخص مخلوقًا غير بصريّ تمامًا. ولكن إذا توقفت الأجزاء البصرية من الدماغ عن العمل، أو تدهورت، فإن أجزاء أخرى من الدماغ - السّمعية واللمسية - بحسب وصف هال، تزيد وتكثّف من وظيفتها. قد يحدث تحسينٌ مماثل (للبصَر، للإدراك البصري والصّور والتمييز والذاكرة) بين الصّم؛ وهنا يوجد دليلٌ جيد على التغيّرات الفسيولوجية في الدماغ، وهو ارتفاع الاستجابة ودقّتها في القشرة البصرية، بالإضافة إلى إعادة تخصيص مناطقَ الدماغ الأخرى، أي القشرة السمعية، لأغراض المعالجة البصرية. قد يعتقد المرء، بحسب مذكّرات

هـال، أن هنـاك بالمثـل، ليس فقـط انخفاضًـا (وحتـى انقراضًا) وظيفيًّـا فـي القشـرة البصريـة، ولكـن زيـادة وظيفيّة في القشـرة السـمعية واللمسـية، وربمـا إعـادة تخصيـص القشـرة البصريـة للمعالجة السمعية المحسنة.

هناك اسـتعارتان مرتبطتان في هـذا الكتاب، مما يمنحه قوةً مجازيـةً هائلـةً: تلـك الخاصـة بالرحلـة والنفـق. العالـم المرئي المتراجع هو الضوء المتلاشـي خلفه، بينما يتقدّم هو عبر النفق، النفق الشـبيه بالموت، الذي لا ينتهي ببصيص ضوء، النفق الذي لا يمكنـه أبـدًا أن يأمل في الفرار منه. نسـافر مع هال أبعد وأبعد فـي عالـمٍ من العمـى، أو حيث لا يوجد عالم، حتـى يصِل أخيرًا إلى نقطةٍ لا يسـتطيع فيها اسـتدعاء ذكريـات الوجوه، والأماكن، وحتـى ذكريات الضـوء؛ هذا هـي انعطافة النفَـق، ووراءها يقع: «العمـى العميـق». ومـع ذلك، في هـذه النقطة الأعمـق والأكثر قتامـة ويأسًـا، يحصـلُ تغييـرٌ غامـض: لم يعُـدْ هنالك إحسـاس موجـع بالخسـارة، بالضجـر، باليـأس، بالحزن، وإنّما إحسـاس جديـد بالحياة والإبداع والهوية. كتب هال: «على المرء أن يعيد تشـكيل حياته أو أن يقبل بخسـارتها»، وهذا علـى وجه التحديد إعـادة خلـق، خلـقٌ لنظـام، وصنـعٌ لهويـةٍ جديـدة تمامًـا، والتي وصفهـا هال في الصفحات الختامية من كتابه المذهل. عند هذه

النقطـة يتسـاءل هال مـا إذا كان العمى «هدية مظلمـةً ومتناقضة» ومدخلًا مرعبًا وغير مرغوبٍ فيه، ولكن يجب قبوله، إلى شـكلٍ جديـدٍ وعميـقٍ من الوجـود. يُظهِـر «العمى العميـق» الآن جانبه الآخر، ويصبح هال، على حدّ تعبيره: «رائيًا بكامل الجسـد».

كتب في الحاشـية: «كونك رائيًا بكامل الجسد»، يعني: «أن تكون في إحدى الحالات البشرية الأشد تركيزًا. إنها حالة، مثل حالـة الشـباب والشـيخوخة، أو الذكـر والأنثى، إنهـا إحـدى الأنظمة البشـرية.» وفي اكتمال هـذه الحالة - تذكرنا إلى حدٍّ ما باكتمـال: «الصمَم العميق» الذي وصَفه الشـاعر ديفيد رايت في كتابه الصمم[1]- التي لا تتشكّل في حمولتها نظام وعمق وهوية جديـدة فقط، بل اكتشـاف لأعماق المرء وأغـواره، لمركز المرء وروحه وجذره وصُلْبه: هذا، بالنسـبة لهال، هو: «أمسِـكُ بطرَف الخيط».

(1) Deafness: A Personal Account by David Wrigh, 1991 by Faber & Faber

مقدمة لـ

«أمسِكْ بطرَف الخيط»

جون م هال

ولدت في ٢٢ أبريل ١٩٣٥ في كوريونج[١]، وهي بلدةٌ تقع في شمال شرق فيكتوريا. كان والدي وزيراً ميثوديًّا (قائمًا بأعمال الكنيسة الميثودية) في مدينة كادجوا[٢] القريبة. هاجر من إنجلترا عندما كان طفلاً عام ١٩١٥، وبعد عددٍ من الوظائف في المزارع والمصانع، تدرّب وأصبح سائق محرّكات. قاد محركات الجرّ، والآلات الزراعية، وعمل في محطات التبريد وأنظمة الري، ثم انخرط في صناعة الأخشاب. كان يعمل في معامل نشارة الخشب وكسائق رافعة في العديد من معسكرات قطع الأشجار، معظمها في غابات شرق وجنوب فيكتوريا. روى قصّة هذه السنوات الملوّنة في سيرته الذاتية: «حكاية كورا

(1) Corryong

(2) Cudgewa

جاك[1]» التي نشرها المجلس المشترك للتعليم المسيحي في ملبورن، ١٩٨٤.

أثناء عمله في معسكر احتطابٍ بعيدٍ في منطقة بيناك[2] قرب سلسلة جبال داندينونج، التقى بمادج هوتلي، المعلّمة الوحيدة في المدرسة المحلية الصغيرة. كانت مسيحيّةً متحمّسةً، وكان لها تأثير كبير في تحوّل جاك إلى المسيحية والذي حدث في عام ١٩٢٧. تدرّب على الوزارة (الخدمة) الميثودية في كوينز كوليدج، ملبورن، وكانت تعيينه الأول في مدينة كادجوا.

نشأت والدتي في مدينة ستاويل الريفية، الواقعة في شمال غرب فيكتوريا بالقرب من سلاسل جبال جرامبيان الجميلة. هاجرت عائلة هوتلي من إنجلترا في سبعينيات القرن التاسع عشر، وكان والد مادج هو المالك والمشغّل لأول مرآب في ستاويل. تدرّبت مادج كمعلمة ابتدائية في ملبورن قبل أن تُعيّن في بيناك.

كنت الطفل الثاني للزواج، حيث ولدت أختي أليسون في عام ١٩٣٣. وفي غضون أيام قليلة من ولادتي، ظهرت تقرّحات

---

(1) Yarns of Cowra Jack

(2) Beenak

فـي جلدي. كانـت هذه بداية الحالة التـي ابتليت بها في النصف الأول مـن حياتي. قد تكون حالة من الحساسـية المرتبطة بالربو والمصاحبة لاعتمام خَلْقي لعدسة العين[1]، وكل هذه الأعراض جزء من متلازمة لم تُحدّد إلا بعد سـنواتٍ عديدة.

مهمـا كان السـبب، فقـد كانـت النتائـج دراماتيكيـة، وعلى الرغم من أن الطفل يقبل كل شـيءٍ باعتباره طبيعيًّا دون سـؤال، فـإن هذا الجانب من طفولتي وشـبابي تـرك انطباعًا عميقًا لدي. تخلّلت طفولتي ذكريات الضمّادات والمراهـم، وأكمام القميص الرفيعـة والممزّقة بسـبب الحكّـة، وذكرياتي كطفـلٍ صغير يدفع نفسه على دراجةٍ ثلاثية العجلات، وطفلٍ لا يقوى على الوقوف وجعـل سـاقيه مسـتقيمتين بمـا يكفـي للمشـي بشـكل مريـح، ومعلميـن فـي حيـرةٍ يسـألونني لمـاذا أظافـري كانـت مكسّـرةً ومصقولـة، وذكريـات حبّ والدتـي واهتمامها. يدهـا الحازمة، وصبرهـا اللامتناهـي، ومزيـج القـوّة والحميميّة الـذي نقلته إليّ وترَك أثرًا دائمًا.

كادجوا، ليسـت بعيدةً عن منابـع نهر موراي وأعلى قمّة في أسـتراليا، جبل كوسيوسكو[2]، منطقة ذات جمال طبيعيٍّ ورائع،

---

(١) أو مياه بيضاء cataract

(2) Mount Kosciusko

لكـن هـذا لـم يتـرك أي انطبـاع لـديّ حتـى عـدت بعـد أكثر من عشـرين عامًـا. نُقِل والدي بعـد عامين من ولادتـي إلى الجانب الآخـر مـن الولايـة، إلـى ريـد كليفـس[1]، وهـي بلدةٌ علـى نهر موراي ليسـت بعيدة عن ميلـدورا. كانت كروم العنب تُروى من مياه نهر موراي. ذكريات طفولتي الأولى تأتي من تلك السنوات. كان الطعـام يُبـرّد بصناديـق الثلج، وما زلت أتذكـر الرجل الذي يأتـي بكتلـةٍ ضخمـةٍ من الثلـج يكسِـرها بالفأس لجعلها مناسـبة ويلفّهـا بالخيـش على عربة الثّلج. كنت أنا وأليسـون نلتقط قطِعَ الثلـج الحـادة المتناثـرة ونركض نحـو الأخاديد المحفـورة بين كـروم العنـب المجاورة للمنزل. لا زلت أتذكـر الطبيعة الملحية للثلج المكسـور، وطعـم العنب الأخضر الحلـو، وملمسَ التربة الجافّة المُفتتة.

بموجـب الترتيبـات الدورية المعتادة للـوزارة الميثودية في تلـك الأيـام، نُقِـلَ والدي مـرةً أخرى بعـد ثلاث سـنوات وهذه المـرة إلى تسـمانيا[2]. كان ذلك فـي أواخر عام ١٩٣٩ أو أوائل عام ١٩٤٠، وكان على ظهر السـفينة التي نقلتنا من البرِّ الرئيسي مدفـعٌ مضـادٌ للطائرات. عندمـا أزال الطاقم الغطـاء عن المدفع

---

(1) Red Cliffs

(2) Tasmania

للتمرين اليومي، راقبتهم مجموعةٌ من الأطفال الصغار، بمن فيهم أنا وشقيقي الأصغر كيث، المولود في ريد كليفس.

خلال هذه السنوات من الحرب العالمية الثانية عِشنا في وينيارد[١] على الساحل الشمالي. كان هناك شعورٌ بالرهبة من أن يقصف اليابانيون ملبورن مسترشدين بأضواء ساحل تسمانيا الشمالي، أو ربما يحاولون الهبوط قبل الهجوم على البرّ الرئيسي. حُفِرَ خندقٌ متعرّج في ساحةِ المدرسة، وكل يوم كنّا نركض إلى الملجأ في الخندق، ونتدرّب على ارتداء خوذاتنا المصنوعة من الصّفيح وأقنعة الغاز. في المساء، كُنّا نجلس عند السياج الأمامي ونراقب الكشافات الليلية تتحرّك في السماء. كُنّا نقضي عطلاتنا كل صيفٍ في بووت هاربر[٢]، على الساحل، لم يكُن بعيدًا. تعلّمت هناك حبَّ البحر، واستمتعت برؤية أمواج المدّ والجزر وعجائب الحياة في برَكِ الصخور. بينما كنا نعيش في وينيارد، اِكتملت عائلتنا بميلاد جانيس.

عندما انتهت الحرب في المحيط الهادئ، في عام ١٩٤٥، كنت في جناح الأطفال في مستشفى الأمير هنري في ملبورن، بسبب الأكزيما الشديدة التي أعاني منها. كان عرضُ الألعاب

---

(1) Wynyard

(2) Boat harbour

النارية على طول ضفاف نهر يارا مرئيًا بوضوح من الطابق العاشر من المستشفى، وأتذكّر أيضًا سماع صوت الجنرال ماك آرثر في أجنحة المستشفى والذي أعلن نهاية الحرب. عادت عائلتي إلى فيكتوريا، وعمل والدي بعد ذلك في تشارلتون[1]، وهي بلدة ريفيّة صغيرة تشتهر بزراعة القمح وتقع على نهر أفوكا في الجزء الشمالي الغربي من الولاية. كنا نلعب ونتقمّص أداورَ رعاة البقر والهنود بين أكوامٍ ضخمةٍ من أكياس القمح المتراكمة بجانب خط السكة الحديد وفي المستودعات. كنتُ أعبُرُ النهر في طريقي إلى المدرسة، وأسير على جسر للمشاة. في أحَدِ الأعوام غمرَ النهر الجسر ولم نستطِع العبور من فوقه. كان من المثير للغاية مشاهدة ارتفاع مستوى المياه كل يومٍ، ومن ثم رؤية أنماط الشقوق العميقة المتكوّنة في الطين الجاف تحت أشعة الشمس الشديدة. أحيانًا، كانت تهبُّ عواصفُ ترابيّة شديدة، وتصبح السماء حمراء وتنذر بالسوء ونعود جميعًا إلى المنزل من المدرسة. بالكاد كنت أكتشف طريقي، أسير على طول السياج الأمامي حتى أصِلَ إلى البوابة، وبصعوبةٍ بالغةٍ أفتح عيني بسبب حُرقة الغبار العنيف.

---

(1) Charlton

فاتنـي عـامٌ مـن المدرسـة بسـبب حالتـي الصحيـة السـيئة، وقضيـت تلـك الفتـرة في مدرسـة المراسـلة التي تديرهـا وزارة التعليـم بالولاية. أحببت ذلك، وكنتُ أنتظر بفارغ الصبر الحزمة الأسبوعية من الكتيبات، وبطاقات العمل، والرسائل من معلميّ الذين لم أقابلهم من قبل. تبِعَ ذلك عامان في مدرسـة تشـارلتون الابتدائيـة العليـا، قبـل أن ننتقـل على بُعْد سـتين ميـلاً جنوبًا إلى إيجل هوك[1] بالقرب من مدينة بنديجو[2]. كنت أقطع أنا وكيث ثلاثـة أميال للوصول إلى المدرسـة بالتـرام أو بركوب الدرّاجة. كانـت إيجـل هـوك وبنديجـو تقعـان علـى حقـول الذهـب الفيكتوريـة[3] القديمـة، وكانـت الرافعـات الطويلة فـوق أعمال المنجـم جـزءًا مـن الأفق. كانـت هناك أدغـال مثاليـة للمغامرة، يتخلّلها أنفاق ومهاوي المناجم.

ارتبـط والـدي بدائـرةٍ كبيـرة تتكـون مـن ثـلاث كنائس في المدينـة، لـكلٍّ منهـا برنامج كامل من الأنشـطة، وثـلاث كنائس ريفية صغيرة. كانت الحياة في الكنائس نابضة ومزدحمة. تعلّمنا فـي الكنيسـة كيفيـة الدراسـة، والمناقشـة، وإدارة الاجتماعـات

(1) Eaglehawk

(2) Bendigo

(3) Victorian goldfields

العامة، ونشـر الصحف. تعلّمنا كيف نشـقّ طريقنا حول الأدغال ونغنّي. في سنٍّ الرابعة عشرة، قامت مجموعةٌ من الشباب الذين تدرّبـوا علـى الخدمـة الميثوديـة فـي كليـة والـدي القديمـة فـي ملبـورن، كوينـز، ببعثـة تبشـيريّة فـي كنيسـة بنديجـو المركزيـة، الواقعـة علـى شـارع فورسـت. كانـت تلك بداية عشـر سـنوات مكثّفـة من المراهقـة الدينيّـة والعاطفية، السـنوات التي خرجت منها لأجد نفسـي أدرس علم اللاهوت في كامبريدج بإنجلترا.

ملاحظتي لضعف نظري كانت في وقتٍ سـابق، ربما عندما كنـت في الثالثة عشـرة من عمري، لاحظت وأنـا أتناول الإفطار أنـه كان صباحًـا ضبابيًـا للغاية. لم تتّفق معي أمـي المتفاجئة، ثم تذكّـرتُ أننـي كنت أشـتكي من عـدم تمكّنـي رؤية السـبّورة في المدرسـة، فأخذتنـي إلى بنديجو لرؤية أخصائـي العيون الأول. تطلّـب الأمـر ثمانيـة وثلاثيـن عامًـا حتـى يخرجنـي مـن رعايته أخصائي العيون الأخير.

شُـخّصت بإعتـام عدسـة العيـن وفقـدت البصر فـي إحدى عينـي. بعد عدة أشـهر، بدأ البصر في العيـن الثانية يتدهور، وفي غضِون بضعة أشـهر أصبحت لا أرى سـوى ضبابًـا أبيضَ كثيفًا. كنـت أقـرأ رواية عـن الغـرب الأمريكي، وفـي عجلةٍ مـن أمري لإنهائهـا، بـل كنـت منزعجًا مـن الانقطـاع عنهـا. أجّلت عدوى

الجلد الشنيعة التي غطّت وجهي ورقبتي الجراحة وجعلتها مستحيلة، وقضيت عدة أسابيع في المستشفى منتظرًا. أخيرًا، ثُقبت عدستا عيني حتى تذوب المياه البيضاء وتتسرّب تدريجيًّا. لم يعد إجراء عملية: «الوخز بالإبرة» للعدسة موجودًا، لاكتشافهم لاحقًا أن الهلام الزجاجي يميل إلى التقدّم إلى الأمام، ما يؤدي إلى انفصال الشبكية. ربما لعبت حالتي دورًا صغيرًا في هذا الاكتشاف. أخيرًا، تم نزع الضمادات وأُعطيت النظارات. أعادت هذه العدسات الثقيلة العالم لي، وأتذكر الملامح الواضحة والنابضة بالحياة للأشكال والألوان. شهقت مبتهجًا، وضحك أبي وكل الاستشاريون بهجةً بذلك.

بعد ثلاث أو أربع سنوات، مررت بتجربة الظلام المميّز، كانت المنطقة المظلمة على شكل قرصٍ وحوله وميض من الضوء، يظهر بوضوح عندما أحرّك عيني بسرعة، وهذه أحد الأعراض التي تعلّمت ربطها بشبكية العين المنفصلة. قضيتُ سنواتٍ عديدة في مراقبة تقدّم هذه الظلال الداكنة، وقياسها بعنايةٍ على الحائط لتحديد سرعة تقدّمها، ومحاولة شرح شكلها وموقعها الدقيق لأطباء العيون المتشككين، مدركًا أنه عندما يمرّ القرص في النقطة المركزية للرؤية فلن أتمكن من القراءة. ومع ذلك، في المرة الأولى التي حدث فيها هذا، لم أدرك

أهميّته، وعلى الرغم من أنني حفِظت الأماكن الدقيقة لمجال الرؤية، إلا أنني لست متأكدًا إن كنت أخبرت والدي. كان هذا في العين اليمنى، ووفقًا لسجلاتي، مر القرصُ سريعًا فوق مركز الرؤية، وظهر الضوء على الجانب الآخر، واستعدت البصر تمامًا. في ذلك الوقت، لم أكن أعرف شيئًا عن انفصال الشبكية. قال بعض الأطباء إنهم سيتمكنون من اكتشاف العلامات الأخرى لهذا الانفصال المبكر؛ على أي حال، لم يكن لها أي أهمية. كنت في السابعة عشرة من عمري عندما ظهر القرص الأسود في العين اليسرى. كنا نعيش حينها في ملبورن ونُقِلت إلى أحد المستشفيات الرائدة. لم أُشخّص وابتلع القرصُ الأسود الرؤيةَ في عيني اليسرى. لبعض الوقت، كنت أرى من خلال هلامٍ أخضر عميق، ثم نزفت عيني وتلاشى الضوء. لم أكن منزعجًا، كطبيعة الشباب اللامباليين. ما زلت مبصرًا بعيني اليمنى، والتي بدَت بطريقةٍ ما وكأنها قد أصلحت نفسها.

بالنسبة للشَكْل السادس[1] من دراستي، درست في مدرسة ملبورن الثانوية للبنين. كان الانتقال من مدرسة ثانوية إقليمية صغِيرة إلى إحدى المدارس الرائدة في عاصمة الولاية مثيرًا

(١) الشكل أو النمط السادس sixth form؛ السنتين الأخيرتين قبل الجامعة.

للغاية، ولأول مرة استمتعت حقًا بالمدرسة. كانت مواد التاريخ والأدب الإنجليزي والجغرافيا، تساعدنا على التفكير في الأسباب والمسبّبات، وبدأت أفهم طبيعة الأدلة. كنت واعظًا محليًّا ميثوديًّا مؤهلًا وذا خبرة، وسرعان ما وجدت أصدقاء يشاركونني ذات المسعى. في عام ١٩٥٣ التحقت بجامعة ملبورن وقرّرت أن أحصل على شهادة الآداب العامة. لم تخطر ببالي فكرة الانضمام إلى إحدى المدارس الرائدة، فقد كان تفكيري منصبًّا تجاه الوزارة الميثودية وكنت أبحث عن تعليمٍ من شأنه أن يُعِدّني للدراسة في كلية كوينز، ومن ثمّ السير على خطى والدي. كانت الإجازات مزدحمة بتنظيم المعسكرات الصيفية للأطفال والرحلات الشاطئية، سافرت مرتين بين الولايات مع لجان الطلاب وفي كل مرة كنت أعود إلى المنزل مبكرًا ومصابًا بالربو.

قبل نهاية سنتي الأولى بقليل، ظهر القرص المظلم المألوف في عيني اليمنى. هذه المرة شُخّصت بشكل سريع وأُجرِيت لي الجراحة بشكل فوري. قضيت عدّة أسابيع في المستشفى، ورأسي مستريح على حلقة مبطّنة لتقليل الحركة. علمّت نفسي طريقة برايل، وقرأت سِفر المزامير وأجزاء من إنجيل القديس مرقس. انتقلت بعدها لبضعة أيام إلى المنزل

للتعافـي، كنت للتو أُجري فحصًا للحصول على نظاراتٍ جديدة عندمـا حـدث هذا الشـيء مرةً أخـرى. انتقلت إلى المستشـفى، واسـتلقيت على ظهري في الظـلام مرةً أخرى، مكثت لفترة أقرأ بطريقـة برايل وأتسـاءل عن المسـتقبل. الغريـب أن ذلك كان له تأثيـر ضئيـل في داخلـي. هذه المـرّة كانت العملية أكثـر نجاحًا، كمـا تمكّنت من الحصول على درجتي العلمية بعدها.

بعد أن اكتشـفت أن المنحة الحكومية التي تلقيّتها يمكن أن تغطّـي دورةً تدريبيّـة للمعلميـن، وجدت أن هذا سـيكون إضافةً مفيـدةً للـوزارة، وبالتالـي أمضيـت عامًـا آخـر فـي كليـة التربيـة بالجامعـة للحصول علـى دبلوم التربية (التأهيل الأولي التدريبي للمعلميـن) وتخصّصـت فـي التربيـة الدينيـة. نظـرًا لأن هـذا التخصّـص لا يُـدرَّس فـي مـدارس الدولـة، اسـتدعاني القطـاعُ المسـتقل وعُيّنـتُ فـي هيئـة التدريـس بمدرسـة النحـو التابعـة لكولفيلد تشـيرش أوف إنجلاند للبنين[1] في ملبورن.

قضيـت ما يقرب من ثلاث سـنواتٍ جميلة في هيئة تدريس كولفيلـد. درّسـت اللغـة الإنجليزيـة والتاريـخ والدراسـات الاَجتماعيـة والتعليم الديني، وقضيـت بعض الوقت في تدريب

(1) Caulfield Church of England Boys' Grammar School

الكريكت وكرة القدم الأسترالية للأولاد الأصغر سنًا، وكنت مسؤولاً عن السكن الداخلي للصغار الذي يضم حوالي ثلاثين شابًا تتراوح أعمارهم بين ٨ و١١ عامًا. كنت أذهب مرّتين في الأسبوع بعد المدرسة إلى الجامعة لحضور محاضراتٍ في الفلسفة وعلم نفس التربوي كجزء من متطلبات الحصول على درجة البكالوريوس. في عام ١٩٥٨ بدأت التفكير بجدّية في المستقبل. كانت الوزارة الميثودية لا تزال من أهدافي، ولكن مسألة الدراسة لثلاث سنوات أخرى في ملبورن لم ترُق لي. أردت حينها دراسة علم اللاهوت في إحدى الجامعات الرائدة في أوروبا أو أمريكا الشمالية. عُرض علي مكانٌ شاغر في كامبريدج من خلال فيتزويليام هاوس (الآن كلية فيتزويليام[١]). لم تسنح لي فرصة الإقامة في ويسلي هاوس[٢]، وكانت النصيحة أن أتقدّم إلى كلية تشيشونت[٣]، التي كانت كلية لاهوتية أبرشانية[٤] على الرغم من أن المدير في ذلك الوقت

(1) Fitzwilliam College

(٢) كلية ويسلي هاوس الميثودية Wesley house، إحدى كليات كامبريدج.

(3) Cheshunt College

(٤) الأبرشانيون Congregationalists طائفة من فرقة البروتستانت المسيحية. يعتقدون أن لجميع المسيحيين مدخلاً مباشراً إلى الله عن طريق المسيح، وبناءً على ذلك فهم متساوون.

كان ميثوديًا. في أوائل أغسطس من عام ١٩٥٩ أبحرت على متن سفينة اس ستراثمور[١].

في لندن قابلت ماري، أخت والدي الصغرى. كانت مختصّةً اجتماعية للأطفال في منازل دكتور برناردو[٢] في ديفون، وجاءت من مدينة اكستر لمقابلتي. قضينا وقتًا بديعًا، وزُرنا جميع المعالم السياحية الرائعة في لندن، المألوفة بالنسبة لي من لعبة المونوبولي، سافرت بعد ذلك بالقطار إلى كامبريدج.

كانت السنوات الثلاث التي تلت من أهم السنوات التي ساهمت في تكويني. كوّنت صداقات مع زملائي الطلاب من شتّى أنحاء العالم، بعضهم لا يزال صديقًا من حينها. اشتريت دراجةً بخاريةً وسافرت لجميع أنحاء إنجلترا، حتى أنني اصطحبت الدرّاجة معي إلى فرنسا وسويسرا. كان البصر في عيني اليمنى ممتازًا، لكن كان عليّ توخّي الحذر من الأجسام عن يساري، كما كانت رؤيتي الليلية ضعيفة. تعلّمت حبّ المناظر والأشياء حول كامبريدج، وركوب القوارب على نهر كام، وتناول الخبز المحمص على نيران الفحم بعد الظهيرة في

(1) SS Strathmore

(٢) منازل دكتور برناردو Doctor Barnardo’s homes، وهي منازل تعول وتقدّم رعاية اجتماعية للأطفال المعوزين.

الشـتاء. أحببت المكتبات، والحفلات، والموسـيقى. أهم شيء تعلمته كان حبّ مكتبة الجامعة. كنت أتبع أثر الأفكار والمفاهيم عبـر القـرون فـي المكتبـة، وأنتقـل مـن جنـاحٍ لآخـر، كلّ ذلـك أشـبعني وأسـعدني. فـي الـدروس التعليميـة، ولأول مـرة فـي حياتي، وجدت نفسي وحيدًا مع شخصٍ كانت مهمّته سبْر أغوار تفكيري.

لمـدة عامين قرأت الجزء الثاني مـن التريبوس[١] اللاهوتي وبقيت لمدة عام لقراءة الجزء الثالث، وتخصّصت في دراسـات العهـد الجديـد. في سـنتي الثالثة، انتخبت رئيسًـا لصالـة الطلبة. كنـت أقضـي الإجازات في التنـزّه برحلات الهيتـش هايكينج[٢] فـي أنحـاء أوروبـا والشـرق الأوسـط. بعد ذلـك، مـررت بأزمة إيمانية، ووجدت أنني لا أسـتطيع الدخول في الوزارة الميثودية بضميـر حـيّ، وقـررت البقـاء فـي إنجلتـرا واسـتئناف عملـي كمـدرس. تزوجـت مـن إحـدى الطالبـات مـن كلية تشيشـونت وانتقلنا إلى برمنغهام.

---

(١) تريبوس Tripos، هو أي اختبار يؤهّل الطالب الجامعي للحصول على درجة البكالوريوس في جامعة كامبريدج.

(٢) الهيتش هايكينج hitch-hiking أو رحلات الأتوستوب، وهي طريقة سفر قليلة التكلفة.

في عـام ١٩٦٨ كانت الحركات والمظاهـرات الطلابية في أوجّهـا، ولـم تكـن برمنغهـام اسـتثناءً. خـلال الفصل الدراسـي الأول، احتـلّ الطلاب القاعة الكبـرى والمجمع الإداري، وكان الحـرم الجامعي بأكمله في حالة من الاضطراب. انتخبت ممثلاً للموظفيـن فـي مجلـس التعليـم، ومـن ثـم انتخبت فـي مجلس الجامعـة والمجلـس الاستشـاري والمحكمـة، وقضيـت سـت سـنوات في منتصف السـبعينيات في اللجنة التنفيذية الأكاديمية لمجلس الجامعة.

كانـت برمنغهـام مدينـةً رائعـةً للعمـل، وكانـت كامبريـدج جميلـة جـدًا، ولنـدن كبيرةً جـدًا، لكن فـي برمنغهـام تعلّمت أن أعرف وأحبّ قلب إنجلترا. هنا، لا شـيء يمنع تناول الأحداث العامـة، كمـا أن الارتباط بيـن العام والخاص واضـح. إذا كانت هناك اضطرابات صناعية، إذا ارتفع سعر البنزين، إذا كانت هناك مشـاكل في شـقق المباني، أو في إمدادات الميـاه، فإن كل ذلك يتـم تداولـه والحديث عنه في المدارس والأسـواق. تعلّمت هنا أنِ أقـدر اليهوديـة، والهندوسـية، وعقيـدة السـيخ، والإسـلام. بيرمنغهام كانت واحدة من أكبر المدن الصناعية متعددة الثقافات في أوروبـا الغربية، وكان للتعليم الديني دور حيوي يلعبه.

كنت في منصبي الجديد منذ أقلّ من عامين عندما عاد الظل المظلم المَنسي إلى الظهور مرةً أخرى. أبلغت عن المشكلة لطبيبي العام المتشكك إلى حدٍّ ما، قام بفحصي بعناية، وأكّد لي أنه لم يجد أي شيءٍ وأخرجني. بعد عدّة مكالمات هاتفية مُلحّة، وافق على تحديد موعدٍ لي في عيادة العيون. هناك شُخّصت المشكلة بسرعة، وخضعت لعمليةٍ جراحية في مستشفى برمنغهام وميدلاند للعيون. كان العلاج مفيدًا، وكانت النتيجة ناجحةً للغاية. استعدت بصر عيني اليمنى بشكل فعلي، وشاركت في إحدى اجتماعات جمعية ويست ميدلاندز لطبّ العيون. لكن في غضون بضعة أشهر، عادت المشكلة.

كان التشخيص هذه المرة أكثر صعوبة. مرّ أسبوعٌ بعد أسبوع، ورفض الاستشاري رؤيتي، بينما كان الأطباء المقيمون والطلاب يُؤكّدون لي أنه لا يوجد ما يبعث على القلق. كنت أضع علامةً على جدار مكتبي كل أسبوعٍ لمراقبة تقدّم القرص الأسود. فقط وبعد خطاب احتجاج، أُرسِل بالبريد المسجّل إلى عنوانه الخاص، وافق الاستشاري على تنويمي. بعد فحص طويل أخبرني أن جراحةً فوريّة ستكون ضرورية. أكدّت له أنني على ثقة تامة بمهارته، لكنه أصرّ على تسليمي لزميله. أُجريت العملية بمهارة كبيرة، على ما أعتقد، ولكن نتج عنها ندوبٌ في

العيـن وأثـارٌ دائمة. بحلول عـام ١٩٧٠، بدأت عقـدًا من الرؤية المتدهورة.

فـي عام ١٩٧٣ ولدت ابنتي إيموجين (من زوجتي ماري)، لكن في ربيع عام ١٩٧٩، بعد أكثر من عامين من الانفصال غير الرسـمي، اتفقت أنا وزوجتي على الطلاق.

اكتملـت أبحاثـي عـن العهـد الجديـد والتـي أجريتهـا فـي جامعـات لنـدن وبرمنغهـام بحلـول عـام ١٩٧٠، لكـن الإعداد للنشـر في عام ١٩٧٤ واجه بعض المشكلات، حيث بقيَ الكثير مـن العمل والبحث فـي اللغات القديمة والأجنبيـة. على الرغم مـن أننـي كنت آمـل أن لا يسـتمرّ بصري فـي التدهـور، إلا أنني كنت أعلم أنه سـيكون من الحماقة توقّع تحسّنه أو منع تدهوره. كان بإمكانـي إقنـاع الناس بقـراءة الكتب الإنجليزيـة لي، ولكن من الصعب العثور على أشخاصٍ يقرؤون لي اليونانية والآرامية. لـم أكن أبدًا جيـدًا في اللغات على أي حال، وراق لي اشـتغالي التدريجي في الفلسـفة واللاهوت والعلوم الاجتماعية. درّسـت ماجسـتير علـم اللاهوت التربوي، وشغلني ذلك فكريًا، في حين أنِ الزيـارات المتكـررة لإلقـاء المحاضـرات في بلـدان مختلفة جلبـت لي مجموعةً كبيـرة من الزملاء، وفهمًا أعمق للعلاقة بين التعليم الديني والثقافة الحديثة.

بدأت باستخدام بالعدسة المكبرة للقراءة في عام ١٩٧٣ أو ما يقرب من ذلك، وفيَ عام ١٩٧٧ انتهيت من قراءة شارديك لريتشارد آدامز[1]، وقررت أن تكون هذه آخر روايةٍ أقرأها بعينَي. خطرت ببالي هذه اللحظة منذ ثلاثين عامًا، عندما زاد الإعتام في عدسة عيني، تعجّلت حينها قراءة بقيّة تلك الرواية عن الغرب الأمريكي.

ومن تلك اللحظة قررت أن أستفيد من بصَري المتبقي في قراءة عملي. لم يعد هناك مجالٌ لأيّ قراءةٍ غير ضرورية. أصبحت العدسات المكبّرة أكبر وأثقل. حملتها في يدي، وركبّتها على مكتبي، وثبتّها في نظارتي. كان مكتبي عبارة عن مجموعةٍ من المصابيح ومساند الكتب. أصبح تسجيل ما قرأته وتدوينه مشكلة متزايدة. كتبت باستخدام أقلام لبّاد (خطّاط) أكثر سمكًا، وفي النهاية لا يكون في الورقة بأكملها أكثر من اثنتي عشرة كلمة أو نحو ذلك، بالكاد أقرؤها بمساعدة عدسات مكبرة. في ١ نوفمبر ١٩٧٩ تزوّجت للمرة الثانية. في غضون أقل من عام وُلِد طفلنا الأول، وسُجّلت كفيفًا. في سبتمبر من عام ١٩٨٠ عُدت إلى مكتبي من مستشفى العيون ومستشفى الولادة، مريضًا من الأوّل وزائرًا من الأخير، لأواجه موقفًا

---

(1) Shardik by Richard Adams, Het Spectrum 1974

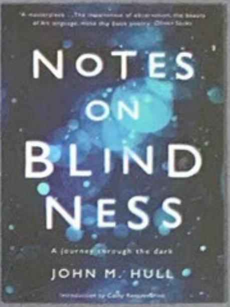
غريبًا. كان من المقرر أن أسلّم عملًا في أقل من شهر، وكانت جدران غرفتي متروسة بملفاتٍ تمثّل سنواتٍ من العمل، لم يكن من الممكن الوصول لأيٍّ منها في تلك اللحظة.

شغلَ التكييف مع هذه المشاكل السنوات ١٩٨٠ إلى ١٩٨٣، ويمكن لتلك السنوات أن تكون موضوع كتابٍ بحدّ ذاته. لا يصِفُ هذا الكتاب تلك السنوات، ولكنه عوضًا عن ذلك يصِفُ الأعوام ١٩٨٣ حتى ١٩٨٦. في عام ١٩٨٣، تلاشت آخر أحاسيس للضوء وغمرتني الأقراص المظلمة بسوادها أخيرًا. لقد حاربت بشجاعةٍ، كما بدا لي، لستّة وثلاثين عامًا، لكن دون جدوى. عندها بدأت في الغرق في أعماق المحيط، وتعلمت أخيرًا كيف أمسِكُ بطرَف الخيْط على الجانب الآخر من اليأس.

شكر وتقدير

أودُّ أن أُعرِب عن شكري لكل من آن باكلي وبيني بيكر وكاجا زيسلر اللاتي ساعدنني في إعداد المخطوطة. أود أيضًا أن أشكر أودري ألين وزميلي كريس بوكلي، وكلاهما قدما لي الكثير من المساعدة العملية لهذا العمل، كما فعل العديد من الآخرين. قرأ زميلي مايكل جريميت المخطوطة وشجّعني كثيرًا. ومع ذلك، يجب أن أتقدّم بخالص شكري إلى زوجتي مارلين وأولادي إيموجين وتوماس وإليزابيث وجابرييل. إذا كنت كتبتُ عن توم وليزي الكثير، فذلك لأن إيموجين كانت في السابعة من العمر عندما فقدت بصري، أما جابرييل فلم يولد قبل أغسطس من عام ١٩٨٥. وُلِد جوشوا أثناء تحضير هذا الكتاب للنشر. تزوّجنا أنا ومارلين قبل أن تبدأ الأحداث الموصوفة في الكتاب بعام. هذا هو سبب إهدائي الكتاب لها ولأولادنا، بكلّ حب.

جون إم هال، ١٩٩٠



مذكرات العَمى

رحلة عبر الظلام

"المذكرات كانت دقيقة، وبنفس القدر عميقة: أمعَنَ النّظر في كل شيء، واستكشفه إلى أقصى حدوده، كل تجربةٍ في الكتاب سلكت طريقًا، وأثمرت حصادًا كاملًا من المعاني. نظرات هال الثاقبة، وجمال لغته، تجعل هذا الكتاب شعرًا؛ عمق تأمّلاته يحولها إلى فلسفة أو فينومينولوجيا. لو كان فتجنشتاين أعمى، لكتَبَ مثل هذا الكتاب، معبرًا عن أعماق فينومينولوجيا الإدراك المتغيرة على الدوام. وبالفعل، فإن استخدامه للاسكتشات القصيرة والملاحظات المُبهرة عنها، يجعل «مذكرات العمى» مشابهًا وبشكل غريب للتحقيقات الفلسفية."

أوليفر ساكس

أدب
adab
إثراء
ithra